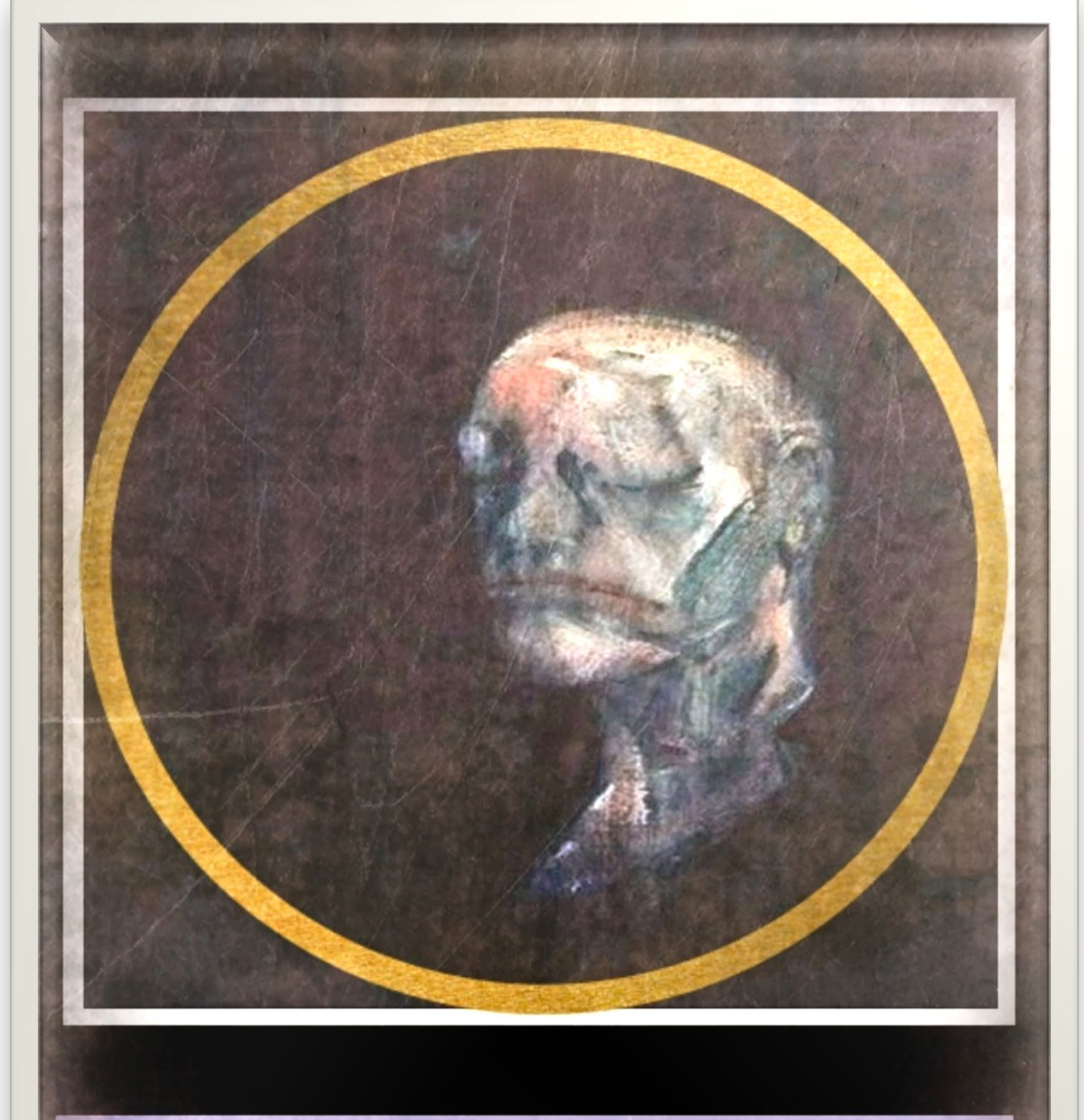


أماسي الديجور

الفهرس

(الفصل الأول)

حمل رومان حقيبته و تدافع مع بقية الناس المتزاحمين اللذين بدأوا بدخول عربات القطار، يداً تدفعه هنا، و يداً تدفعه هناك، و على الرغم من طوله المتوسط إلا إنه ظل غارقاً في بحر الأجساد المتراعصة، أبدانهم ترهقك و تأخذ أنفاسك سواء شئت ذلك أم أبيت، ألتقطت عينا رومان مقعداً شاغر في أواخر العربة، فتوجه إلى هنالك رافعاً حقيبته فوق رأسه، و ما أن وصل حتى أدخلها في مخزن الأحقبة العلوي، ليرمي جسده على الكرسي ذو الفردتين منهكاً، و الأجسام لا تزال تتزاحم أمامه في تسابق لمن يحوز على المقعد الأريح.

جلس رجلٌ على المقعد المقابل من رومان، و ألقى عليه التحية بأنفاس صعبة، و هو يمسح زخات العرق من على جبينه المحمر، و ماطاً شفتيه يلعق شاربه الكث الأشيب من تجمعات العرق التي تخللت بين شعراته الغليظة.

« يا له من طقسٌ حار!، لا تكاد تصدق بإننا ما زلنا في فواتح شهر أيار، فهذا الطقس الحارق أنسب لشهر آب منه لأيار، ألا تظن كذلك أيضاً؟، و كأننا قد تخطينا ثلاثة أشهر دفعة واحدة! ».

تضايق رومان في مقعده من هذه الإنطلاقة في الكلام لهذا الرجل، و بدا له و كأنه يمهد الأمور منذ البدء ليجعله رفيق محادثته ليسليه خلال هذه الرحلة الطويلة في مدتها و الضيقة في آفاقها، فها هما محصوران و محتم عليهما أن يجلسا قبال بعضهما البعض لساعات طويلة و مضنية، و ها هو حشد الناس قد أوشك على الإنتهاء من ملئ المقاعد، فلا مجال الآن لتغيير مكان الجلوس و ها قد طمغ الناس عرق أبدانهم المرتشحة عبر ملابسهم على قماش المقاعد المهترئة.

« نعم، أنت محق؛ فالجو حار، و أحر مما كان عليه في هذه الفترة من العام الماضي، . . . ، أتسمحون لي بالجلوس معكم هنا ».

وقفت المرأة الشابة على مرأى الرجل ذو الشارب الكث موجهةً السؤال له، و بالطبع لم يأتي هذا السؤال إلا من ناحية ملاطفة و كياسة منها، فنظر الرجل تجاه رومان بنظرة خاطفة و ثم أزاح عينيه تجاه المقعد الشاغر إلى جنبه، فأشار إليه عازماً الشابة إلى الجلوس، حيث إن المقعد الذي بجنبه هوَ كان محجوزاً لحقائبه الكثيرة التي لا يتسع لها المكان لوضعها في المكان المخصص لها في الأعلى، فأنسلت الشابة على المقعد جوار رومان متأففة من الحر و من لغب خوض هذا الغمار المعترك الذي هو إنتظار القطار و ركوبه، و أزاحت قبعة الشيبالا الحمراء من على رأسها لتمسح بالمنديل العرق من على جبينها و عيناها تجولان و تتطلعان في أرجاء القطار تنظر إلى تركيبته أكثر من راكبيه، ثم لتثبت ناظريها أمامها حيث أستقبلتها عينا الرجل ذو الشارب الكث و إبتسامةٍ عريضة مرسومة على شفتيه.

« لو علمت بإن الحرارة ستكون بهذه الشدة لما لبست هذا اللباس الثقيل، فقط أنظر لثقل هذه التنورة و سماكتها، و طولها المديد، تبدوا و كأنها بطانة لمتسلق جبالٍ جليدية ».

شمرت الشابة التنورة الطويلة التي تصل حتى أسفل رجليها عند مفصل القدم لتكشف كاحليها و قصبة ساقيها لتعرضهما للهواء، و مالت برأسها للأمام متقية حرارة مسند المقعد الذي ألتهب من أشعة الشمس الداخلة من النافذة قبل جلوسها عليه.

« هئ هئ، هذا ما قالته زوجتي في آخر مرة سافرنا فيها على متن القطار، و لطالما نصحتها بالتخفيف من لباسها عند الترحال، حتى و إن كنا مرتحلين عند الشتاء، فالترحال يتطلب الحركة، و الحركة تتطلب الطاقة، و ما الطاقة إلا حرارة!، لكنها لا تستمع لكلامي أبداً، إن

قلت لها يساراً، ذهبت يمين، إن قلت لها يميناً ذهبت يسار، و إن قلت لها لنمضي، تسمرت مكانها، هئ هئ، أقول كل هذا لكن إعلمي إني لا أطيق و لا أستسيغ السفر بدونها ».

أنضمت الشابة للرجل في الضحك المبتسم على ما قاله، و القطار يهتز بخفة من الحركة المستمرة للركاب اللذين لا ينوؤن عن التمايل و الإلتفاف في محيطهم في خضم تهيئة أبدانهم لمواجهة الرحلة الطويلة التي تنتظرهم.

« أأنت ذاهبة إلى كوتلنسكي أيضا؟ ».

« ربما، و لكن ماذا عنك؟، يبدوا إنك متحمس للذهاب إلى هناك، أراك و كأنك لا تكاد تستطيع الإنتظار حتى تلامس قدميك أراضيها، أهناك أمورٌ مفرحة تنتظرك هناك؟، ربما أقارب سيقومون بتنظيم إحتفالٍ ما؟، أو ربما وظيفة مجهزة قد وعدت بها في إنتظارك، أو . . . ، دعني أخمن، عشيقة شابة قد كتبت إليك في إشتياق لرؤياك؟ ».

ضحك الرجل على ما قالته من كلام ساخر، و تنهد بعمق مظهراً سنه الفائق، و عن كون كل هذه الأمور التي ذكرتها مجرد كلمات تعبر عن الماضي و تحوز عليه بالنسبة إليه و ليس لها أية علاقة بالمستقبل، و أخذ يطأطئ رأسه ببطئ و عيناه شبه مغمضتان و كأنه يسترجع بعض هذه الذكريات من مراحل عمره الريعانة، و إبتسامة الفتاة تزداد حدة في تعابيرها و تتشكل على طابع مغزاها، فهي قد خمنت ما يدور في خلده، و تطلعت إليه ليشارك بعض من هذه الذكريات العتيقة معها.

« يبدوا إنك قد غصت في عالم آخر يا سيد . . . ».

« تروسكيفيتش، أندريه تروسكيفيتش، عذراً على عدم تعريف نفسي منذ البداية، ماذا عنك أيتها الشابة؟، ما أسمك؟ ».

« يمكنك أن تناديني روتفا، فهذا ما يدعوني به جميع من يعرفني، إذاً يا سيد تروسكيفيتش، أو هل يمكنني أن أناديك بأندريه فقط إذا كان ذلك ممكناً؟ ».

هز تروسكيفيتش رأسه موافقاً على تلك التسمية بدون أن يفكر بالأمر، فما يهمه هو إن نادته بإسمه الأول أو الأخير، فكلاهما جزئان لا يقومان لحالهما من إسمه، فلا الثاني يستغني عن الأول، و لا الأول يستغني عن الثاني، و بالتالي جميع من يعرفه أيضاً يناديه بإسمه الأول.

« يبدوا إنك تملك كثيراً من الحكايات عن تلك المواضيع التي عددتها للتو يا أندريه، فهلا سمحت لي بالإستماع إلى بعضٍ منها؟ ».

تفاجأ أندريه من هذا السؤال، حيث إن كل هذه الأمور التي ذَكَرتها بدءاً من الحضي على وظيفة في مقاطعة بعيدة و الإنتقال من أجلها، أو مراسلة بين عشيقين عن بعد تنتهي بتزابد الإشتياق بينهما حد سفر إحداهما مسافات بعيدة فقط لكي يلتقيا، كل هذه أمور ظن بإنها مملة لكون الجميع قد مر بها على الأقل و لو لمرة واحدة في حياته، فتخيل أن تحادث أحد الأشخاص بهذه الحكايات أثناء تجمع ما، فبالتأكيد إن ذلك الشخص سيمل من هذه الأحاديث النمطية التي يمر بها الأغلبية من الناس، حدق أندريه في وجه روتفا الفتي، و عند ذلك تبين له أخيراً الأمر البديهي لتحمسها لسماع هذه الحكايات المملة.

« لا بد و أني أبدوا كطفلة صغيرة تفتقد للحنكة بسؤالي هذا، أليس كذلك؟، لكني لم أشغل عملاً ما من قبل؛ حيث إني ما زلت طالبة، و لم أراسل أحداً من قبل أيضاً، على الأقل ليس عشيقاً، فكل هذه الأمور هي جديدة و ملغزة بالنسبة لي و تثير فضولي، فهلا تفضلت في

الحديث عن إحدى رحلاتك التي قمت بها في سبيل إحدى هذه المواضيع التي مررت بها يا أندريه ».

طأطأ أندريه رأسه، حيث يبدوا بإن الطأطأة هي حركة معتادة بالنسبة له و جزءٌ لا يستغني عنه ليعبر به عن الموافقة بدل الإجابة بلسانه بكلمة 'نعم'، أو 'حسناً'، أو حتى ب 'لا بأس'، فتح أندريه فمه بعد تفكير قصير تجول فيه في ساحة ذكرياته ليختار الموضوع الأكثر تشويقاً و الأكثر ملائمة لبحدث به شابة في هذا المقتبل من العمر، و لم يمديه أن ينطق فواتح حكايته حتى علا صوت أحد عمال القطار من آخر العربة حيث طل برأسه من الباب الموصل للعربة التالية، و صاح بصوته معلناً إن رحلة القطار ستبدأ، و إن على الجميع الجلوس في أماكنهم حالاً، و ما هي ثواني قد مضت حتى أغلقت أبواب العربات من قبل عمال محطة القطار من الخارج، و بدأت عجلات القطار تدور و تخضخض العربات براكبيها و صوت صفير القطار يعلو و يصدح على كل صوت، و الناس تهلهل و تصفق محتبرين بتحركهم أخيراً و بدأهم العد التنازلي للوصول إلى مبتغاهم.

بدأت ملامح محطة القطار تختلط و تُسْحب إلى الخلف حيث تركها القطار و أستوت سرعته و زخم إندفاعه، و حلت بدلاً عنها على واجهة نافذات القطار بيوت حواشي المدينة المشيدة خارج إطار حدودها، متفرقة و مبعثرة، بعضها محاط بقطع زراعية، و آخر بحظائر و مراعي، و غيوم الصيف القليلة و الهزيلة مرسومة على الأفق البعيد تضيف تلك اللمحة التي تعبث بواقعية عمق المنظر و تجعل من القريب يبدوا كالبعيد، كطمغة رصاص من أصبع فنان قد وسخ لوحته بها في غفوة منه، إنطبعت هذه الصورة في عين كلاً من أندريه و روتفا، و أخذا كفايتهما منها، فهمهم أندريه ليعيد مسار تفكيره إلى قوامه.

« آه، أين كنا؟، . . . ، القصة، نعم، القصة!، هل ما زلتي تريدين سماع بعض من حكاياتي، أم أن هذا المنظر قد خلب أبصارك و جعل من حكاياتي تبدوا لك الآن و كأنها مجرد قصص مملة من عجوز لا يملك القدرة على السكوت و إطباق فمه صامتاً؟ ».

نفضت روفتا رأسها بشدة، و كأنها تبدد حتى فكرة أن يتراجع أندريه عن سرد حكاياته، و هي ما زالت مائلة للأمام ترفض إسناد ظهرها على مسند المقعد، و راحتا كفيها قابضتان على ركبتيها المتلامستان.

« إحكي، إحكي إحدى حكاياتك التي مررت بها أثناء رحلاتك الكثيرة على متن القطارات يا أندريه ».

و كأنه نومادي يعبئ جرته بالماء إستعداداً لغمر فيافي الصحراء، طأطأ أندريه رأسه، و نفخ صدره مالئاً رئتيه بالهواء.

« تأخذنا هذه الحكاية حوالي أربعين سنة للماضي، في ذلك الوقت كانت سكك القطارات لا تمتد إلى كل هذه المسافات التي ترينها ترتحل إليه في عصركم هذا، فإن ركبت عربة إحدى القطارات فلا ينبغي أن تتوقعي أن ترتحلي إلى أبعد من ثلاثين كيلومتراً، و حينها يجب عليك أن ترتحلي بعربات الأحصنة مسافات طويلة لتصلك هي الأخرى إلى أقرب محطة قطار لتنقلك هي أيضاً عدة كيلومترات أخرى و من ثم الإرتحال مجدداً على عربات الأحصنة و هلم جرا، فالرحلة التي تستغرقك هذه الأيام ليس سوى يومين، كانت تستغرقنا أسبوعاً كاملاً، أتصدقين ذلك؟، أسبوعاً كاملاً بالتمام و الكمال، و حدث عندما كنت في مقتبل العشرينات من عمري إن كنت متوجهاً من قريتي القديمة التي نشأت و ترعرعت فيها، مجرد قرية صغيرة في الشمال الغربي من بلدتنا الشاسعة هذه، قرية تدعى بالإسم تنيركوسكا، لا يتجاوز تعداد سكانها المائتان

عندما كنت مجرد شاباً ساذج يقطن في أرجاءها الضيقة، و كنت متوجهاً من هذه القرية إلى الجانب الآخر تماماً من البلدة، إلى مدينة خريتوفوتسك، و هذه لدهشتي آن ذاك إن كانت تبعد ما يقارب ثلاثة آلاف كيلومترا، أتصدقين هذا؟، ثلاثة آلاف!، و قد تتسائلين، ما الذي يدفعني أنا، مجرد شاب في العشرين من عمره آن ذاك و من قرية صغيرة تقع على أطراف البلدة أن يتوجه إلى الطرف المعاكس منها تماماً، و أنت محقة بسؤالك هذا، لماذا قد أتوجه إلى تلك المدينة البعيدة، فأنا و لأخبرك الحقيقة قد أختبرت أن أركب على متن القطار من قبل في تلك الفترة، لكن رحلتي تلك لم تتخطى الخمسين كيلومتراً، و كان ذلك عندما أصطحبت والدتي إلى القرية التي تسكن فيها أختها أي خالتي، فهي لم ترها آن ذاك منذ خمسة و عشرين سنة، و هي قد كل نظرها و تقوست أرجلها، فأحتاجتني كمرافق لها لأعتني بها و أسندها، لكن عدا تلك الحالة المنفردة فأنا لم أركب القطار قط بعد ذلك، حتى تلك اللحظة، عندما عزمت الترحال إلى مدينة خريتوفوتسك كما قلت لك، و سبب ذلك هي النهضة الصناعية التي بدأت تمر بها المدن الكبيرة، و المعامل و المشاغل التي شرعوا ببناءها بعدد غفير، و حاجتهم للعمال الكثر لتشغيل تلك المصانع قد دفعت كل الشبان و الشابات من القرويين للتوجه و التزاحم نحو المدن كافة، فلم تكن خريتوفوتسك بالحالة المميزة، و لم أكن أنا سوى مجرد شخص واحد من آلاف الأشخاص الأخر الذين ظنوا بإنهم سيُختارون دون أي شك لإحدى الوظائف الكثيرة المتوفرة، فأستقليت القطار الذي كان يبعد عن قريتنا بضعة كيلومترات، و أخذ بي هذا القطار كما قلت مسافة لا تتجاوز الخمسة و عشرين كيلومتراً، مما أضطرني لركوب إحدى العربات و التوجة للمحطة التالية، و هلم جرا، ثلاثة أيام مضت و أنا لم أقطع سوى نصف المسافة، فأنا في هذا الوقت قد حللت في قرية متوسطة الحجم تدعى منسكيلسكي، معظم أراضيها هي حقول و مزارع شاسعة، و سكانها قليلوا العدد، فترين المزارع و الحقول متناثرة و متباعدة عن بعضها البعض، و كأن كل فرد يسكن في قرية تخصه لحاله، فلا أحد يرحب بك عند

حلولك في محطة هذه القرية، و لا لوحة تدلك على المباني و الأماكن من مطاعم و حانات، و كأنهم لا يريدون من قريتهم إلا أن تكون مجرد محطة عابرة للمرتحلين، لا تطئ أقدامهم أبعد من حيز المحطة و لا غير، و جميع المرتحلين اللذين نزلوا عند هذه المحطة أتبعوا تلك الرغبة و لزموا أماكنهم في إنتظار القطار التالي، و الذي كان من المتوقع أن يأتي بعد ثلاث ساعات، و لكوني كنت مجرد شاب قروي بسيط الحال، و لم أسافر مطلقاً من قبل، على الأقل ليس كل هذه المسافة البعيدة، فقررت مخالفة الجميع، و الإنسلال من الحشد الذي تجمع تحت ظلال المحطة، و التوجه إلى حيث أخذتني قدماي، مساحات شاسعة من المروج، تتخللها قطعات من الحقول، و فسحات للمواشي التي كانت لا تعطي بالاً لأي شيئ سوى ملئ بطنها من الحشائش، فمشيت و مشيت حتى كلت قدماي و تقرحتا، فقررت الجلوس تحت ظل شجرة عديمة الثمار، و أخذ القليل من الراحة، و كنت أخاطب نفسي بأنه ما أن أنتهي من أخذ هذا القسط من الراحة حتى سأقفل عقبي عائداً للمحطة، فقد مضت حوالي أربعين دقيقة قضيتها في هذا المشي العقيم، و لم ألحظ أي شخص أو أي مبنى عام، أو حتى علامات طريق، فلا هدف من الإستمرار في المضي قدماً أبعد من هذه النقطة، أسدلت قبعتي المصنوعة من القش على وجهي، و في لحظة غلبني النوم، و غط جفناي تحت تأثير لغب الترحال، و ملامسة نسمات الريح الدافئة لوجهي، لم أعلم كم قضيت على هذه الحال، حتى أحسست بيد تهدهدني بخفة على كتفي، فأستيقظت مرتاعاً و قلبي يدق واجفاً، تداركت سقوط قبعتي من على رأسي و خطفتها بين قبضة يدي، و ما أن نصبت عيناي أمامي حتى خُطِف قلبي بين يداها، أجمل فتاة رأيتها في حياتي، هئ هئ، و لا تظني إن تلك مبالغة، فأنا لم أرى سوى القليل من الفتيات في عمري ذاك أكن الجميلات منهن أم القبيحات، سألتني عن ما الذي أفعله هنا، و من أنا، فأخبرتها عن كل شيئ، فتفاجأت بذلك، حيث إنها لم ترى أحداً يفعل ما فعلته من قبل، و يتجرأ على النزوح من حيز المحطة، سألتها عن إسمها، فرفضت الإجابة متعذرة بعدم معرفتنا ببعض، و

عن كونها لا نثق بالغرباء من أول لقاء، أستعلمت منها عن أي مكان قد يثير الإهتمام قد تعلم عنه في قريتها هذه، فنفضت رأسها مجيبة بإن المكان الوحيد المثير للإهتمام بالنسبة لها هو مشاهدة الركاب يصعدون على متن القطار و رؤيتهم يتدافعون، فهو مشهد مضحك بالنسبة لها، و بإنها دائماً ما تشاهدهم من بعيد كلما تسنح لها الفرصة، و بإنها متوجهة الآن لمشاهدتهم حيث إنها قد رأت القطار يمر منذ دقائق مضت متوجهاً للمحطة، ففزعتُ و نهضتُ، و أخذتُ أركض راغباً في إدراك القطار قبل أن يرحل عني، فإذا بها تركض خلفي و هي تضحك و كأننا أطفالٍ في الخامسة نلعب بدون أي إهتمام للحياة، فركضنا و ركضنا، حتى بان القطار من بعيد، و الركاب يتدافعون في دخوله، و الخارجين منه قد وقفوا متسمرين تحت ظلال المحطة يعدون الدقائق دقيقة بدقيقة لمجيئ القطار التالي، أردت أن أزيد من سرعة جريي، لكن رِجلاي قد نفذ منهما مخزون الطاقة، فسقطتُ على ركبتاي، و أدركتني الفتاة على مشهد صفد أبواب القطار، و بدء حركته البطيئة و المتصاعدة بالمضي بعيداً عن أعيننا حتى غدا كنقطة سوداء صغيرة مرتسمة على الأفق البعيد، و هديجُ أنفاسي المتقطعة يواكب خضخضة الأرض من حركة القطار، فها أنا أبان تلك اللحظة، ذهب عني القطار الأخير المتوجه إلى وجهتي لهذا اليوم، يوماً كامل سيذهب هدراً، و ماذا عن الطعام و الشراب و المبيت، هل أي من هذا متوافراً لي هنا، كل هذا خطر على بالي آن ذاك الوقت، حتى أيقظتني تلك اليد مرة أخرى، تربت على كتفي لتحصل على إنتباهي، فألتفت فإذا ملامحها تبدوا أكثر قرابة و حنية، كأن ما حدث لي للتو قد قربنا من بعضنا البعض، و جعل منا ليس مجرد غرباء و حسب، فهي الشاهد الوحيد لرؤيتي أتعثر في ركضي، و نواحي على رحيل القطار عني، فإذا بها تأمرني بإتباعها رافضة إخباري إلى أين تريد أن تأخذني، و كنت لأرفض هذا الطلب لو لا حس الفضول الذي كانت كل حركة تقوم بها هي تأججه و تحداه، فأخذت حقيبتي التي تركتها في مكان مخبئ بالقرب من المحطة و أتبعتها، تمشي أمامي متقدمة بخطوتين، تتقافز في مشيتها، و

تلقي نظرات خاطفة تجاهي كل حين، كأنها تتفقد حالي و إن كنت لا زلت أتبعها، سألتها عن أسمها، فلم تجيب، سألتها عن عمرها، فقالت تسعة عشر عاماً، مضينا في مشينا هذا لمدة خمسين دقيقة، حتى تراءى لنا مبنى صغير الحجم، أعلمتني بكونه المطعم الوحيد المتواجد في هذه القرية، و حتى هذا كان أكثر من كافي ليتسع للزوار اليوميين، أكلنا فيه، و تحدثنا، أو قل تحدثت أنا عن نفسي، بينما هي علقت على ما كنت أقوله بدون أن تضيف على الموضوع أية معلومة عن نفسها، إنتهى بنا الحال بقضاء عدة ساعات على الطاولة الوحيدة التي يحتويها المطعم، حتى أفلت الشمس و لم يبقى سوى شعاعها الازوردي مطلاً علينا من الأفق، سألتها أين سأبيت الليلة، أجابت في منزلها، فأخذتني هناك و عرفتني على والديها، عجوزان لطيفان و مرحابان، الإبتسامة لا تغيب عن ثغريهما، أخلا لي غرفة الجلوس لأنام فيها، حاولت أن أغط في النوم، و لم أستطع، فكنت أتقلب و أتدرج على الأرضية الخشبية الصلدة، حتى سمعت صوتها يهمس من بعيد، تسألني إن كان قد غط لي جفن، فأجبتها بالنفي، و أخبرتني هي بالمثل، فدعتني للخروج معها للتنزه تحت ستار الليل، فتسللنا من المنزل، و رحبت بنا صفيحة السماء السوداء المرصعة بالنجوم، و دغدغ أبداننا الهواء العليل و البارد، و أخذنا نمشي بهدوء و تروي، فأخذت تخبرني عن نفسها، و صارحتني بخواطرها، فكانت تلك ليلة لا تنسى بالنسبة لي، فإن لم يغط لي جفن من قبل، فبالتأكيد لن يغط الآن، لكن الواقع خالف ذلك، و غططت في النوم عندما رجعنا للمنزل، في الواقع غططت في النوم حتى وقت متأخر، و لم أستيقظ إلا من صوت والديها العجوزان، يسألاني إن لم يحل وقت قدوم القطار بعد، ففزعت من نومي، و تعجلت في خروجي للتأكد من إني لن أتخلف عن القطار مرة أخرى من فرط النوم، فررت رأسي في كل الإتجاهات، منتظراً رؤيتها عند ناظري، لكنها لم تكن في أي مكان، سألت والديها، قالا بإنها خرجت منذ الصباح، و إنه يجب علي أن لا أحاتي، فهما سيخبراها بأي شيئ قد أريد أن أوصله إليها، و إنه ما يجب علي فعله الآن هو المضي بسرعة و

حالاً و إلا هرب عني القطار مجدداً، فأحترت في ما أريد أن تكون عليه رسالتي إليها، أأصارحها بهذه الطريقة، بكل تأكيد لا!، فإن كان هنالك شيئاً واحداً قد تذكرته من حكم و مواعظ والدتي في تلك اللحظة ألا و هو إن مثل هذه الأمور يجب أن تقال وجهاً لوجه، فأكتفيت بإخبارهما بأن يقولا لها بإني متشكرٍ على كل ما قامت به من أجلي و على إعتناءها بغريباً مثلي لم يكن من واجبها أن تُعنى به، و أخذت أركض راجعاً إلى المحطة، و إذا بها مجرد خمس دقائق مضت و ها هو القطار قد حل في المحطة، و كنت آخر من صعد على متنه، لكوني لم أفقد أملي بأن تظهر أمامي، حتى أطلق القطار صافرته معلناً وجوب ركوب المسافرين قبل أن يغلق بابه، فإضطررت آسفاً للركوب، و بدأ القطار بالمسير، في تصاعد و تسارع، نظرت من النافذة فإذا في البعيد عند الأفق، و من مكان مخبئ لا يجذب الأنظار، ها هي تلوح بيدها، من بعيد حيث الأصوات لا تسمع، و النظرات لا ترى، و الدموع لا تحس، لوحت لها، مودعاً غير عالماً في إنها ستكون المرة الأخيرة التي سأراها فيها، فقد رجعت بعد بضعة أشهر لأراها، بعد إن ضمنت إحدى الوظائف في مدينة غير التي كنت متوجهاً إليها، فإذا وجها والديها ممتعضان عند سؤالي عنها، لقد توفيت، هذا كل ما قالاه، لا أعلم ما حدث أو ما جرى من مسببات، فلا أحد يعلم ما حدث، فكل ما في الأمر هو أنها توفيت و حسب ».

تنهد أندريه خاتماً حكايته، و علامات الحزن يشوبها ملامح الندم على روايته لهذه القصة بالتحديد، فالجو قد تعكر، و دموع روتفا قد سالت تجففها بمنديل رقيق، و إبتسامة مقهورة قد طمغت تكاسيرها على وجهيهما الإثنين، كأنهما يرفضان الإنجراف تحت سيل الحزن و الكآبة، ألقى أندريه بعض تعابير الأسف تجاه روتفا، و هي تنفض رأسها مبدية عدم ممانعتها لذرف بعض الدموع، و عم الهدوء بضع لحظات، حتى نطق أندريه.

« أتعلمين؟، لقد مضى على زواجي من زوجتي الحالية ثمانية و ثلاثون عاماً، مليئة بالذكريات الحافلة، منها المفرح، و منها المحزن، و الغلبة للأولى حتماً، و صدقيني عندما أقول بإني أحبها و أعشقها حتى الموت، لكن . . . ، في بعض الأحيان عندما أجوب في ذكرياتي، و تأخذني رجلاي بعيداً إلى هناك، تجاه الأراشيف العتيقة، أتصفح هذه الذكريات، و أتمنى بكل نجواي أن أنساها، لكونه من غير العادل لزوجتي أن تأخذ هذه الذكريات أي حيز متاح أستطيع وضع ذكرياتنا نحن الأثنين بدلاً عنها، لكن جزء مني يرفض التخلي عنها، عن تلك الذكريات التي تشكلت في يوماً واحد فقط!، تخيلي، ثمانية و ثلاثون عاماً مقابل يومٍ واحد!، يا للمفارقة، و يا لغرابة عقولنا نحن البشر ».

« نعم، نعم، أنت محق تماماً، لكن يا لها من قصة مؤثرة، فدموعي لا ترغب في النضوب، و إسمح لي بكلمة في هذا الموضوع، و سامحني مسبقاً إن تكون هذه الكلمة مهينة أو مسيئة بحقك أو بحق زوجتك، لكن، لكن مرورك بتلك التجربة هو أمراً جميل، و كونك تذكره حتى بعد كل هذه السنوات لهو دليل على ندرته و عدم سناح فرصة تكراره، و عن نفسي، لا أظن إني كنت لأرغب بالتخلص من تلك الذكريات لو كنت في مكانك».

« من السهل عليك قول هذا الكلام، كونك لست الشخص الذي يحمل ثقل هذه الذكريات و يرزح تحت ضغوطها، فذكرى بهذا العمق لا تكتفي بحيزها في مخيلة الشخص فقط، بل هي تتفرع و تتشعب في كل ما تحتها و فوقها و حواليها، كجذور الشجر، تَتغذى و تُسقى من رحيق الأحداث، و تَسقي و تُغذي بدورها كل ما ينتج من توابع ذلك، و هذا أمر لا يستهان به، فحبذا يا رجل لو تنسى ما حدث لك منذ أربعون سنةً مضت ».

تفاجأ كُلاً من أندريه و روتفا من هذا الكلام الصادر من رومان، الذي يبدوا بإنه قد أستفاق من خموده، و قرر المشاركة في هذا الحوار ليغير مجراه، فحدج كُلاً من أندريه و روتفا بعضهما البعض و كأن كُلاً منهما في ترقباً للآخر بأن يجيب على تلك الكلمات التي نطقها رومان.

(الفصل الثاني)

علت ضجة حراك الناس و إنسحابهم من المقاعد ملئ ردهات العربات، عندما توقف القطار عند إحدى المحطات، و أخذ بعض الركاب بالنزول حيث كانت هذه وجهتهم، و أخذ آخرون بالصعود على متن القطار ليحلون مكان المغادرين، و كل هذه لم تكن إلا عملية نمطية لم نتطلب سوى بضع دقائق وجيزة حتى أكمل القطار مسيره، و أخذ الركاب يشرعون بأحاديثهم المتداخلة، فها هي سيدةٌ ما تبدوا في أواسط عمرها تأشر و تعبر بكل ما تستطيع ذراعيها الإمتداد إليه في خضم إنغماسها في الحديث مع سيدةٌ أخرى، و ها هم ثلة من الفتيان واطئين عتبة المراهقة قد شغلوا مقاعد متقابلة يتحادثون بأصوات خافتة و سرية تنشزها ضحكات عابرة تصدر من إحداهم في كل حين و آخر، و هناك أندريه الذي أستند بكل أريحية على مقعده قد بدأ في التحدث بدوره هو الآخر.

« لقد قلت بإن إسمك هو رومان، أليس كذلك؟، تبدوا لي كشاب محنك قد أختزن خبرات كثيرة من تجارب عديدة، و أستطيع أن أخرص بأنك بمثل عمري في القصة التي قد رويتها منذ بضع ساعات مع إنطلاق القطار من المحطة، لكن أنظر إلى الفرق الشاسع بينك و بيني عندما كنت بمثل عمرك، و في الحقيقة لدي إبن بمثل عمريكما أنتما الأثنان، كوستانتين هو إسمه، تيمناً بالإمبراطور الروماني القديس كوستانتين، لكن هو أيضاً الآخر عندما أنظر إليه أتعجب من الفرق الشاسع بينه و بين من تيمن بإسمه و أقترن به، فتستطيع أن تقول بأنني لم أوفق في إختيار الإسم المناسب له، فتى مشاكس و شيطان، أكاد أظن أحياناً بإنه لا يقوم بكل تلك المشاكسات الدائمة و لا يتسبب بكل تلك المصائب المغمة إلا لإغاضتي أنا و والدته، فهو بمثل هذا العمر يجب أن يكون قد تخطى عادات سن المراهقة و ترك عبث الطفولة خلفه و البدء بتكوين نفسه كرجلٍ يُعتد به، و الحوز على إعتبار في أواسط المجتمع، لكنه لا يقوم إلا

بالتسكع مع رفقاءه السذج و الحمقى، و أعلم إنا نحن الأباء عادةً ما نلوم الأصدقاء على تضييع مستقبل أبناءنا و حرفهم عن المسار المستقيم، لكن في حالة إبني فالعكس هو الصحيح، و أقول هذا فقط لأبين لكم مقدار تغلغل شيطانيته في شخصيته!، لحبذا لو إن شباناً من أمثالكم في اللطافة و الذكاء لو كانوا أصداقاً لإبني لأختلف حاله بكل تأكيد، و أقنعوه بحماقة أفعاله، و لكي أخبركم الحقيقة فإن صبري قد بدأ ينفذ معه و من تعهداته لي بتقويم حاله، فهذه العهود لا تجلب أية نتيجة و لا طائل منها بتاتاً سوى في تخييب أملي، و هو لا يستطيع الإلتزام بها أبداً ».

أبتسمت روتفا مدركة بإنه مهما قال أندريه من كلام معيب و متخاذل عن إبنه، فهي لا تزال تستطيع أن تحس بالحب و الحنية ملازمان لكل هذه الكلمات، و في كل كلمة منها مهما كان ظاهرها خادعاً.

« لا أعلم طبيعة إبنك و لا كنهه، لكن الرفقاء حتماً يُأثرون على بعضهم البعض، و خذني على سبيل المثال، ففقط منذ حوالي سنة قد خلت كانت لي صاحبة في المدرسة الثانوية، قد عددتها من أعز صديقاتي و أقربهن إلي، لا نفارق بعضنا البعض ما دمنا في ساحة المدرسة و متواجدات بين حيطانها، فمن إلقاء تحية الصباح حتى تلويحة الوداع، كنا متلاصقات كالتوأمات، فتاة طيبة و متعاطفة مع الكل، سواء أكانوا يبادلونها بالمثل أم بالعكس، فهي لا تطلب شيئاً في مقابل ما تقوم به سوى سعادة الجميع، و في إحدى الأيام قامت صاحبتي هذه بعمل صنيع لإحدى الفتيات المعروفات بالتسبب في المشاكل التي لا تنقضي، فتاة مشاكسة كمثل إبنك، تتحرش بأي شخص يمر أمامها، و تتنمر عليهم سواء أكان ذلك بسبب أو بدون سبب، حتى قامت صاحبتي بعمل ذلك الصنيع كما قلت، فبدأت تلك الفتاة المشاكسة بالتقرب من صاحبتي، و أخذت تعاملها بلطف و بإنصاف، و لكن لكوني صديقتها المقربة فكان هذا

أمراً سلبياً بالنسبة إلى تلك الفتاة، حيث أرادت هي إحتكار تلك المكانة كلها لنفسها، فعلى الرغم من إنها قد تخلت عن أسلوب تعاملها الجاحد مع الكل، إلا إنها قامت بتركيز كل تلك الطاقة تجاهي، في محاولة منها لإقصائي من دائرة أصدقاء صاحبتي التي بدأت بالتوسع تحت تأثيرها هي، و كانت تلك المحاولات واضحة جداً حتى إن هذا التنمر لم يعد سراً لا يمكنه أن يصل نطاق مسامع صاحبتي، و مضت بضعة أشهر مليئة بالضغوط و بالحدية حتى حدث التعارك اللفظي أخيراً في ما بيننا نحن الثلاث في إحدى الأيام، فأخذت صاحبتي تقول كلامٍ ما، و تلك الفتاة توجه و تدفع بكل التهم نحوي، و أنا على الطرف الآخر أقوم بالدفاع عن نفسي، ليعود الدور مرة أخرى لصاحبتي، ليتضح إنها تدريجياً و في تلك الشهور التي قضتها مع تلك الفتاة قد تحولت من كونها الفتاة التي عرفتها بالطيبة و التعاطف، إلى وحشاً صغير في طريقه إلى النمو الطاغي و الكاسر، و الأمر غدا واضحاً لنا نحن الثلاث إبان غوصنا في غمار تلك المحاورة، و إنتهاؤها بإستلام صاحبتي مقود المحادثة لتصدر الكلمات الأخيرة و القاضية، حيث تفاجأت هي نفسها بالكلام الذي كان يخرج من ثغرها، فكانت تلك صداقة قد إنقضت و أنتهت، نخسرت تلك الصديقة، و أتضح لي حجم تلك الخسارة عندما مرت الأيام و أدركت بإني قد أشتقت إليها كثيراً ».

أسترخت روتفا على مقعدها، و كاتفت ذراعيها كأنها تواسي حالها و تمنع نفسها من الإنجراف إلى ذرف الدموع مجدداً.

« لا أعلم ما الذي تظنين بإنك قد فقدتيه من علاقة مثل هذه؟، فإن كانت صاحبتك قد تغيرت تحت تأثير تلك الفتاة المشاكسة كما تقولين، فما الذي كان يمنعك من إستردادها إلى جانبك بالتأثير عليها مجدداً بصورة إيجابية؟ ».

ألقى رومان هذه الأسئلة و هو ينظر أمامه و كأنه يطلق هذه الكلمات بشكل عام للفضاء، و متيحاً لأي شخص تصله ترddاتها بأن يجيب عنها، معفياً نفسه الحرج في حال عدم تلقيه الإجابة من روتفا إن لم ترد خوض غمار هذه المحادثة، لكن روتفا ليس فقط إنها لم تمانع الإجابة، بل هي أدارت وجهها مخاطبةً رومان وجهاً لوجه، أو قل وجهاً لصدغ في هذه الحالة.

« لقد حاولت طوال الفترة التي كنا نتصارع أنا و تلك الفتاة فيها على صداقة صاحبتي أن أُأَثر عليها بشكل جيد و إيجابي، و بذلت كل ما بإستطاعتي بأن أردعها عن ذلك التحول الغير محبب، لكن لسبباً ما لم أستطع ذلك، و هذا هو الجزء الأساسي الذي يجعلني أشعر بالألم و الحسرة على فقدان تلك الصداقة ».

تنهد رومان معبراً عن عدم إقتناعه بكلام روتفا و تبريرها هذا، و بعينين ما زالتا موجهتان للأمام، قال بصوت حاسم و نهائي لا يقبل المراجعة و المناظرة.

« إن كان الأمر كذلك، فهي إذاً لم تكن فتاة طيبة من الأساس، و صداقتها بتلك الفتاة المشاكسة لم تكن سوى عذراً أستندت عليه لتعطي شخصيتها الحقيقة الحرية للإنطلاق و العبث بما تريد و كما تريد، فلا أرى هنا خسارة لتفقد ».

أرجعت روتفا رأسها إلى الأمام، مواجهة أندريه الذي أرتسمت إبتسامة متعاطفة على شفتيه يواسيها بها، فأرجعت مثل الإبتسامة، و أدار كُلاً منهم رأسه إلى جهةٍ ما، فها هو رومان يحدق إلى الخارج من خلال النافذة، و لأندريه السقف بدا مثيراً للإهتمام، فأخذ يحدق فيه و كأنه سماء ملبدة بالغيوم و ها هو يترقب هطول المطر منها، و روتفا هي الأخرى أخذت تحدق في الناس و تجيل نظرها من جماعة إلى أخرى تستمع لأحاديثهم و تتسلى بها، و

رجع جرف الكلمات من حواليهم في غمر آذانهم في ظل هذا الصموت الذي طغى على الثلاثة، فمرت الساعات و أظلمت السماء، و بدت وجوه الناس كالأشباح تحت إشعاع الضوء الواهن الصادر من مصابيح القطار الكهربائية، كان بدن أندريه يتمايل مع حركة القطار، وبجفنين مغلقين يغط في نومٍ عميق، رأسه مصطلب يرفض الإنحناء من كثرة تراكم الشحوم على رقبته، و كان رومان هو الآخر مسنداً رأسه على زجاج النافذة و مغمضاً عينيه حاله كحال الجميع، ما عدا روتفا، التي أخرجت مدونة صغيرة من الجيب الداخلي لسترتها، و أخذت تكتب في صفحاتها، بالكاد ترى ما كانت تكتب من شدة الظلام، فأخذت تهسهس بصوت خافت و كأنها تملئ ما كانت تكتبه في طيات ذهنها بدلاً عن صفحات مدونتها، و كانت بين كل حين و آخر تتوقف عن الكتابة و تشرع بالنقر بالقلم على ذقنها في تفكر و حسبان لترتيب الكلمات و الجمل التي كانت تبتدعها.

« يبدوا إنك حقاً منغمسة في ما تفعلين ».

شهقت روتفا من هذا الصوت الذي لم تتوقع أن تسمعه في هذا الهدوء المخيم، و وضعت راحة يدها على صدرها لتهدئ وجفات قلبها المتزايدة، و أسقطت القلم من يدها في فعلها لذلك، و ألقت نظرة إلى مصدر الصوت من على يمينها، فإذا بها فتاة صغيرة واقفة في الممر المسبل في ما بين المقاعد، فتاة قصيرة الطول، عيناها تقعان على مستوى عيني روتفا الجالسة، تستطيع أن تخمن بإنها لا تجاوز السابعة أو الثامنة من العمر، بشرتها بيضاء شاحبة، و شعرها كستنائي باهت اللون.

« لقد أخفتيني، أكاد أحس بقلبي يحاول القفز خارج عظام قفصي الصدري، يا لك من فتاة مشاكسة، لماذا لم تتنحنحي أولاً لتعلميني عن تواجدك؟ ».

أمالت الفتاة رأسها في حيرة، و أماطت شفتيها قبل أن تجيب.

« لكن النحنحة نفسها ستأدي بنفس النتيجة، و كيف كان يجب علي أن أعلم أنك سترتعبين بهذه الشدة فقط من طرحي لملاحظة بسيطة؟ ».

ألتقطت روتفا قلمها من على الأرضية بعد أن خبطت أصابعها و مسحت بِنانها في كل الإتجاهات لتتلمس مكانه، و نظرت إلى الفتاة بنظرات معاتبة، بعد أن لملمت شتات نفسها التي تبعثرت منذ قليل.

« إذاً ما تحاولين أن تقوليه هو إن المشكلة مني، أليس كذلك؟، يا للجرأة، أتظنين نفسك أكثر شجاعة مني؟، لا أعتقد ذلك يا صغيرة، فلو كُنتِ مكاني و أنا مكانك لصرختي ملئ رئتيك و أغشي عليك على الفور ».

أبتسمت الفتاة بخبث مماثلة بذلك تعابير روتفا.

« أحقاً كذلك؟، أما عني فلا أظن إنك تملكين الشجاعة الكافية حتى للقيام من على مقعدك في هذا الظلام الدامس، و الجوبان في هذه الممرات الميتة، حيث الجميع نائم، و غير موتعي لنجدتك ».

أطلقت الفتاة ضحكة قصيرة الأمد من خلف فمها المطبق، تتحدى روتفا أن تجاريها في هذا المشاكسة الممازحة، فضحكت روتفا بالمثل، حيث إنها قد أنبهرت بكلام هذه الفتاة الصغيرة، و أعجبت بشخصيتها المنفتحة.

« ما إسمك يا صغيرة؟ ».

تمايلت الفتاة في دلع، و كأنها تكره أن تخضع لروتفا بهذه السهولة، و تفضل أن تستمر في مشاكستها، لكنها أدركت رغم سنها الصغير بإن اللعبة قد أنتهت.

« إسمي ناتاشا، و أنا لست بصغيرة، فعمري تسع سنوات و ثلاثة أرباع، و سأدخل العاشرة بعد ثلاثة أشهر فقط ».

أبتعدت روتفا عن ذكر هيئتها الضئيلة التي تجعل منها تبدوا في السابعة من العمر، فمثل هذه المواضيع هي مواضيع حساسة للأطفال اللذين في مثل هذه الأعمار، و خصوصاً اللذين يختلفون عن البقية من أترابهم في ناحية ما.

« أنا روتفا، سعدت بلقاءك، لكن لماذا أنت مستيقظة بينما الجميع يغط في النوم، . . . هه، أعتقد بإن هذا الكلام هو نفاقٌ مني كوني أنا الأخرى مستيقظة، . . . أتعلمين؟، لما لا نجلس نحن الإثنتين و نتسامر و نتحادث مع بعضنا البعض، ربما سنتعب من جراء ذلك و يغلبنا النعاس، ماذا تقولين؟، أليست هذه فِكرةٌ جيدة؟ ».

أفسحت روتفا حيزاً من مقعدها و أتاحت المجال لناتاشا للجلوس معها، و لم تمانع هي الأخرى القيام بذلك، حيث إنها رأت حقاً بإن الجلوس هنا و التحاور مع هذه الآنسة الشابة سيجلي من الوقت الطويل الجَرِد ألا و هو الليل الصامت و الخاوي.

فجلستا تتحاوران بهدوء، و تضحكان بقهقهاتٍ مكتومة، حتى غط جفني ناتاشا بإطباق في نومٍ هادئ، و روتفا كالجبل الصامد لم تخضع لتأثيرٍ التسامر المُخدر، و قامت من على مقعدها متجهة لآخر العربة حيث كانت دورة المياة، التي لم تكن لتذهب إليها في خضم هذا الظلام الدامس لو لا حاجتها الماسة إليها، فتسللت على أطراف أصابعها بإسراع في ما بين المقاعد التي لا تترك إلا مجالٍ ضيق للعبور، و ظلت ناتاشا مكانها، تمايل كمثل الجميع من حركة القطار، و

لصغر حجمها مالت بشدة ليسارها لتسقط رأسها على كتف رومان، الذي أستيقظ إزاء ذلك الإرتطام الذي شعر به و أفاقه، و كانت دهشته و حيرته أكبر من أن يسمح بها الواقع، حيث ظن بإنه لا يزال يسرح في أظغاث أحلامه، فها هي طفلةٍ صغيرة قد حلت مكان روتفا، و تحت هذا الضوء الواهن و الضئيل الذي لا يسمح للرؤية الجيدة، أقتنع رومان تحت تأثير هذا المناخ الذي يسمح للإلتباسات بأن تأخذ حيزها في المخيلة بإن هذه الفتاة الصغيرة هي حقاً روتفا، و لسبب ما رجع الزمن بها إلى هذه السن، و وُضِعت هنا بجانبه.

أزاح رومان الفتاة الصغيرة من على كتفه و أعاد قوامة قعودها، في محاولةٍ لتفحص ملامح وجهها ليتأكد من إن كانت حقاً هي روتفا نفسها، و لم يدرك رومان للحقيقة التي تقتضي بإن أية فتاةٍ تملك شعر بهذه الصبغة الكستنائية، و بشرة بهذا الشحوب ستبدوا له كأنها روتفا، كونه لا يعرف ملامح روتفا من الأساس!، فهو لم يجلس بجانبها إلا لأقل من يوم واحد فقط، و خلال تلك الساعات القصيرة لم يلتفت تجاهها إلا لثواني معدودة لا تتيح لأن تنطبع ملامح وجهها في ذاكرته، فملامح وجه أندريه هي أبين و أوضح لرومان في مخيلته من ملامح روتفا، فكانت تلك الحقيقة التي غفلها رومان هي ما ألبس في مخه و جعلته يصدق المستحيل، فأخذ يهذرم لحاله و يطرح كل التساؤلات.

« أهذه حقاً تلك الفتاة روتفا؟، لكن ماذا حدث لها، ما الذي قد يجعل فتاةٍ شابة كانت جالسة لبضع ساعاتٍ قليلة على متن قطار في التحول جسدياً إلى نسختها الطفولية؟ ».

أخذ رومان يجيل بنظره على أرجاء القطار، كأنه يتفحص إن كان السبب يكمن في ثناياته، و إن كان القطار هو نفسه ذو طابعٍ سحري، و أخذ يتلمس بأصابعه ما تستطيعا ذراعيه

بأن نتطاولاه، و كأنه ينتظر إن يقع هو الأخر تحت تأثير هذا السحر، و يرجع هو الآخر لعمر طفولته.

« هه، يا لك من مغفل، أتظن حقاً بإني قد رجعت إلى الماضي؟ ».

أدار رومان رأسه متفاجئاً تجاه روتفا التي كانت تمشي متجهة نحو المقعد، حتى وصلت إليه و جلست بجانب ناتاشا التي توسطت بينهما، تمالك رومان نفسه مخرصاً في لحظات ما قد حدث أثناء قيلولته، و مدركاً ما الذي قد جلب هذه الفتاة الصغيرة هنا، فأطلق نفساً عميقاً من فَمِه، مديراً رأسه إلى أي مكان إلا تجاه روتفا من حرج الموقف، و ضحكات روتفا التي حاولت إمساكها تخرج منها مغصوبةً، فكانت تلك هي خاتمة الأمسية، حيث ظل كُلاً منهما مطبقاً فمه، تحت هدير أصوات عجلات القطار تتحرك بزخم لا يتغير، و كأنها هدهدات أماً حانية تمايل بصغيرها بين أحضانها دافعةً إياه نحو النوم، و أنفاسها العبقة تخرج من أنفها لتضرب وجهه كنسمات ريح الصيف الهادئة، فغط كُلاً من رومان و روتفا في سباتٍ عميق.

أستيقظ الجميع على صوت صافرة القطار معلناً توقفه، ففتح الناس أعينهم على صفيحة السماء و هي تزدان نوراً عند غبشات الفجر، نادى شخصٌ من آخر العربة « لقد وصلنا »، فمدد الناس مفاصل عظامهم مطرقعينها بعد خمود ليلٍ طويل، و أخذ هذا يفرك عينيه من النوم، و ذاك يتثائب تعباً من عدم أريحية النوم على هذه المقاعد الضيقة و الصغيرة.

قام أندريه من على مقعده بعفوية، دون إن يدرك محيطه أولاً، فهو قد سافر على متن القطارات مئات المرات من قبل، وليست هذه إلا رحلةً أخرى يضيفها إلى لائحته، سُمع من الخلف صوت إمرأةً تنادي « ناتاشا!، أين أنتِ يا ناتاشا؟، يا إلهي، شخصاً ما قد خطفها! »، و هي تمر من بين المقاعد تدفع الناس جانباً غير مهتمة لما قد يقولون عنها و من إن كانوا

سيشرعون في التذمر تجاه تصرفها الشين هذا، حتى حطتا عيناها على ناتاشا التي كانت تفرك النوم من عينيها جالسة ما بين روتفا و رومان، اللذان بدوا و كأنهما تمثالين من عدم وعيهما هما الآخران لما حولهما من خدرة نومهما المتأخر، جرجرت المرأة ناتاشا من ذراعها و أخذت تُأنِبها و هي تسحبها معها من حيث أتت من مؤخرة العربة غير تاركة المجال لأي شرحٍ أو تفسير من أي طرف، سواء أكان ذلك من روتفا أو من ناتاشا، و فُتِحت أبواب القطار عند هذه اللحظة ليتدافع الناس في الخروج، و من ضمنهم أندريه حاملاً حقائبه الكثيرة واحدةً فوق رأسه و أُخرً تحت إبطيه، و طبعاً هذا ليس قبل أن يلقي بعض كلمات الوداع تجاه رفيقي رحلته القصيرة هذه، و متمنياً بأن تقوم الصدفة بدورها بلم شملهم في إحدى الأوقات، صاح صوت عامل العربات « لقد وصلنا إلى مدينة كوتلنسكي، هذه هي المحطة الأخيرة، يجب على الجميع الترجل في غضون عشر دقائق، فستقفل الأبواب للصيانة »، لم يبقى في القطار سوى ثُلةً من الناس اللذين فضلوا إماطة ترجلهم من عربة القطار، لعدم إستحبابهم خوض غمار معركة أسبقية النزول من القطار، و كان من ضمنهم روتفا و رومان اللذان جلسا مكانهما دون حراك، حتى قل عدد الناس، و عندها قامت روتفا من على مقعدها متأهبة للمضي قدماً، و بدا رومان متأهباً للنزول أيضاً في مثل هذه اللحظة، لكن روتفا توقفت مكانها و أستدارت مقابلة رومان، و حدجته بنظرةٍ ملغزة قبل أن تقول.

« أعتقد بإن هذه هي المرة الأخيرة التي سأراك فيها، لذا دعني أنفس بخاطري بما أردت قوله لك منذ أمس، ألا و هي طريقة محادثتك المجافية هذه لي، فكل ما تمنيته أنا أن يحدث أثناء هذه الرحلة الطويلة هو أن تنقضي بشكلٍ لطيف و طيب، و لحُسن حظي إني عند دخولي عربة القطار قد لحظتُ أندريه من بعيد و هو يحادثك بكل إنفتاح و إنشراح، فعلمت مباشرة بإنه الشخص المناسب لتمضية وقت الرحلة معه، و لذلك قررت الجلوس هنا مُنتهيةً عن أي

مقعد آخر، لكنك لم تنوء عن وضع العقبات أمام محادثاتنا أنا و أندريه، فكل مرة بدت فيها المحادثة بإنها ستتجه إلى موضعٍ يسمح بفيضٍ من الكلمات السلسة قمت أنت بتفكيك كل كلمة قد نطقت أنا بها، لذا أريد أن أقول لك و أعلم بإن هذا كلاماً صادراً غصباً عني، بإني أتمنى أن لا نلتقي مرةً أخرى، و إن حدث إن ألتقينا مُصادفةً بإن نتظاهر بإن كُلاً منا لا يرى الآخر، و أقول غصباً عني لكون هذا الطلب يُفند أمنية أندريه و يجعلها مستحيلة الوقوع، لذا سأقول الآن وداعاً، و ليمضي كُلاً منا في حال سبيله ».

أستدارت روتفا و خطت خطواتٍ واسعة و كأنها بذلك تريد أن تعجل من خروجها و توسع من المسافة بينها و بين رومان الذي هو بدوره قام بالتباطئ في خروجه، فأنطلقت روتفا في جهة، و أتجه رومان في جهةً معاكسة.

(الفصل الثالث)

قرفص رومان الورقة التي كانت بين يديه بعد أن تأكد من أنه قد وصل إلى العنوان المراد، و رفع قبضة يده طارقاً خشبة الباب الصلد، و أستدار رومان إلى وراءه ينظر إلى الحي الذي هو فيه أثناء إنتظاره لقدوم أحداً ما لفتح الباب، فرفع يده ليظلل عينيه من وهج الشمس التي أرتفعت أذرعاً معدودة في السماء، و رأى أطفالاً يركضون و يلعبون على أطراف الشارع الخاوي، و نساءاً يتحاورن عند عتبات بيوتهن غير مهتمات لما يجري حولهن، يقهقهن و يضحكن بكل أريحية و عدم مبالاة و كأن كل أشغالهن قد قضيت، و على بعد بيتين من على يساره كان هنالك عجوزاً ضئيل البنية قد وقف عند سياج الفناء ينظر و يحدق تجاه رومان بعينان غائصتان في محجريهما بطريقةٍ تثير القشعريرة و الإشمئزاز، سمع رومان صوت فتح الباب من خلفه، فأستدار ليواجه من قد قدم ليستقبله، فإذا بها عاملة المنزل تنظر إليه بتساؤلٍ عن ما يريد.

« أنا رومان غيرسكفيسكي، لا بد و إنك قد أعلمت بقدومي، فهلا تفضلت بإخبار السيد إيفان غيرسكفيسكي أي عمي بإنني قد وصلت ».

تغيرت تعابير العاملة في إدراك لمن يكون هذا الذي قد وقف أمامها، و أخبرته بإشارة من إصبعها بإن ينتظرها هنا للحظة حتى تُعْلِم عمه بقدومه، و قامت بإغلاق الباب خلفها غير متيحة الفرصة لرومان بإن يختلس أية نظرة إلى داخل المنزل، فقام رومان بالإستدارة للوراء مجدداً بدل مواجهة خشبة الباب الموصد في وجهه، و تفاجئ بالعجوز يقف أمامه مباشرة يحدجه بمثل النظرات التي ألقاها عليه منذ لحظات من بعيد من حيث كان واقفاً، و يديه خلف ظهره، و بدا قصير القامة حتى بالنسبة لعجوز في مثل هذا العمر الذي يجعل من عظامهم

تتقرفص على بعضها البعض، تراجع رومان للوراء خطوةً واحدة في ردة فعل عفوية، و أخذ يميل رأسه جانباً و إلى الوراء و كأنه يتقي لدغة أفعى متأججة، حتى كلَّ من صمت العجوز و بادره ُ السؤال.

« ماذا تريد مني ياعجوز؟، هل أبدوا لك كشخصٍ هين تستطيع ترهيبهُ بنظراتكَ الصامتة هذه؟، قل ما تريد أو أغرب عن وجهي، هل تسمعني؟ »

فتح العجوز فمه ضاحكاً و كاشفاً عن ثغرٍ أدرد، و أخذ يقهقه بصوتٍ باح، فأزداد حنق رومان جراء ذلك، و أوشك أن يعيد تكرار تهديداتهُ على مسامع العجوز لكن الباب خلفه كان قد فُتح مجدداً، و أطلت العاملة من خلف خشبة الباب داعية رومان للدخول، فألتقط رومان حقيبته التي كان قد وضعها جانباً على الأرضية و هم داخلاً المنزل و هو يتلفت خلفه ليرى العجوز الضاحك يُحْجب خلف الباب الذي أغلقته العاملة خلفه حال دخوله، أجال رومان عينيه في أرجاء المنزل، فلاحظ كيف إن ممر المدخل ضيق و مظلم أكثر مما توقع أن يكون عليه فقط تخريصاً من رؤيته لهيئة المنزل من الخارج، أشارت العاملة لرومان بأن يتبعها إلى أعلى السلالم لتدله الطريق إلى عمه الذي طلب منها إحضاره إليه، فتبعها متسلقاً الدرجات و هو لا يزال يتلفت برأسه للخلف كل حين أزاء كل شيئ يراه في المنزل من ما يلفت إنتباهه، فتحت العاملة باب أول غرفة قد لاقوها بعد أن صعدوا إلى الدور الثاني، فظهر أمامه شخص عريض المنكبين، متأنق ببدلة داكنة، و مدلي على شفته السفلى غليون ينفث منه الدخان بكثافة، وضع رومان حقيبته أرضاً، و توجه تجاه الرجل ماداً يده ليصافحه، فأنبهر من قبضته القوية التي ذكرته بيد أبيه، و كان ذلك تأكيداً له لصلته مع والده.

« رومان، أليس كذلك؟، أهلاً بك في منزلي المتواضع، و في الحقيقة لم أتوقع أن تصل إلينا بهذه السرعة، فلذلك غرفتك ليست جاهزة بالكامل بعد، فأعذرني إن رأيت بأنها لا تزال تحتوي على بعض المخزونات التي لم يسعف الوقت لإخراجها من الغرفة ».

نفض رومان رأسه معلماً عمه بإنه لا يمانع أن تحيط به قليلاً من الفوضى.

« ذلك أفضل، فقليل من الفوضى يجعلك تقدر أبعاد حيز المكان، كمثل القنينة التي تملئها بالماء لتعرف كم تستطيع أن تحوي في أرجاءها، لكن يجب أن أخبرك عن دهشتي برؤيتك، فأنت لا تشبه والدي أبداً، و لو لا قبضة يدك القوية هذه لما صدقت بإننا أقرباء إلا لو أطْلعتني على دليل رسمي ».

أخذ إيفان نفساً من الغليون قبل أن ينفخه بقوة إلى الأعلى، و هو يطأطئ رأسه على مهل، و كأن لكلمات رومان مفعول مؤثر يتلاعب بدماغه كمثل هذا النيكوتين الذي يملئ رئتيه به، أستدار إيفان تجاه مكتبه و أخذ يبحث من بين الأوراق و الملفات الملقية على سطحه، ليلتقط أخيراً ضالته من بين إحدى الورقات، و قدمها لرومان دون أن يضيف أية كلمة أخرى ليشرح بها ما يريده أن يفهمه من إعطاءه لهذه الورقة، مقتنعاً بأن الورقة نفسها ستفسر حالها و تبينه، أستلم رومان الورقة و أخذ يتفحصها و يقرأ محتواها، فأنقضت دقيقة كاملة حتى أنتهى من القراءة، و هو يطأطئ رأسه بإمتعاض و نفور، حتى أزاح عينيه من على الورقة.

« لا أعلم ماذا أقول، . . . ، في الحقيقة أنا أعلم ماذا أريد أن أقول، لكني لست في الوضع المناسب لأصرح بما يجول في ذهني حقيقة، فأنا أدرك بإن كل ما يجب علي فعله من الآن و صاعداً هو صك أسناني و إبتلاع كل ما أطعم من أمور غثة، سواء شئت ذلك أم أبيت، و يا لها من مهزلة!، فمن تكون أنت حتى تقرر ما يجب علي أن أفعله في حياتي؟ ».

زمجر رومان غاضباً، و كاد أن يكرفس الورقة بين يديه قبل أن يتماسك أعصابه و يتراجع عن فعل ذلك، و إيفان لا زال واقفاً ينظر إليه بعيون غير مبالية، ينفث دخان الغليون الذي أخذ يشكل حاجزاً بينهما، أشار إيفان بتروي تجاه الورقة، و قال بصوتٍ رخم و متباطئ يماشي حال مزاجه.

« أحتفظ بهذه الورقة و تأكد من أن لا تتمزق من إهمالٍ ما، و أعلم إنك من اليوم و حتى تنقضي مشكلتك هذه ستكون تحت وصايتي، و تحت رعايتي، مما يعني بإنه يجب عليك أن تمثلني بأشرف صورة و أفضلها، فأبتعد عن مشاكلك المعتادة هذه و توخاها، فلقد وصلتني أخبارٍ عنك و عن كل ما كنت تفعله بدون رقيب أو محاسب، و عن . . . ، سأبتعد عن ذكر ذلك الأمر، فلا داعي لتأجيج هذا الموقف الذي نحن فيه أزيد مما هو عليه ».

تقدم إيفان تجاه باب الغرفة و فتحه على مصراعه، قبل أن ينادي على عاملة المنزل التي أتضح بإن أسمها هو فيلبونا، و ما أن حضرت حتى أشار إليها إيفان بأخذ رومان إلى غرفته الجديدة، فحمل رومان حقيبته و أتبعها خارجاً من الغرفة دون أن يلقي نظرةٍ واحدة تجاه عمه، في لمحة تنبئ عن مصاعب قادمة، و أتبع العاملة إلى آخر الممر على يمينهم، قبل أن يأخذوا منعطفاً تالياً لليمين، فكانت الغرفة أمامهم، في آخر الممر المظلم الذي لا يؤدي إلا إلى الغرفة وحدها لا غير، فخمن رومان بأن تكون هذه الغرفة مجرد مخزن قد تم إخلاءهُ من الحاجيات و تم تنظيفهُ على عجلة، فتحت العاملة الغرفة فتفاجأ رومان من النور المشع الذي كانت تحويه، حيث كانت نافذة الغرفة عديمة الغطاء أو الستار، و مواجهة مباشرة للفناء الأمامي، حيث يستطيع أن ينظر من الأعلى للحي بأكمله، فرأى السيدات ما زلن يتحادثن عند عتبات بيوتهن، و الأطفال من بعيد يتراكضون و يلعبون في مرح لم يتغير، و العجوز أيضاً ها هو قد رجع مكانه السابق مستنداً على سياج فناء منزله هو الآخر مثله مثل رومان يراقب الحي

و ما يجري فيه من أحداثٍ نمطية، أغلقت العاملة باب الغرفة عند خروجها تاركة رومان يأخذ حريته في الإطلاع على بقية أرجاء الغرفة، و إفراغ حقيبته، و أرتأى رومان فعل ذلك بعد أن يتفقد الغرفة أولاً، فأول ما لاحظه هو الكبت الصغير الذي ترك في إحدى جوانب الغرفة، فكان ذلك هو أول ما توجه إليه رومان، ففتح صفقة باب الكبت فرأى ثياباً على الرغم من كونها مهندمة إلا إنها غارقة تحت كومات من الغبار، و كأنها لم تخرج منذ دهور، سحب رومان إحدى القطع و نفضها ليتبين له بأنها سترة صيفية تناسب إمرأةً شابة، فأخرج قطعةً أخرى و إذا بها تنورة هي الأخرى تناسب إمرأةً شابة، و أخذ يخرج قطعة تلو الأخرى و تبين إنها كلها تخص إمرأةً ما كانت تعيش هنا، أو ربما ما زالت تعيش هنا، فهو لا يعلم لحد الآن كم عدد قاطني هذا المنزل، أعاد رومان الثياب إلى الكبت و أغلقه، و شرع بتنظيف الغرفة.

أستيقظ رومان من نومه أثر سماعه لطرقاً على الباب، و تفاجأ بالظلام الذي غمر الغرفة، فأستنار بالضوء القليل الذي كان يصله من مصابيح الشارع من خلال النافذة، و فتح الباب ليلاقي فيلبونا التي أندهشت من الظلام الذي رحب بها، حتى تدارك رومان الموقف بفتحهِ زر المصابيح بعد أن خبط الحائط بيده متلمساً مكانه الذي لم يعتد بعد عليه.

« ماذا هنالكَ؟، معذرةً لكن لقد غلبني النوم فَجأةً و أنا مستلقي على السرير بعد أن أنهيت إكمال تنظيف الغرفة، فأنا لم أحظى إلا قليلاً من النوم بالأمس الذي قضيته بالكامل مرتحلاً على متن القطار الغير مجهز للنوم المريح ».

أرتفعت شفة فيلبونا العليا في حركة تعبر عن الدهشة الناتجة من الإدراك المفاجئ، و كأن ما قاله للتو هو حل للغزٍّ عويص لم تستطع الإجابة عليه، فكان ذلك مثيراً للضحك بالنسبة لرومان الذي لم يستطع إخفاء إبتسامته، مما جعل فيلبونا تُعجّل في قول ما جاءت من أجله.

« معذرةٍ يا سيد رومان، لكن السيد إيفان يطلب حضورك على مائدة العشاء حالاً، فقد كان في إنتظار وصولك منذ حوالي عشر دقائق، فنحن لم ندرك بإنك كنت نائماً، هذا كل ما أردت قوله، فلو تفضلت بالنزول بأسرع ما تستطيع و الأنضمام للبقية ».

قفلت فيلبونا قدميها راجعة من حيث أتت، بينما رجع رومان إلى غرفته، يعدل من هندامه، و يصفف شعره الذي تبعثر أثر النوم، و ما أن رضى عن حال إنعكاسه في المرآة حتى خرج من الغرفة و نزل السلالم بخطواتٍ واسعة، و على يمينهُ مباشرة بعد السلالم كانت ردهة الجلوس الواسعةَ أمامهُ، و نُصِّبت فيٍ وسطها طاولة الطعام التي جلس على رأسها عمه إيفان، و أنضمت إليه قباله معطية ظهرها لرومان إمرأة جالسة بإستقامة و منشغلة بتقطيع طعامها بالسكين، و خمن رومان بأن تكون هذه المرأة هي زوجة عمه، التي لم يدرك بوجودها حتى هذه اللحظة، و على إحدى الكراسي على جنب الطاولة كانت فتاةٍ صغيرة تجلس بهدوء يبدوا أقرب بأن يكون إنكسار، تقدم رومان منهم ملقياً التحية على مسامعهم، فتفاجأت المرأة بظهوره على جانبها مرةً واحدة، قبل أن تغير ملامح وجهها إلى إبتسامة مرحبة و عريضة، و كأنها قد تدربت على ردة الفعل هذه طوال عمرها، إبتسامة تكاد تشق الشفتين من عرضها، و عيون مزررة ذات لمعة غريبة تذكرك بعيون الدمى العديمة الحياة، لم تنطق بأية كلمة، فقط أستمرت في التحديق الساهم و إصطناع الإبتسامة، حتى ملَّ رومان من ذلك، فنظر إلى عمه الذي أشار إليه للجلوس على أحد الكراسي، فأختار رومان الكرسي الأوسط من الجهة الأخرى الخالية، و كأنه بذلك يتبع خطة الفتاة الصغيرة بالبقاء أبعد ما يستطيع عن كِلا الشخصين على

طرفي الطاولة، و وجه بصره بعد أن جلس إلى الأمام إلى حيث كانت الفتاة الصغيرة التي قد أحس بتحديقها فيه، هذا قبل أن تنتبه إلى كونه مدركاً لذلك التحديق، فأسدلت رأسها حالاً لتنظر إلى طعامها و حاولت أن تظهر بمظهر الغير منتبهه لما يجري حواليها، مسح إيفان فمه بالمنديل متأهباً للحديث، و أخذ يتلطق بالطعام الذي لا زال عالقاً في فمه قبل أن يشرع في كلامه.

« أرجو أن تكون الغرفة قد نالت على رضاك، هي حقاً غرفة صغيرة و معزولة، لكنها شرحة للنفس، بسبب النافذة المطلة على الحي، و لا تقلق بهذا الشأن، فلقد وجهت لفيلبونا بغسل إحدى الستائر المخزنة لدينا، و بالغد ستقوم بتثبيتها في غرفتك، فتأخذ عندئذ راحتك في تحديد مقدار ما تريد أن يدخل إليك من ضوء، أو إعفاء عينيك من مظهر الحي الممل، لكن أين وقاري قد ذهب؟، هذه زوجتي التي تراها هنا، ناديا هو إسمها، في حال أردت أي شيئ أو أن أردت الإستعلام عن أحد الأمور المتعلقة بالمنزل ستكون هي بالخدمة، هذا إن أستطعت أن تلاقيها هنا في المنزل، فهي غالباً ما تقضي وقتها إما في نواديها النسائية، أو في الأسواق، لا تكل من أي من هتين الفعاليتين ».

قاطعته ناديا بطريقة معاتبة، و بصوتٌ رفيع و بنبرة تشابه الطريقة التي يتلفظ الأطفال الصغار بها في كلماتهم.

« لكن يا إيفان، ماذا تريدني أن أفعل هنا في هذا المنزل القاحط، فلا يوجد أية أمور ممتعة تحدث هنا، أو أية أحاديث شيقة تحكى لأنضم في الحديث فيها، و بالتالي أنا لا أقضي كثيراً من الوقت حقاً في النوادي أو في الأسواق كما تقول، فها أنا هنا الآن في المنزل في هذه

اللحظة، ألست كذلك؟، فلما جعلت هذه الكلمات المجحفة بحقي هي أول ما تنطق به لتعرُفني لإبن أخيك؟ ».

أماطتناديا شفتيها في كمود، و أخذ إيفان يحاول تطييب نفسها ببعض الكلمات التي يدرك بأنها لن تغير شيئاً من الواقع المعاش، قبل أن يدير رأسه تجاه الفتاة الصغيرة ليعرف بها هي الأخرى.

« و هذه الفتاة الصغيرة هنا هي إبنتي داليا، و هي فتاةٌ مطيعة و جيدة الطبع، لا تخالفنا أبداً في شيئ، هادئةً و مسالمة لا تحب الإزعاج أو الضوضاء، و لذلك هي تفضل دائماً الجلوس في غرفتها لوحدها في معظم الأوقات، لذا لا تظن بها سوءاً إن لم تخاطبك بطريقة مباشرة أو بإنفتاح كما يفعل الأطفال عادةً في سنها، و فالحقيقة لقد أحتفلنا بعيد ميلادها العاشر منذ بضعة أيام، و لم ندعوا إلا القليل من معارفنا، فحبذا لو كنت أنت هنا آن ذاك الوقت لأستمتعت بوقتك، و تعرفت على بقية العائلة في نفس الفرصة ».

رفعت داليا رأسها موجهةٍ إياه ناحية أبيها، و أخذت تلقي بعض الكلمات بصوتٍ خافت و كأنها لا ترغب بأن تصل هذه الكلمات إلى أي أحد غيره، لكن لهدوء المكان تمكن رومان من سماعها تصحح ما قاله عمه عن عيد ميلادها و إنها في الحقيقة قد دخلت التاسعة و ليس العاشرة من العمر كما قال للتو، فما كان من إيفان سوى طأطأة رأسه موافقاً على ما قالته من تعقيب بدون إظهار أية مبالاة أو شعور بالحرج من هذا الخطأ البين، ظهرت فيلبونا أمامهم و هي تحمل طبقاً من الطعام و أتجهت نحو رومان حيث وضعت الطبق أمامه لتنسحب بتواري مرةً أخرى عن أبصارهم، شرع رومان في الأكل النهم و السريع و بكِلا يديه لكونه لم يأكل شيئاً منذ الأمس، و أخذت كُلاً من ناديا و صغيرتها داليا بتوجيه النظرات تجاهه،

تختلف الأولى عن الأخرى، حيث التقزز كان ما أظهرته دانيا، و التعجب كان من نصيب داليا التي لم تدرك بإن بالإمكان أن تَشْهد مثل هذا الحدث الخارج عن اللياقة أمام ناظري والديها المتزمتان، طرقع إيفان أصابعه ليجلب نظر الجميع إليه، و ما أن حاز على إهتمام كُلاً من زوجته و إبنته حتى ألمح لهن بالنهوض عن الطاولة و ترك الرجلين وحديهما، فنفضت داليا يديها و أسرعت بترك مقعدها و التوجه إلى الطابق الأعلى لتذهب إلى غرفتها حيث حريتها تنتظرها، بينما تباطأت دانيا في النهوض و كأنها لا تستحب إقصاءها هذا من الحديث التي كانت تتوقع بأن يكون شيقاً، على الأقل مقارنةً بمجرد جلوسها في إحدى غرف المنزل البكماء، خلى الجو لإيفان و رومان الذي بدوره لم يلحظ إنسحاب البقية عن الطاولة لكونه قد أنشغل بإلتهاف طعامه حتى آخر حبة، حتى سعل إيفان بدون تعميق كحته، فرفع رومان رأسه مدركاً مغزى البادرة هذه، و تفاجأ بخلو الطاولة من زوجة عمه و إبنتها، حتى أدار رأسه تجاه إيفان مرةًٍ أخرى الذي باشره بالحديث.

« إمرأةٌ ساذجة، ألا تظن كذلك أيضاً؟، لا تهتم إلا بما تقلنه صديقاتها الأخريات الاتي هن أيضاً بمثل سذاجتها، هه، و كأن ما يجول بأدمغتهن الصغيرة هذه من كلام أو فكر له أي ثقل أو أية ذرة من الإعتبار من الأساس في مجتمعنا هذا لكي تهتم و تعمل به، لكن ماذا أقول، هي على تفاهتها ما تزال إمرأة لا بأس بها، لم تجلب لي العار و الخزي، و هذا يكفيني لأبقيها خلف إمرتي، و إبنتي طبعاً لا يمكن أن أنساها، فهي الثمرة الجيدة الوحيدة التي نمت من هذه العلاقة التي تجعلني لا أندم على إني قد شرعت بها، لكن دعنا من كل هذا، فأنت كما قرأت في الورقة التي أسلمتها إليك في هذا الصباح، بإن كل ميراثك و مقتنياتك هي تحت تصرفي حتى تُخلى من الإتهامات التي أنت تواجهها حالياً، و لا يوجد أي داعي لهذا التوجس و القلق الذي أراك تبديه، فأنا أملك من غِنى و ثروة تغنياني عن خريداتك البخسة هذه، فتطمأن من

إن كل ما تملكه هو مصونٌ و محفوظٌ بأمان لدي، لن ينقص منه أية درهم مهما مرت السنين أو طالت ».

طفقت إبتسامة ساخرة على فم رومان الذي أخذ يعبث بشعره مظهراً عدم أخذه لما قد قاله إيفان بجدية، و ظل إيفان صامتاً معطياً المجال لرومان ليجمع أفكاره حيث بدا له إن ذلك كان ما يقوم به، و مرت لحظات و رومان يتمايل و يقلّب من حركات ذراعيه، تارةً يضعها فوق رأسه، و أخرى تحت ذقنه، في حيرة لكيف يأخذ هذا الموقف الذي هو غير مرتاح فيه و يقلبه إلى صالحه، حتى أصطلب رومان في مقعده أخيراً، و واجه إيفان مباشرة و علامات الجد على وجهه هذه المرة.

« إن كان كل ما أملك هو مجرد خريدات، فلما لا تعلمني بكم عدد هذه الخريدات التي هي برأيك بخسة كما تقول؟، و بذلك تقنعني بكم هي ضئيلة حقاً بالمقارنة مع ما تملك، أنت تطلب مني الثقة بك، لكني لا أعرفك، و لا أعرف من تكون حقيقة، فهل كونك أخاً لأبي يجعل منك جديراً للحوز على ثقتي الكاملة تلقائياً و بدون تمحيص في تصرفاتك أو أي إثبات لإمتلاكك الأهلية للحوز عليها، فخبرتي في الحياة و ما مررت به تقولان لي كلا، أنت لست جدير بالثقة حتى تثبت لي ذلك، و حتى هذه اللحظة إن قلت لي إن ما ورثته هو مجرد خريدات قليلة فتيقن بأني لن أصدقك، فدعنا من هذه الرسميات و الكياسات التي لا داعي لها، فإن كنا حقاً أقارب فدعنا نتصرف كما يتصرفون الأقارب مع بعضهم البعض، أية بصراحة و وجهاً لوجه ».

أستمر رومان في التحديق في إيفان الذي إزدادتا عيناه حدة، و أنتفخا خداه من شدة الحنق و تصاعدت روح التحدي لديه، و تطايرت الشرارات من عينيهما هما الإثنان، و أشعل رومان نارها بسكبه البنزين عليها بقوله.

« أنت تحاول خداعي أليس كذلك؟، جلبتني إلى هنا لأكون تحت رعايتك و كفالتك لتختلس أموالي، أليس هذا صحيحاً يا عمي؟ »،

أغمض إيفان عينيه لثواني معدودة لكنها بدت كأنها دهور قد أنثالت، حتى أخذت بعض القهقهات تخرج من فمه الذي بدأ ينفتح قليلاً قليلاً مخرجاً المزيد من القهقهات إلى أن أنقضى به الحال الى الضحك المدوي الذي ينبع من الأحشاء، حيث تشعر بكل إهتزازاته و ذبذباته، أمسك إيفان بطنه يحاول إستدراك حال أمره و جمع لمام حاله، و أستمر على هذا الوضع لدقائق بينما كان رومان قد بدا و كأنه على وشك الإنفجار من شدة الغضب، و الإنقضاض عليه حال تلك اللحظة، فهل ما قاله للتو حقاً يستحق كل هذا الضحك؟، بل يجب أن يكون على عكس ذلك، فهذا أمرٌ في غاية الجدية، لا يُستهان به لحد الإنتهاء بالضحك الماجن هذا الذي يحدث أمامه، و أخذ ينتظر في نفاذ للصبر حتى ينتهي إيفان من الضحك الذي بدا و كأنه لا يوشك أن ينتهي منه حتى تعاوده القهقهات مجدداً، أخذ إيفان يمسح دموعه بظهر يديه و هو يهدئ من نفسه، و كان هو المباشر بالحديث.

« آه، . . . ، حقاً إنك إبنَ أبيكَ!، فإن كنت قد شكّكت في أصلك من قبل، فالآن لقد فنّدتَ كل تلك الشكوك، فمن يقول مثل هذه الأمور بالله عليك؟، هه هه، أحاول خداعه قال، و أن أسرق أمواله، و تلك التعابير الجادة على وجهه و هو يقول كل هذا الكلام السخيف ».

ضرب رومان سطح الطاولة بقبضة يده، فسقط صحنه على الأرض و تكسر من شدة الإرتطام و تناثر الطعام القليل الذي بقيَ منه، و أخذت أسنانه تصر و تصطك فوق بعضها البعض، تكاد أن تتكسر حتى فتح فمه صارخاً.

« علام تضحك يا هذا؟، ما المضحك في الذي قلته؟، فكل ما قلته كان في منتهى الجدية، و لا تحاول خداعي بهذه المسرحية التي تقوم بها الآن، أتظنني ساذجاً أو مجرد أحمق لا يعلم بمثل هذه الحيل، هل تظنني مجرد فتى في العشرين من عمره تستطيع خداعه ببعض التمثيل الركيك الذي لا ينطلي حتى على طفل في الخامسة من عمره؟، فأنت مخطئ إن ظننت ذلك، فالذي يقف أمامك هو شخص محنك ذو قدرة كبيرة في التمحيص و التخريص في الترهات التي توضع أمامه، و يستطيع تجريدها على ما هي عليه في لمحات من البصر، فلا مجال أمامك هنا إلا الإعتراف بنواياك السيئة تجاهي، فهيا أنطق بها و دعنا ننتهي من هذه المسرحية الغبية ».

إنقلبت تعابير إيفان إلى ملامح مخيفة و مرعبة، و كأنه شيطانٌ قد طلع من أعمق أدراك الجحيم.

« سأعذر تصرفك المشين هذا و طريقة مخاطبتك الوقحة إلي فقط لكونك قد وصلت اليوم، و لم تسنح لك الفرصة لتعرف من أنت تخاطب بعد، و أعلم إن تغاضيي هذا لن يكون بنفس التسامح في حال تكرار فعلك هذا مرةً أخرى، فالعواقب ستكون وخيمة و لا تحمد عقباها، و أما عن ما تصفه بالمسرحية، فالأمر راجع إليك، فإن لم تصدق ما قد قلته، فالنظر سيكون هو الدليل القاطع، سأحضر الأوراق و المستندات الخاصة بورثتك، و سأعطيك كامل الحرية في التدقيق فيها و التمحيص في ثناياتها و بنودها، و عندئذ ستعلم كم تملك حقاً، و سيتضح لك كيف إن إستقبالي لك هنا و جعلك تحت وصايتي ما هو إلا محاولتي لصيانة شرف العائلة، فإن لم يهتم والدك بك و لم يعلمك الإحترام، فهذا سيكون واجبي بصفتي وكيلك الوحيد من الآن فصاعداً ».

وقف رومان متسمراً في مكانه، غير مصدق بإنه سيكون بإمكانه الإطلاع على ما خلفه له والده من ثروة، لكن هذا الإندهاش تحول إلى خيبة أمل، كونه أدرك إن ما يقوله عمه لا بد و أن يكون صحيحاً إن كان لا يمانع رؤيته للمستندات، قام إيفان من على مقعده وفي طريق خروجه إلى خارج الغرفة مر من جهة رومان و ربت يده على كتفه قائلاً.

« في الغد سترى بعينيك حقيقة والدك، و كيف هو حقاً لم يخطط لك و لمستقبلك، أما الآن فتوجه إلى غرفتك و خذ قليلاً من الراحة و لا تسبب مزيداً من الإزعاج، فالفتاتان نائمتان، و أنا سأقضي بعض الوقت في مكتبي، فما زالت لدي بعض الأعمال التي لم أستطع أن أقضيها هذا الصباح، لكوني أستقبلت ضيفاً مهماً اليوم كما ترى، هه، و لا تقلق بشأن الصحن، فستعتني فيلبونا بالأمر، فهي تنظف المكان على أية حال بعد العشاء مباشرة ».

مضى إيفان في حال سبيله رافعاً رأسه و مختالاً في مشيته، بينما ظل رومان محتاراً في ما يفعل بهذا الليل الطويل، فهو لا يشعر بالنعاس بتاتاً.

حار و دار رومان في غرفته كالقط الحبيس، لا يعلم ماذا يفعل أو ما يمكن أن يفعله حتى، عقارب الساعة تدق بحركة بطيئة و كأنها تقاوم جريان الزمن مع كل حركة، حيث أشارت العقارب الآن إلى الساعة التاسعة ما بعد النصف، و لا يُسمع أي حس لأحداً ما، لا من المنزل و لا حتى صادراً من الحي، حيث أطفأت أنوار و مصابيح معظم المنازل في أرجاء الحي، و ربما كانت غرفة رومان كالعظم الذي لا يستساغ بلعه بمصباحها المضيئ هذا و إنعدام تواجد الستار لحجبه عن أعين الجيران مِن مَن قد يطلون من خلال نوافذهم، فأطفئ رومان مصابيح غرفته و توجه خارجها و نزل السلالم قاصداً المطبخ ليزجي بعض الوقت من هذا الليل الطويل، فتفاجأ من كون المصابيح ما زالت مفتوحة عند إقترابه من المطبخ، حتى

دخله ليلاقي فيلبونا التي كانت جالسة على طاولة، و كوباً من القهوة في يدها، و يدها الأخرى تحمل كتّابٍ مُسَخِّرة عليه كل تركيزها لدرجة تقطب حواجبها، فشهقت لرؤية رومان يظهر فجأةً أمامها كالمارد بهذه الصورة، و كادت أن تهرق كوب القهوة على ثوبها لولا تداركها لحالِ أمرها، و سرعة بديهيتها في جعل الأمور تجري بسلاسة، حيث أنه لم تمر سوى ثواني حتى كانت قد وضعت الكوب و الكتّاب جانباً و وقفت بإصطلاب أمام رومان تسأله إن كان يرغب بشيئاً ما، بإحترافيتها المعتادة و بصوتها الرتيب الذي لا تستطيع تحسس المشاعر المخبأة وراءه، فكل ما تفعله أو تقوله هو نابع من إرادتها لقضاء ما تُدفع راتبٌ من أجله من أعمالٍ و خدماتٍ على أكمل وجه.

تجاهل رومان سؤالها، و أزاح إحدى الكراسي الملقية جانباً، ليضعه قبال الطاولة حيث جلس عليه و أسند كوعيه على سطح الطاولة، و أخذ ينظر الى فيلبونا مترقباً منها القيام بالمثل و الإنضمام إليه.

(الفصل الرابع)

سبح هواء الليل العليل و تماوج حتى تخلل في ما بين شبكة ذباب نافذة المطبخ ليضفي جواً من الإنتعاش مشابه للجو الذي تصادفه عند شاطئ البحر عندما تركمج الرياح على أمواج المد التي توصلها إلى رمال الشاطئ التي بدورها تأبى الزحزحة كونها قد أصبحت مثقلة برذاذ ماء البحر المتطاير في تحالفات و صراعات متعددة الأوجه تذكرك بملاحم و دسائس آلهة الأغريق القدامى، و كان كذلك الحال بالنسبة إلى فيلبونا التي أبت الجلوس مع رومان على نفس الطاولة ما لم يخبرها أولاً بما الذي يريده منها، فهي على الرغم من تفانيها في عملها كعاملة منزلٍ تنفذ جميع طلبات مستخدميها إلا أنها لا تزال تملك من الكبرياء و العزة بالنفس قدراً كافياً ليجعلها صلدة و شديدة القابلية لمواجهة التحدي رأساً و مباشرة إن لم تكن أو لم تجعل الأمور واضحة بالنسبة إليها، فهي حذرة و دائمة التيقض، أو على الأقل تحاول أن تكون كذلك، فمن منا لا تزل قدمه من عقبةٍ لم يحسب لها حسبان، فوقفت على رأس رومان شامخة مزمتة لفمها، و أتضح لرومان على أنه قد خمن خطئاً عندما ظن بإنها قد تكون بمنتهى السهولة للنيل على طاعتها الكاملة، فقط قل لها إاتي فتأتي، أو إذهبي فتذهب، أزاح رومان كوعيه من على سطح الطاولة، و أمال ظهره للخلف مستنداً بإسترخاء على ظهر الكرسي، و كان رومان يأبى بشدة فكرة التنازل و الخضوع في هذه المواجهة، و لمن؟، لعاملة منزل لعمه!، فهل هذه حقاً مكانته و ترتيبه في هذا المنزل من الآن فصاعداً؟، لكن على الرغم من كل هذا فلا يجب أن ننسى بأنه قد سبق له أن قرر الإستسلام لهذا المصير كما سبق له أن أقر بهذه الوضعية التي هو بها حالياً لعمه عندما قال بأنه سيقفل فه و سيمضغ كل ما يُطعم و حتى إن كان غثاً و كريه الرائحة، فأرخى من تعابير وجهه، و حاول إضفاء قليلٍ من الإنحناءة على شفتيه للأعلى مصطنعاً البشاشة، و أخذ يخاطبها بصوتٍ مُطمْئِنٍ.

« لا تقلقي يا فيلبونا، فأنا لا أضمرُ أي خبثاً تجاهكِ، و لست هنا لمحاولة جعلك تقومين بأي شيءٍ تكونين أنتِ كارهةً له، فكل ما أريدهُ هو رفيقٍ أمضي هذا الليل الطويلَ معه، لنتسامر و نتحادث، فإجلسي معي لو تفضلت يا فيلبونا ».

أستمرت فيلبونا على عنادها، و أستمرت بالوقوف صامتة، كأنها تطلب المزيد من الطمأنة و الأدلة على صدق نواياه، عيناها لا تبارحان وجهه، تحدق بجمود حذر، فأطلق رومان تنهيدة تعبر عن الخذلان و الضجر، حتى لمحَ على الطرف الآخر من الطاولة الكتاب الذي كانت تقرأه منذ قليل عندما دخل عليها فجأةً، فألتقطته يداه بسرعة لينظر إلى عنوانه.

« 'يوميات فتاةً مأسورة'؟، يا له من عنوانٍ جاذبٍ! ».

قال تلك العبارة بملئٍ من السخرية و الإستخفاف، و إن لم يتُضَح ذلك من كلماته، فإبتسامته الرخيصة تفضح ذلك المعنى، مما جعل فيلبونا تتجرأ و تخطف الكتابَ من بين يديه لتضعهُ بعيداً عنهُ خلف ظهرها، و تعابير وجهها الممتعضة تُنبِئ عن نفاذ صبرها لصموتها هذا و عن قرب إنطلاق الكلمات بسيلٍ لا يمكن إيقافه أو توقع مجراه.

« لا تمس أغراضي، فهذا ملكي أنا، أشتريته من نقودي الخاصة، و لا يحق لأحدٍ التعدي على هذه الخصوصية، لا أنتَ، و لا حتى السيد غيرسكفيسكي، و ما الداعي للسخرية أصلاً؟، هل القراءة عن خواطر و مدونات شخصٍ قد ضاقت الدنيا به حقاً بهذه السخافة من وجهة نظرك؟، هل وصل الإحتقار للمرأةَ لحد لا يقف فقط لتعريضها من قِبَل المجتمع لكل هذه الظروف الشديدة و الجابرة التي تنتهي بها إلى الإحساس بالأسر، بل حتى يصل الوضع إلى السخريةَ من شعورها جراء ذلك الحبس أيضاً؟، لا تظن بإني سأتركَكَ تلعبُ و تضحكَ حوالي كما تريد دون تصحيح ما تقوله أو ملاحقتك بتعقيب من عندي، فعسى هذا يجعلك تتعاطف

مع المظلومين و المضطهدين، نعم فنحن النساء قد وضعنا و بدون إشراك لرأينا في درك سلم تراتيب المجتمع، فحتى الأطفال تُسمع صرخاتهم و تذمراتهم بآذانٍ صاغية، ثم تنقضي هذه الصرخات بتنفيذ رغباتِهم، لكن ماذا عنا؟، أفلا يمكن أن تُحقق مطالبنا، و لا أن يسمح لنا بأخذ ما نريد بأيدينا أن سأمنا من الإنتظار لتنفيذكم ذلك؟، و أن لم نستطع النيل منها بأنفسنا فلا نأخذ حريتنا حتى في التنفيس عن تلك المصاعب و الإحباطات التي تحدث جراء ذلك بدون أن يسخر منا! ».

أظهرت فيلبونا الكتاب من خلف ظهرها، و رفعته في وجه رومان، و كأنها فارس سيف الجلمود، و ها هي تستل السيف من غمد الصخرة و تشهر به في وجه التنين، رجليها منفردتان، و تعابيرها حازمة و متأهبة للقتال، كل هذا و رومان جالس لا يدري أيضحك من هذه المسخرة، أم يصفق لهذا العرض الشيق الذي قدمته له للتو، فمال إلى الرأي الآخر، و أخذ يصفق بهدوء، فالعرض قد أنتهى بالنسبة له، فلا مجال الآن لممثلي المسرح لمواصلة التقيد بأدوارهم، بل قل لا يَسمح الجمهور للممثلين بفعل ذلك إلا و أتهموهم بالجنون، أو الغلو في أخذهم لأدوارهم بجدية لا تحتمل، قام رومان من على مقعده، و سحب الكتاب من يد فيلبونا التي تسمرت على وقفتها الإستعراضية، و وضعه على سطح الطاولة، قبل أن يقول.

« هه، ماذا كان كل هذا الهراء عن المرأة و مظلوميتها؟، أتحاولين السخرية مني؟، فالنساء هن الرابحات الأكبرات من أية صفقة تتم أو قد تمت بين الجنسين على مدى الدهور، فعندما خُيرت المرأة فيما بين مواجهة الطبيعة الطاغية و القتال بين وحوش الغاب اللذين لا يرحمون، أو ما بين الجلوس في المنزل بإنتظار وصول الغنيمة بدون أن تشارك في الحرز بها، فالنصيب الأوفر كان من حظ المرأة، و عندما قررت البشرية الوقوف على بنود الإحتشام في اللبس، في الإختيار فيما بين إمكانية التجرد من أغلبية الثياب في العلن، أو الإحتفاظ بها، فكان أيضاً

النصيب الأوفر من حظ المرأة، فهي بذلك حافظت على عذريتها من التجرد الفاضح، ذلك التجرد الذي سُمِحَ للرجل و الذي شوب حس الغموض حول هويته، فيما كان إحتفاظ المرأة بالقسم الأوفر من الإحتشام جعلها أكثر قابلية للطلب و الرغبة في تقصيها لمعرفة ما هي عليه تحت تلك الأغطية، و مقارنة بالرجل الفاضح لأمره و الذي بذلك لا يصعب تفكيك ما يكون عليه، فهو غير مستور و معرض لكل مارٍ ذو بصر، و بذلك بَخست قيمته كسلعة، فكما ترين أنتهى بنا الحال إلى أن تكون المرأة هي المتحكمة الحقيقية بمقومات و بنية المنزل، لكون الرجل هو الساعي دائماً خلف المرأة يحاول بكل ما يستطيع النيل على رضاها، و بالدور ذلك يجعلها المحرك الفعلي للمجتمع و المُقوَد الذي يسدد إتجاهه، فلا عجب لكون مجتمعاتنا دائمة التعثر و التقلب في الحركة و المزاج، لكون المرأة هي من تتحكم به فعلاً من خلف الستار، و الأسوء من ذلك كله هو أنكن لا تحملن النتائج الوخيمة التي تنتج من إحتكاماتكن الإعتباطية و تخريصاتكن التعسفية لكونكن تقفون و تختبئون خلف ظهور الرجال، يحمونكن كما يفعل الكلب الوفي لصاحبه، فلا تحدثيني عن المظلومية، و أنا هنا أقف أمامك مقهور الحال، أظلم من قبل عمي، سحقاً له ذلك السافل السمين! ».

أنقلبت تعابير فيلبونا فتحول القهر إلى إستعجاب، حتى أدركت الموضوع الذي أدخله رومان في آخر حديثه، و الذي بذلك أضحكها و جعلها بمزاج للسخرية من رومان بدورها و الإنتقام منه.

« هه، إذاً هذا هو السبب لكل هذا الكلام الغير الواقعي أو المنطقي الذي أطنبت فيه، طبعاً!، فلا يمكن أن يصدر مثل هذا الكلام المتعسف و الظالم ألا من رجلٍ محبط لا يستطيع جلب حقه المسلوب بنفسه، فلا ترى منْفذ لكل هذه المشاعر المغبونة الفائضة إلا بتوجيهها على شكل

لائمة تجاه المستضعفين اللذين هم في حالةٍ أسوء منك، فلا عجب هنا بعد الآن من حالتك هذه، نعم!، فهذا إسقاطٍ واضحٍ منكَ ».

عاد رومان للجلوس على كرسيه في إنكسار و خمول، و لم يعر لما قالته فيلبونا أي إهتمام، لكون كلماته هو، و خصوصاً الجملتان الأخيرتان كانتا كالسهم الذي أخترق قلبه، و بدل أن يقتله بسرعه، جعله ينزف قطرةٍ تتبعها قطرة، تقيده ما بين الحياةَ و الموت، فلا مجال له هنا للحركة لإسعاف نفسه، أو أية طاقة كافية للقتال، فأسند جبهته على يده، و أخذ كعادته يلاعب خصلات شعره بأطراف أصابعه، سمع صوت زحزحة الكرسي قبالته، و خشخشة الملابس و هي تتفاعل و تحتك جراء الحركة، و في تزامن عفوي تنهد كُلاهُما في نفس اللحظة في حسرةٍ على حالهم المكدر هذا، لحل الصموت القاسي على أرجاء المطبخ، و الريح ما زالت تصفع بشبكة ذباب النافذة تحاول تحريك مجرى الأمور دون كلل أو تخاذل، مرت بهم هذه الحال لدقائق مضت كأنها ساعات، حتى نَطقَ إحداهم.

« قد لا تصدق ما سأقول، و لكني عندما كنت طفلةً صغيرة كنت دائماً ما أحلم في أن ينتهي بي الحال بأن أعمل كعاملةٍ في إحدى بيوت العوائل الثرية، و أراقب تصرفاتهم و أطباعهم عن كثب، و أشارك في تدبير أمورهم و أن أكون تحت إمرتهم لتحقيق كل رغباتهم، و حلمي يتفاقم هنا بأن ينتهي بي الحال مع تلك الأسرة بأن يتخلوا عني كعاملة، و يتبنونني كإحدى بناتهم، و يكون كل ما قد عملته و سخرته من أجلهم في إستمرار، لكن تحت هذه الظروف سيكون ولائي و محبتي لهم مؤكدة و موثوقة لديهم لكوني لن أملك أي دافع سوى ذلك لأستمر في القيام بتلك الأعمال، فنقضي نهار أيامنا بهدوء، و ننهيه بالحديث مع إنجلاء كل يوم عن كيف قد قضينا هذا النهار و ماذا فعل كُلاً منا بوقته، فنضحك على الأمور الغريبةَ و العجيبةَ التي صادفناها، و نْسخر من بعضنا البعض بممازحة، و جزء من مخططاتنا

التي كنت أحلم بها و أنظمها في مخيلتي هو أن نقضي كل يوم أحد و أربعاء بالقيام بنزهة عائلية، نخصص يوم الأحد لزيارة مكان معتاد نقوم فيه بقضاء نصف اليوم فقط لكي لا نمل منه، و لكن يوم الأربعاء يكون مخصصاً لزيارة مكاناً جديداً و شيقاً، و هناك نقضي اليوم كله بتفقد المكان و تقصي كل زاوية منه، و تجربة كل ما يحويه من ترفيهات، و نختتم اليوم بالتجمع تحت ظل إحدى الأشجار الكبيرة ذات الأوراق الوافرة و تحت ضوء القمر و النجوم، و يقوم كُلاً منا بالحديث عن ما أختبره و ما رآه، و نقارن و نحلل و نضحك و نمرح، لنعود أدراجنا إلى المنزل، حيث نودع بعضنا بأمسياتٍ سعيدة و أحلاماً طيبة، . . . ، لكن هذا ليس الواقع الذي أعرفه و الذي يحدث دائماً، فلست أنا هنا من داعي إرادتي للتجربة و حسب كما تستطيع أن تخمن، هه، فمن قد يقوم بذلك؟، فيا لها من أحلامٍ طفولية! ».

غطت فيلبونا وجهها براحتي كفيها، و لكنها لم تذرف الدموع، فهي أقوى و أشد تحملاً من ذلك، أخذ رومان يطقطق بأصبعه على سطح الطاولة و كأنه يعد الثواني الصامتة التي تمهله وقتاً لجمع أفكاره.

« آه، يا لها من أحلامٍ في غاية الرومانسية و التفاؤل، أن نحول ما نراه يحدث حوالينا من أمورٍ بشعة و قبيحة و نحاول أن نُطعّمها في خيالنا و نجعلها تتقابل و تمتزج مع الفرص السانحة و المعجزات المستحيلة التي نصطنعها في أذهنتنا، فالطفل المهشم من قبل أبويه دائماً ما يحلم بتحقيق الشهرة عندما يكبر بأية وسيلة أو طريقة كانت، و هو فقط يريد ذلك لكي يعود إلى أبويه اللذان لم يلقيا عليه يوماً أية نظرة عطف أو لمسة محبة، ليلوح في وجوهيهما بهذه الشهرة و هذه المكانة العالية التي لم يحرزها إلا لكي يجبرهما بأن ينُصِبا كل إهتمامهما عليه هو فقط لا غير، فإهتمام الناس به عندئذ ليس هو الغاية القصوى في تحقيق هذه الشهرة، بل هو مجرد الوسيلة لغاية أهم، ألا و هي إهتمام أبويه، و أنا أخمن بإن أمك كانت عاملة منزل أيضاً، و

ربما قد رأيت كيف كانت تعامل من قبل مستخدميها من إساءة و إحتقار، و كأنها ليست ببشر مثلهم، يحس، و يرغب، و يطلب، و يحلم، فعلى الرغم من تدبيرها لكل أمورهم و خدمتها لهم في كل أمر يصدرونه و يأمرونها به، إلا أنها لا تتجاوز في إعتدادهم بأن تكون ليست سوى مجرد آلة تستخدم، فهي لن تنال يوماً مكانة متساوية مع بقية أفراد العائلة، مهما حاولت، و هذا لكونها كعاملة بالإمكان الإستغناء عنها في أي وقت يربدون، و لذلك حلمك هذا حاول تصحيح تلك الصورة، و أقنعت نفسك بإنك على الرغم من إن الحال سينتهي بأن تكوني عاملة منزل مهملة مثل أمك، إلا أنك لسبب ما، سواء أكان ذلك إيمانك بمعجزة إلهية، أو مجرد مصادفة لا تنال إلا في العمر مرة، ستُستَخدمين من قبل عائلةٍ لطيفة و متعاطفة، كمثل العائلة التي تمنينها في أحلامك، و لكن ها أنت الآن جالسة أمامي تنوحين حالك، لا تستطيعين أن تتقبلي ما أنت عليه، منبوذة من قبل أناس تقضين ليلك و نهارك تحت تصرفهم، لا حرية تملكين، و لا خيار سوى العيش تحت هذا القيد، فلا تحاولي أن تعاتبيني على ما قد أقول، أو أن تصححي في ما قد أفعل، فأنت لست ساكنة في برج عاجي لتنظري إلي من أعلاه، بل أنت لا تملكين حتى المقومات اللازمة أو الأدوات المطلوبة لتبني هذا البرج في يوماً من الأيام، هه، فيا لسوء حظك! ».

ضحك رومان بسخرية على حال فيلبونا الرث، و في المقابل كانت وقع هذه الكلمات و تأثيرها أكبر مما توقعت فيلبونا أن تواجهه في هذه الليلة الهادئة، فحقاً إن قالوا بإن المرء لا يعرف ما سيتفطر به في الصباح و لا ما سيتعشى به في العشاء، فكانت عيناها منفتحتان على وسع محجريهما، تفيضان بالدموع التي ترفض النزول، و كأن تلك الدموع ما زالت ترفض الإعتراف بلزوميتها للتعبير و التنفيس عن حال ما يختلج في دواخل الفرد، فغرت فيلبونا فمها في حيرة لما تقول، حتى قفلت فمها لتعبس بشفتيها، و قامت بحزم من على كرسيها و علامات

إنفجار الغضب على وجهها، أخذت كتابها بيدها، و وقفت للحظة قبل أن تحمل كوب القهوة التي قد برد ما تبقى منها منذ لحظات، و سفعت القليل منه في وجه رومان الذي بدا و كأنه كان يتوقع ردة الفعل هذه أو ما يشابهها، فجلس كالصنم، و القهوة تسيل من على وجهه لتتجمع على جرف ذقنه لتسقط أخيراً على ملابسه و توسخها، بينما همت فيلبونا بالمضي عنه في خطوات رادحة، تلوح بذراعيها و كأنهما مجدافي قارب يقربانها مع كل تلويحة إلى ضفاف شاطئ جزيرتها الجرداء حيث الأمان ينتظرها من هذا الغازي المتهجم، نهض رومان من على كرسيه و توجه تجاه المغسلة و غسل وجهه، و أخذ ينظر بعيون مُخدرة إلى خارج نافذة المطبخ حيث الليل لا زال يملئ كل زاوية و كل حدب بظلامه الفذ، و أصوات عرير الجنادب و الصراصير تملئ الجو و تضفي عليه لمسة سحرية لا تجدها عند سماع هذه الأصوات الناشزة نفسها عند الصباح، و كأن لليل موجات و ترددات خاصة به، لا تسمعها إلا الأذن الشاعرة بمأساويته الرومانسية، فما الليل إلا كدر الصباح، حيث الجانب المظلم لأنفسنا يأخذ حريته و يسيطر على حواسنا، فإن كان الظلام هو ما نراه حوالينا، فنحن نتأقلم معه بالتماهي معه في صبغته الداكنة، فقط لنتفادى الشعور بالتفارق في خوالجنا و ما يحدث خارجنا، فما أشتهر الليل بكونه حضن المذنبين التائبين، إلا لكوننا لا نطمئن بالسؤال عن المغفرة إلا في حال تأكُدنا من خلونا لوحدنا حيث لا يرانا أحد، و لا نرتكب الذنب إلا في الليل لكوننا ندرك إنه الستار المغطي لأخطائنا، فهذه الثنائية هي خاصية ليلية تميز بها عن النهار الفاضح الذي يسلط دائرة الضوء عليك في إنتظار قيامك بأي حركة لتَتَتْبعها أنظار المارين و السائرين، فالنهار هو خشبة المسرح النيرة، و الليل هو الكواليس المظلمة، فمضت الساعات كما تنثال قطع الجليد، و حل النهار، ليحرك أمور و مشاغيل العالم لتسري على مجراها البسيط و الواضح.

فتح رومان عينيه المحمرتان أثر عدم نيله لكفايته من النوم، كونه لم يخلد للنوم إلا مع توضح غبشات الضحى، رفع رأسه من على الوسادة ليتفقد عقارب الساعة التي أشارت لكونها عشر دقائق قبل أن تدق السابعة، فنهض من سريره بكل نمطية، و كأن هذه هي الليلة المائةَ التي يقضيها في هذه الغرفة، فلم يكن رومان ليتوقع بأن يعتاد بهذه السرعة على هذا المنزل خصوصاً مع المشاكل العويصة التي وجد نفسه فيها بالأمس، ألا و هي المشاجرات و المناكشات التي جمعته مع كُلاً من عمه و عاملة المنزل، فخرجت ضحكة ساخرة من فمه و هو يتذكر حواره المحتد ليلة البارحة مع فيلبونا الذي جعل يأنب من ضميره قليلاً، فما الذي جعله يقول كل هذا الكلام المحبط و القاسي و يلقي به على رأس عاملة منزل لا رأي لها أو صوت، و كأن ما قالته له بالأمس عن تلك التهجمات التي تصدر منه من دوافعه المغبونة قد تكون صحيحة، سواء أقبلها هو أم لا، سمع رومان صوت ثلاث طقات خفيفات على باب غرفته، فقام مسرعاً لفتحه، ليلاقي أمامه فيلبونا تقف مصطلبة و يديها مجموعتان أمامها، تنظر إليه بعينيها الجامدتان الخاليتان من المشاعر، و كأن شيئاً لم يحدث بينهما بارحة أمس، ففيلبونا الليل تختلف عن فيلبونا النهار التي تخدم، و تشتغل، و تقضي مهماتها بأقصى تفان، فعرف رومان حالاً مقدار تقيدها بإحترافيتها.

« السيد غيرسكفيسكي يطلب حضورك حالاً على طاولة الإفطار، فلو سمحت لا تتأخر في نزولك »،

و ما أن أكملت ما أتت لتقوله حتى فرت من أمامه بخطوات سريعة لا تُسمع لها صوت، رجع رومان إلى غرفته ليعدل من هندامه، و لكي يغسّل وجهه، و ما أن أكمل فِعل ذلك حتى نزل إلى الإسفل لينضم مع بقية العائلة ليشاركهم فطورهم، فكانت زوجة عمه في مكانها على الطاولة كما كانت في الأمس، و كذلك إبنتهم الصغيرة داليا، التي بدت على مثل

حال جلوسها المنكسر بالأمس، و كأنها لم تتزحزح من مكانها أبداً، و كان فطوره مجهزاً في مكانه الخالي، و كأن هذا المقعد قد خُصِصَ من الآن فصاعداً من أجل رومان، فجلس من دون أن يطلق أية تحيةَ صباح إلى أحد، و هُم في الواقع لم يهتموا بذلك، على الأقل ليس في هذا اليوم، فهم لم يعتادوا تواجده معهم بعد ليعاملوه كما يعاملون بعضهم البعض، و لا يتوقعون منه أن يتبع عاداتهم و يطبقها في أوائل تواجده معهم، فأخذ رومان يأكل حاله كحالهم.

« داليا، يا حبيبتي، هلا أكملت فطورك بشكلٍ أسرع، فيجب عليك الإنطلاق خلال دقيقتين إلى مدرستك، لا أعلم كيف كونتي هذه العادة السيئة في الأكل البطيئ، فالنظر إلى الطريقة التي تأكلين بها تجلب المقت في صدري، لا أصدق أني قد أبذرت مبلغاً طائلاً في إدخالك إلى هذه المدرسة الفاخرة، و هم لا يعلّمونك اللياقة و حسن السلوك اللذان يجب عليك أن تتبعيهما، فأنا كنت متأكدة بأنهم سيعلمونك كل هذه الأمور، فلقد سألت جميع صاحباتي عن جودة المدرسة و جدولها الدراسي قبل إدخالك فيها، و ها نحن بعد ثلاث سنوات من دراستك فيها، لا تستطيعين حتى إمساك أدوات الطعام بشكل لائق، صدقني يا إيفان، في يوماً من الأيام سأذهب إلى المسؤولين التافهين اللذين يشرفون على إدارة هذه المدرسة و أسائلهم عن ما يفعلونه مع إبنتي، و عن مستوى تعليمهم هذا، فالواضح أمامي أنه تعليم غير جيد و غير نافع، فيالهم من مبتزين، يسرقون أموالنا بدون الإتيان بنتيجةٍ ترى، نعم، سأذهب لهم حتماً.»

وضع إيفان كأس الماء جانباً بعد أن أزدرد منه القليل، فكلمات زوجته لا تحتاج للكثير لتهضم لتتضح جديتها أو هدفها، فإيفان كان مدركاً بإن كل هذه ما هي إلا كلمات فارغة، فكلا، ناديا لن تذهب إلى إدارة المدرسة و تسأل عن حال إبنتها، أو بأن تحاسبهم إن أتضح حقاً بإن ما يقومون به من تعليم ليس بالمجدي، فهي بكل بساطة لا ترغب في إدراك

الوضع على ما هو عليه حقاً، و عن كون إبنتها لا تستطيع إظهار نتيجة التدريس و التدريب الذي قضت ثلث عمرها في الخضوع له ما هو إلا عدم رغبتها في إظهاره!، فهناك فرق شاسع و كبير بين أن تقول إن شخصاً ما غير مدرك، و شخصاً ما غير مهتم، و داليا كانت من الصنو الثاني، و أمها من الصنو الأول، فالمشكلة مع داليا ليست مشكلة تعليم فاسد أو تدريب هاوي، فالمدرسة التي تذهب إليها هي حقاً من الطراز الممتاز الذي يفتخر إي شخص بإنتمائه لمنظومتها التعليمية، و داليا نفسها قد فهمت و حفظت كل ما كانت تُدرّس و تُلقّن، فهي من الأوائل في لائحة المتفوقين، مما يعني بإنها قادرةٍ على إظهار تلك المواصفات التي ترغب بها والدتها بأن تتقيد بها، لكنها تفعل ذلك فقط عندما يتعلق ذلك بإختبارها بدرجات دقيقة و حاسمة، و ليس في هذا المنزل حيث نتيجة التدقيق المزاجي الذي تخضع له هو التذمر و التأفف.

نهضت داليا من على مقعدها و أتجهت ناحية أبيها لتطبع قبلة الوداع على خده قبل خروجها من المنزل، و توجهت ناحية أمها بعد ذلك لتفعل المثل، ثم وقفت محتارة تعيد من نظرها تجاه أمها ثم أبيها تتفقد ملامح وجهيهما، قبل أن تحط بصرها على رومان الذي كان ينظر بعيون خارجة عن إطار المشهد لما يحدث أمامه، قبل أن يُفاجئ بداليا توجه كلماتاً تجاهه.

« وداعاً يا رومان ».

و ما أن قالت ذلك حتى أرتشحا خديها بالحمرة حتى تخضبت أذنيها أيضاً جراء ذلك، قبل أن تستدير بسرعة قصوى و تتجه لباب المخرج قبل أن يرد عليها رومان بكلمة أو حتى أن يستوعب ما حدث أمامه، أكمل إيفان و دانيا فطورهما غير مهتمين بأي شيئ مما تبع.

« رومان، بعد أن تكمل الفطور، أريدك أن تحضر إلى مكتبي، أنت تدله أليس كذلك؟، لا يمكن أن تضيعه و هو متواجد أمامك مباشرة بعد صعود السلالم، فلدي كلام مهم أخبرك به، أمراً مستعجل لا يمكننا أن نؤجله إلى ما بعد حين، هل فهمت؟ ».

هز رومان رأسه بغير إهتمام، فهو قد عقد عزمه أن لا يبدي أي إنزعاج أمام عمه لكي لا يتمتع بمشهد مذلته، و هذا هو ما خمن رومان بأن عمه سيحاول فعله من الآن فصاعداً ما دام هو ساكن تحت سقف بيته و خاضع لسلطته، لمح رومان من بعيد من خارج إطار غرفة الجلوس دانيا تخاطب فيلبونا فيما بدى كمساسرة بين شخصين لا يرغبان بأحد أن يلتقط أي مما يقولانه، فأدار وجهه تجاهن محاولاً إلتقاط أية كلمة قد تساعده على تفكيك شفرة موضوع حديثهن، حتى تفاجأ بفيلبونا قد أدارت وجهها تجاهه تنظر إليه بعينان ثاقبتان و معاتبتان على فعله الخبيث هذا، فأرتبك رومان من هذا الإنفضاح السهل الذي وقع فيه، فأرجع وجهه تجاه فطوره ليكمله، فقط ليلاحظ من الجهة الأخرة من الطاولة بإن عمه قد غادرها و تركه جالساً وحده ينهي فطوره.

« هل أنتهيت من فطورك؟ ».

شهق رومان من ظهور فيلبونا المفاجئ على جنبه، قبل أن يستدرك أمره و يبعد الطبق بيديه معلناً عن إنتهاءه، فأخذت فيلبونا تجمع الصحون و تضعهم على العربة المتنقلة، و رومان ما زال جالساً ينظر إليها بعيون متفحصة، فهو لم يلاحظ حتى الآن كم كانت هي شابة جداً، فهو لم تتح له الفرصة ليدقق في تفاصيلها، أو بالأحرى لم يعرها الإهتمام اللازم ليلاحظ أي شيئ عنها لكونه لم يعطيها أية مكانة سوى أن تكون مجرد عاملة منزل متواضعة، لكن في تلك الليلة الواحدة و بشكل غير متوقع رأى قليلاً من شخصيتها المتنوعة التي لا تسع المكانة الضيقة

التي حشرها فيها، فَتحتْ تأثير نور الشمس الداخل من الشبابيك المفتوحة، و الذي غمر المنزل ضوءاً باهراً، بدت فيلبونا أكثر حضوراً، و أكثر لفتاً للإنتباه، و هذا ما جعلها نصب تفكير رومان الذي لم يزيح عينيه عنها و التساؤل عن من تكون تحت هذا الغطاء، فكم عمرها مثلاً؟، « لا يمكن أن تكون أكبر مني بأكثر من ثلاث سنوات »، من أين هي؟، « فلهجتها تبدوا قريبة و مشابهة للهجة أهل الريف الشماليين، فحتى بشرتها الحليبية تفضح أصلها، و شعرها الأسود المشابه لريش الغراب يؤكد كونها من أهالي الشمال البارد »، فما الذي جلبها هنا إذاً؟، إلى هذا المنزل و إلى هذه المدينة على الطرف الشرقي البعيد، « لم يكن هذا السؤال منصفاً، كون الشيئ مثله يمكن أن يقال عني »، فكر رومان في ذلك، و لم يعجبه الجواب، فهو هنا لكونه يمر بظروف خارجة عن النمطية، فقصته ليست مجرد فتي شاب ينتقل مئات الكيلومترات فقط ليقضي بعض الوقت مع عمه، فهناك جذور عميقة لتلك الأسباب، « فلا بد أن يكون المثل هو أيضاً ما حدى بفيلبونا لأن تقطع كل تلك المسافة لتأتي لهذه المدينة و لهذا المنزل بالذات ».

« هل هناك شيئاً ما تريده؟ ».

أنصدم رومان من هذا السؤال، ولم يعلم من أين أتى و لماذا.

« لماذا تقولين هذا؟ ».

أقتربت فيلبونا من طاولة الطعام و في يدها ممسحة كانت تقوم بها بمسح أرضية غرفة الطعام، هذا بعد أن أنتهت من إجلاء الأواني و الصحون إلى المطبخ، و كان على وجهها تعابير الحيرة المشوبة بتلك الملامح التي تحذر من عواقب أية محاولة للتلاعب بها أو إرادة التملص من أسئلتها.

« أنا أسألك هذا السؤال كونك لم تبعد نظرك عني منذ أن شرعت بنقل الصحون من على الطاولة حتى سؤالي لك هذا السؤال، و قد مر وقت طويل ما بين هذا و ذاك إن لم تلاحظ، فأنت كنت تحدق فيّ منذ ما يقارب العشر دقائق، فخمنت بإنك تريد شيئاً مني، و ها أنا أكرر السؤال، هل هناك شيئاً ما تريده مني؟ ».

أنحرج رومان من إستغراقه في هذا التفكير الذي تسبب بعدم إحساسه لأين تحط عينيه، و السبب كما خرص إليه رومان، هو أنه في مكان صامت و جامد أي شيئ يتحرك سيكون جاذباً لمجرى عينيكَ، لكن هذا لا يعني بإن الشيئ نفسه مستحوذ على إنتباهك، مطلقاً، فمثلاً قد يكون كل ما يشغل فِكرك هو أحداث وقعت لك منذ سنين، و بصرك سيكون ما زال مُركزاً على ما يتحرك أمامك فقط، لا على ما ترسمه مخيلتك من رسم للذكريات الماضية، كمثل الحرباء المتخفية التي تلازم مكانها لتتجنب الملاحظة، فهي لا تفعل ذلك إلا لكون محيطها جامداً، فلو كان متحركاً لتحركت هي أيضاً، لم يعرف رومان ما كان هدفه من محاولة التملص من الإعتراف بأن فيلبونا قد شغلت فكره حقاً، و لم يعرف كيف يقنع نفسه بعكس ذلك.

تنهدت فيلبونا نفساً معلنة إحباطها من هذه المحادثة العقيمة، فما أمامها هو شخصٌ يرفض الحديث أو حتى إعطاءها أي من وقته ليفكر في ما قالته حتى، فلا بد من أنه محتار بشأنٍ ما لا يخصها، و ما كانت عيناه تفعلانه سوى متابعة ما يتحرك أمامه، فقط لعبة صغيرة لكي لا تمل عيناه من الجمود، فرجعت فيلبونا إلى شغلها تمسح الأرضية بجهد مضني، حتى قام رومان من على مقعده بعد أن تذكر طلب عمه منه بأن يقابله بعد إكمال الفطور.

(الفصل الخامس)

تصاعدت أدخنة السيجار بتدفق متطاير، حيث كان إيفان يهزهز نفسه على كرسي مكتبه برتم موسيقي، و كأنه يتبع أنغام أغنية يتردد صداها في ذهنه، و كانت أحياناً تصدر منه بعض الإنفلاتات الموسيقية من فمه عنوة، يحدق بعيون ساهمة إلى سقف الغرفة، و قباله جلس رومان و رأسه منزل إلى الأسفل يمحص بعينين يعتليهما حاجبين مقطبين في ورقة قد قبض عليها بين يديه بإحكام، لا يريد أن يفوت منها أي حرف، و كأن الحروف في إمكانها الهروب من حبس زنزانات الأسطر!، تزايد إمتعاض رومان مع كل سطر كان يقرأه، و كانت أسنانه تمسك بشفتيه حيناً و على باطن خده حيناً آخر، أخذ بدن رومان يتحرك و يتمايل بتوتر غاضب، و كأنه قد أدرك ما غاية هذه الورقة، لكنه أصر على إكمالها إلى نهايتها لعل آخر كلماتها تعفيه من كل ما سبقها من جملات طويلة قد حزت في نفسه، رفع رومان رأسه أخيراً بعد أن سيطر على أعصابه و هدئ من إشتياطه، و أخمد نار إنفعاله.

« حسناً، لا بأس، لقد قلت في الأمس و سأقولها الآن، مهما تقول و تطلب سوف أنفذه صابراً متحملاً، و متوخياً الإنفلات في ما أريد قوله حقاً و ما أظنه فعلاً، أتريدني بأن أذهب للعمل كخادم منزل لأحداً من أصدقاءك؟، لا بأس، فهذا ما سيحصل، فما أنا الآن سوى ما تريدني أن أكون عليه و لا غير، أخادماً تريدني؟، فخادماً ستجدني، أمساعداً تفضلني أن أكون عليه؟، فمساعداً ستراني هو ما سأصبح عليه، هه، لكن يجب أن تعلم شيئاً مهم قبل أن تصدر نحوي هذه الإشتراطات، ألا و هو بأني أحب ترجاع الذكريات في كل حينٍ و آخر، سواء أجميلة كانت أم قبيحة، و أحب أن أتعهد على نفسي بتقديم الشكر و إرجاع الإمتنان إلى من ساعدوا في تكوين تلك الذكريات الجميلة في حال إن لاقيتهم مرة أخرى، و بالمقابل أتعهد بفعل العكس لمن شكلوا الذكريات القبيحة، فأخصص حيز في ذهني للتخطيط لما سأفعله كإنتقام

منهم و رد الصاع صاعين، فقط ضع هذا في الحسبان عندما تطلب مني شيئاً ما في المستقبل الآني هذا، فكلها بضع سنوات أو حتى أشهرٌ و سأتحرر من هذه الأصفاد، نعم، فقط بضع سنوات أخرى، . . .، أو أشهر ».

توقف إيفان عن نفث دخان السيجار، و أرجع عيناه من السقف إلى رومان الذي قابله بالنظرات الحاقدة و الباغضة، مما حدا إيفان إلى القهقهة في سخرية لهذه التهديدات، فما في مقدور هذا الفتى الرعن الذي لا يعرف أحداً من أصدقاء أو أقرباء أن يفعل؟، و خصوصاً و هو يملك هذا السجل الإجرامي الحافل الذي يقيده و يمنعه حتى من التصرف بأملاكه و ورثاته، فنفض إيفان رأسه مبعثراً هذا الحوار الجانبي الذي حاول رومان قيادته إليه، مفضلاً التركيز في حديثه على ما طلبه للحضور هنا من الأساس.

« دعنا من هذه الترهات و التهديدات التي لا تجدي نفعاً و لا تغير من شيئ، و يبدوا بإنك لم تركز على ما قرأته للتو، أو ربما أنت ببساطة غير متمكن من القراءة بشكل جيد؟، ربما، عطفاً على مستواك الدراسي السيئ من نتائج و درجات، فالورقة تذكر بإنك ستعمل كراعي و معتني للمزرعة الصغيرة التي تخص السيد غوربوف، و ليس كخادم طبعاً!، فلماذا أحرج نفسي مع صديق عزيز كالسيد غوربوف بتوظيفك أنت من بين كل الناس في منزله، و إتاحه الفرصة لك لتعبث و لتلهوا في أرجاء منزله كما يحلوا لك، فأنت لا تصلح لمثل هذه الإلتزامات الجدية و الحساسة، فتى متهور مثلك، أتمازحني؟، لقد حزت لك بهذه الوظيفة، لكونها سهلة، و لا تتطلب الكثير من الخبرات أو صوابة الدقة، فكل ما عليك فعله هو الإعتناء بأشجار و نباتات المزرعة، و هم ليسوا بالكثيرين كما قد يخطر في بالك، مجرد مساحة ضيقة لا يتجاوز حجمها ثلاث غرف متوسطة الحجم، و الأحرى تسميتها بحديقة على مزرعة، و بالتأكيد لن يتطلب هذا سوى بضع ساعات يومياً من وقتك، فلا أعلم لما كل هذا الغضب و التهديد الذي ألقيته

في وجهي للتو، خصوصاً بعد قد أن حذرتك بالأمس من العواقب التي ستحل عليك من هذه التصرفات المتهورة، فلا تدعني أراك تفعل هذا مجدداً، أتفاهمنا الآن؟ ».

بلع رومان سورة غضبه غير طائقاً الطعم المر الذي خلفته و الذي أفسد شهيته للحياة، فقام من على الكرسي غير مدركاً ما العمل الآن، أو ما الذي كان هو مخططاً لفعله من الأساس لشغل وقته من الآن و صاعداً، فكانت هذه الوظيفة التي رُميت في وجهه بادرة خير ما أن رآها من وجهة نظر مخالفة، فعلى الأقل الآن سيتمكن من الإبتعاد عن هذا المنزل المكدر و لو لبضع ساعات في كل يوم، أستمر رومان في وقوفه و الورقة ما زالت بين يديه بعد أن لففها على شكل أنبوب، ينظر إلى إيفان منتظراً التعليمات التالية، و ما كان من إيفان إلا أن أعطاه ما يريد.

« لا تقلق، فاليوم هو يوماً شاغر لك، و قد يكون هذا آخر يوم يخلى لك من الآن و صاعداً تقضيه في البطالة ما دمت تعيش تحت سقف هذا المنزل، ففي الغد أريدك أن تباشر بالعمل، و أن تشرف سمعة عائلتنا، فلسوء الأسف أشئت أنا أم أبيت فالحقيقة هي إنك تحمل أسم عائلتنا العريقة هذا، و لطالما تمنيت أن لا يورث أبيك أسمنا مطلقاً و أن يقضي أمره وحيداً دون وريث، و يضع حداً لأمر تلطيخ شرف و سمعة عائلتنا مع قضاء نحبه، و لا يجب علي أن أوصيك مجدداً بالإبتعاد عن المشاجرات و التسبب بالمشاكل، و عدم إطلاق حال لسانك الطويل هذا كما تريد، فأطبق فمك بقدر ما تستطيع و ما تتحمل، و الآن بعد هذا يمكنك الذهاب حيث تريد، ضمن حدود المدينة طبعاً، و مرة أخرى أحذرك من إفتعال المشاكل، . . . ، آه، أيضاً قبل أن تذهب، يجب عليك أن تعود إلى المنزل قبل الساعة السابعة مساءاً، أي إبان وقت تناولنا للعشاء، و إن لم أرك جالساً معنا على المائدة فلا تلومن إلا نفسك آن ذاك، و الآن تستطيع الخروج ».

طأطأ رومان رأسه موافقاً بخنوع على كل مشترطات عمه، و حرك رجليه مسرعاً في الخروج، و صدره متصلب و عروق عنقه تكاد تنفتق، و ما أن خرج و أغلق باب المكتب خلفه حتى أطلق نفساً عميقاً من رئتيه كان قد حبسه دون إدراكٍ منه، و أستند على خشبة الباب يرثي حال نفسه و ما أوقع نفسه فيه من مشاكل و ورطات قد جلبت له كل هذا الحظ الردئ.

علت أصوات الصبية و الفتيات أرجاء الشارع، و هم يتراكضون في لعب مهووس، تستطيع وصفه بالنرجسية التي لا تعي ما يحدث حواليها، أو غير مكترثة بما يظن الناس بها و بأفعالها، و إن كان ما تفعله يؤثر في الناس أو إن كان يجلب لهم المتعة أو المتاعب، فهذه الطفولة كما نعرفها، عفوية و غير متزنة، متطلبة و لجة، لا تعرف الحياء و لا الحرج، فكم من طفل مررت بقربه و أخذ يحدق في وجهك بدون أي إهتمام أو تفكير إن كان ذلك يجلب لك شعوراً بعدم الراحة و حساً بالتضايق، و كم من طفل يخبرك بكل صراحة بمواطن ضعفك و ما أنت محرج و متحسس بشأنه بدون حتى أن تسائله عن أي من ذلك، فهم لا يكترثون إن جرحك كلامهم أو إن كرهت سماعه، كل ما يهمهم هو أنفسهم، و ها هم يركضون في وسط الشارع بدون أن يتوقعوا أية محاسبة، و حتى إن كان الشارع خالياً من السيارات، فلا يزال يجب عليهم على الأقل إحترام حق الهدوء الذي قد يرغب به أحد الجيران من قاطني الحي، فلما لا يذهبون إلى مكان نائي حيث لا يزعجون أحد و لا أحد يتذمر بشأنهم، فلا بد إن بإمكانهم تدبير و تخطيط ذلك، لكنهم بالطبع لن يقوموا بذلك، لكونهم لم يفكروا حتى بتلك الإمكانية من الأساس، فسحقاً لكم يا أطفالاً نرجسيين!.

وقف رومان عند سياج منزل عمه يراقب الأحداث التي تجري في الحي، و يجب أن نستمر بتسميته بمنزل عمه كون رومان لا يزال لا يعتبر هذا المكان سوى زنزانة لا يكاد

ينتظر خروجه منها، فكما نحن لا نضيف إسم السجين إلى السجن عندما نُشهِر به، فنحن لا نفعل ذلك أيضاً مع رومان، لاحظ رومان فتى من ثلة الصبيان قد أبتعد عن رفقائه و بدأ بالتوجه نحوه رافعاً يده أعلى حاجبيه متقياً بها أشعة الشمس التي برقت هذا الصباح بتميز، أنزل الفتى يده ما أن وصل لعند رومان و أخذ ينظر إليه بفضول يتفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه، و رومان يقوم بالمثل لكنه لم يحتاج إلى كل ذلك الوقت ليتفحص فتى لا يصل إلا إلى نصف طوله، فبادره بالحديث أولاً.

« ماذا تفعلون هنا يا أطفال؟، ألم يحن وقت المدرسة بعد؟، ستتأخرون عن الحصة الأولى بلا شك، و ستعاقبون بشدة، على الأقل هذا ما كانوا يفعلونه بالمتخلفين عن الدراسة عندما كنت ما زلت طالباً، هه، أنظر إلى الأريحية التي تتمتع بها، فلا بد بأن مدارسكم الباهظة هذه التي ترسلون إليها أنتم يا أطفال العائلات الغنية لا تتجرأ على عقابكم، فكل ما يقومون به هو إطلاق التهديدات الكلامية التي لا تجدي، لو كنت أنا مكانهم لجلدت كل طالب متخلف أو سيئ في خلقه خمسين جلدة بحزام بنطالي، نعم، هذا هو الأسلوب المجدي و النافع الذي يجلب النتيجة المضمونة، و ليس هذا الهراء الذي يطبقونه بمخاطبتكم أنتم الأطفال كالكبار، فأين المنطق في هذا الفعل؟، هلا أخبرتني؟، ما بك يا هذا؟، لماذا تستمر بالنظر إلي بهذه الطريقة بدون أن تتفوه بكلمة واحدة؟، هل أكل القط لسانك؟، لا أظن ذلك، فأنتم بأموالكم الطائلة لديكم ما يكفي لإطعام القط لكي لا يلجئ لأكل لحم مقتنيه ».

أستمر الفتى في سكوته، و لم يبدي أدنى بادرة إلا بالإستمرار في فعل ذلك، حيث إنه قد ظهر غير متأثراً مطلقاً لما قاله رومان، فأشتاط رومان جراء ذلك الفعل الذي أعتبره بمثابة إهانة له، و عدم إظهار التبجيل الذي يستحقه من مجرد طفل إلى شخص أكبر منه، و

خصوصاً رومان الذي رأى نفسه كشخص يمثل فيه طلب الإحترام و التوقير، فوضع رومان يده على كتف الفتى و أخذ يخضه و كأنه يريد إيقاظه من سباته هذا، و هو يصرخ في وجهه.

« أنطق يا هذا، ما بك؟، أتراني بمثابة مزحة أو لعبة هينة لتحدجني بهذه النظرة المحتقرة؟، سأقول لك من الآن إن لم ترد علي فلا تلومن إلا نفسك، و لا تحسب بأني سأمنع يدي عنك، فأنا لست والدك أو أحد أولائك المدرسين الفاشلين و الرعين اللذين لا يتجرئون حتى على رفع أبصارهم لمستواكم، سأمهلك خمس ثواني، و إن لم تنطق ستتطاول يدي إلى ما هو أكثر من مجرد ملامسة كتفك ».

حدق رومان في عيني الفتى بنظرات تتطاير منها الشرار، و ما كان من الفتى سوى أن يرجع مثل النظرات و هو لا زال يمتنع عن النطق بأية كلمة، و لا يحاول حتى الحركة أو زحزحة يد رومان من على كتفه التي لا بد و إنها كانت تعصره بقوة، بدأ رومان بالعد التنازلي بصوت خفيض لا يسمعه سواه هو و الفتى وحديهما، هذا كما ظن، وصل للواحد، و بدأت يده في الإرتفاع للأعلى متأهبة لتنفيذ العقاب الذي وعد به، حتى سمع من على بعد عدة أمتار صوت فتاة تنادي بأعلى صوتها و هي تركض بكل ما تقدر عليه رجلاها القصيرتان أن تبذلاه تجاه رومان و الفتى، حتى وصلت أخيراً عندهما و هي تلهث و تأخذ أنفاسها بصعوبة و هي تأشر تجاه الفتى مريدة إظهار بأن هنالك شيئاً ما تريد إضاحه عنه لكنها تطلب مزيداً من الوقت حتى تسترجع صوتها الذي ذهب جراء الرياح التي صفعت في فمها و جففته.

« سامحه يا عم، و لا تأخذ أي مما قد يفعل بأنه صادر من إرادته لأي سوء، فإن كان قد تجاهلك أو لم يرد على ما تقول، فهو معذور في كل ذلك، فهو أصم و أبكم، فمهما قلت له فهو

لن يسمع أية كلمة مما تقول، فسامحه، أحسناً؟، و الآن لو عذرتنا فيجب علينا الرحيل حالاً قبل أن نتأخر أكثر مما نحن عليه الآن عن اللحاق بالحصص ».

أحنت الفتاة رأسها مظهرة أخلاقها الحسنة بتقديم الإعتذار لسوء التفاهم هذا على الرغم من عدم وجود الداعي لذلك، بينما رفع رومان رأسه في صلف و وضع يديه في جيبي بنطاله و هو يجيل بعينيه إلى كُلاً من الفتى و الفتاة، ينظر إليهما في إحتقار و تعجرف و كأنه يرغب بمزيد من الإعتذار جراء إضاعة وقته في الحديث مع معاق لا يسمع و لا يتكلم، فصفق رجليه إلى الخلف عائداً إلى داخل منزل عمه بخطوات متبخترة قد تثير الحنق لأي شخص قد يشهدها، بينما ظل الطفلين مكانهما ينظران بعيون وجلة لهذا الرجل الغريب الذي قد أنتقل للعيش معهم في حيهم الهادئ هذا، حتى أمسكت الفتاة بيد الفتى و عاضدت مرفقيهما و همّا بالركض إلى آخر الشارع قبل أن ينعطفا لليسار و يختفيا عن الأنظار.

كانت دانيا مباشرة أمام رومان عند دخوله المنزل و هو لم ينتهي بعد من تذمره من ما حدث للتو من إلتباس و سوء فهم، و كادا أن يتصادما في وجه بعضهما البعض، و شهقت دانيا لمرأى رومان أمامها مباشرة حيث كانت هي الأخرى مشغولة في البحث في محتويات حقيبتها التي تأبطتها تحت ذراعها، و حيث كانت هي في طريقها إلى الخروج، تنازل رومان عن الطريق فاسحاً المجال لها للمرور، لكنها وقفت تحدق فيه و كأنها تطبخ فكرةً ما في ذهنها عن شيئاً ما قد تجلى لها جراء مصادفتها هذه لرومان، و أرتعش بدن رومان من رؤية زوجة عمه تلقي عليه هذه النظرات المؤامراتية، و تأكد ظنه بمقصد هذه النظرات حين فتحت فمها بإبتسامتها المصطنعة هذه التي لا تبارح شفتيها.

« آه، رومان، يا لها من مصادفة جميلة، لقد ظننتك قد رحلت منذ فترة، و بأنك لن تعود إلا عند المساء، حيث أن هذه المدينة لا بد لها و أن تجذبك لتقصيها و الكشف عن ما تحويه من أماكن شيقة لا تنتهي، لكنك هئذا تعود أدراجك بهذه السرعة و كأنك لا ترغب بترك هذا المنزل، و أنا أقول حسناً فعلت!، فما الهدف من المشي في أرجاء و شوارع هذه المدينة الشاسعة دون رفقة صاحب أو رفيق لتشاركه بمنظرها، ألا تظن كذلك أيضاً؟، و ما الهدف من ذهابك إلى أعماق المدينة البعيدة التي لا تشعرك بالإستقرار حيث كل ما تلاقيه هناك هو غريب و لحظي، أشخاص لن تراهم مرة أخرى في حياتك، فالفعل الأفضل هو أن تزور أماكن تكون أنت معتاداً عليها، و تعاود أشخاصاً يرحبون بك و يترقبونك، و لذلك تراني ها أنا الآن قاصدة في الخروج لزيارة بعض من صاحباتي الاتي لأخبرك الحقيقة قد تأخرت عليهن، لكوني كنت أجهز لهن بعضاً من الأطباق، . . . ، لا أدري لماذا كل هذا الكذب الذي قلته للتو، فالحقيقة هي أن فيلبونا قد جهزت هذه الأطباق عصر أمس، و كان من المفترض أن ترافقني الآن لتحمل الأطباق و تساعدني في إيصالها إلى منزل صاحبتي، لكنها قد خرجت منذ نصف ساعة لشراء بعض حاجيات الغداء و لم تعد بعدها، فها أنت تراني أقف هنا محتارة في ما يجب علي أن أفعل، أأنتظرها لترجع و أجعل نفسي أضحوكة أمام صاحباتي و محط سخريتهن لتأخري جراء ذلك، أم هل أحمل كل هذه الأطباق الكثيرة و الثقيلة لوحدي؟، و لا أظن إن بمقدوري إختيار أي من هذين الخيارين، فكلاهما سيئ و لا أحبذه بتاتاً، ألا تظن كذلك أيضاً؟ ».

كاتف رومان ذراعيه و حاول أن يرمي كل ما قالته و حاولت التلميح إليه خلف ظهره و الإنسحاب من أمام عينيها بخفة و سرعة، لكنها أستدركته قبل أن يهرب و وضعته تحت الأمر الواقع.

« حسناً يا رومان، أنت ستساعدني أليس كذلك؟، لن تدع زوجة عمك محتارة هكذا لا تعرف ما تفعل، أليس كذلك؟، نعم!، بالطبع لن تفعل ذلك، و لا أعلم لماذا أنا أصررت على فسح المجال لهذه الإحتمالية البغيضة و المهينة إليك و لشهامتك من الأساس؟، فحسناً يا رومان، الأطباق في المطبخ، سنتقاسم حملها أنا و إياك، ليس بالنصف طبعاً!، فأين أنا من عضلاتك المفتولة هذه التي أراها تكاد تشق قميصك، أما أنا فذراعاي ضعيفتان كعصيتان يابستان، هذا ما يقوله لي إيفان على الدوام، و لكن من هو ليقول هذا بالأساس، فذراعيه كجذوع الشجر، ثقيلتان من سمانتهم و بطيئتان في حركتهم، لكن ذراعيك مناسبتان تماماً لمساعدتي، فهلم بنا إلى المطبخ ».

تبع رومان دانيا و هو عاوجاً رقبته جانباً ينظر من وراء صناديق الطعام التي راكمها على ذراعيه، يتبع خطواتها البطيئة و المتقطعة، فهي مع كل بضع خطوات تخطيها تقف لتفكر و تخاطب نفسها لتؤكد بإنها لم تنسى شيئاً ما في المنزل، حتى تعاود مسيرها مرة أخرى غير حاملة بين يديها سوى صندوقين صغيرين لا يزنان الكثير، خمن رومان بأنهما يحتويان على حلويات خفيفة، وصلا أخيراً عند منزل ضخم في الحي الآخر عند الإنعطافة الثانية من حيهم، فحتى بالمقارنة مع المنازل الضخمة و الفاحشة الأخرى كان هذا المنزل يتفوق عليهم و يبرز من بينهم، دقت دانيا جرس المنزل النحاسي ليصدح صوت صليله في أرجاء المنزل من الداخل، و ما هي ثواني حتى فتحت عاملة للمنزل الباب، و ما أن رأت دانيا حتى أبتعدت عن الطريق سامحة لها بالدخول و هي تحدج رومان الذي تبعها بالدخول أيضاً بنظرات متفحصة، أمرت دانيا رومان بإتباع العاملة إلى المطبخ و وضع الصناديق على الطاولات لكي تقوم عاملات المطبخ بفتحهم و ترتيبهم على الأواني لتقديمهم لبقية الضيوف لاحقاً، بينما توجهت هي بصندوقي الحلوى الخفيفين إلى أغوار المنزل الذي بدا أشبه بالمتاهة من تعدد غرفاته و تشعباته،

أشارت العاملة السمينة إلى رومان بأن يتبعها إلى المطبخ، و ما أن وصلا حتى وضع الصناديق و العلب على أرضية المطبخ قبل أن يوزعها و يرقيها أعلى الطاولات المتعددة، و أخذن العاملات يشرعن في فتح الصناديق بمهارة تعبر عن إعتيادهن لهذا الأمر النمطي و أنشغلن عن رومان الذي بدأ في الإنسحاب عنهن مريداً الخروج من هذا المنزل الذي يقشعر البدن من بهاظته التي تصفعك على وجهك فقط من رؤية واجهته الخارجية، و لم يكن كل هذا الإشمئزاز يمنع رومان من أن يجيل بعينيه في أرجاء المنزل و هو في طريقه لباب المدخل، و خصوصاً اللوحات المعلقة على الجدران حيث كان هذا كل ما جذب إنتباهه، ينظر يميناً إلى لوحة ما، و من ثم مباشرة يدير رأسه يساراً لرؤية أخرى، غير محتسباً للطريق أمامه، حتى شعر بإرتطام على صدره، و سقوط الشيئ الذي أرتطم به تحت رجليه، و سمع فتاة تتأوه جراء ما قد حدث، فنظر إلى مصدر الصوت، و لم يمديه رؤيتها ساقطة على الأرض لكونها قد همت لتنهض مباشرة بعد ذلك و كأنها لا تريد تضييع ثانية واحدة لتأنيب المجرم الذي تسبب بهذا الحادث.

« ما بك يا هذا؟، ألا تنظر إلى أين تمشي؟، لقد آلمتني و أوجعت ذراعي و ظهري و حتى . . . ، لا علينا من كل هذا، أعتذر حالاً و أمض في حال سبيلك، هيا بنا ».

رجعت نظرة رومان المعتادة إلى وجهه، حيث الغضب و التحذلق هما سماته، و أشار مد أصبعه تجاه الفتاة حتى كاد أن يلكز جبينها، و هو يلعلع بصوت حانق.

« ما هذه النبرة في صوتك القبيح هذا؟، لا تخاطبيني بهذه الكلمات المؤتمرة، أفهمت؟، من تظنينني يا هذه؟، و لا يوجد أي إعتذار لأقدمه لك هنا، فكان من الأوجب عليك أن تنظري إلى أين أنت ماضية من الأساس، و ليس محاسبتي على إهمالك هذا، فالرب يشهد بإنني كنت مركزاً عيني بكل جهديهما على الطريق أمامي حتى كادتا أن تطفرا من محجريهما، و لم أزيحهما

أبداً!، مطلقاً!، أقسم لك على شرف والدي، فلذلك أنا الذي يستحق إعتذاراً منك، و أنا أطلبه حالاً قبل أن تظهر الكدمات على صدري الذي أوجعتيه، آه يا صدري!، لقد كدت تكسرين عظامي ».

أشتاطت الفتاة التي بدت في أوائل العشرينات من عمرها غضباً، و أحمرت وجنتيها من تدفق الدم الذي لم يجد له منفذ غير التوجه إلى قمة رأسها، فما تظنه هي في هذه اللحظة هو إن عاملاً أو خادماً من خدمهم و عمالهم الكثيرين الدائمي التبدل كان من يخاطبها بهذه اللهجة الوقحة و المتعجرفة، فعرفت لا محال إنه مهما كان عمل هذا العامل أو خدمة هذا الخادم مهمة في أرجاء هذا المنزل فهو سيُطرد و يعاقب بشدة، و لا مجال لتغيير أي من هذا ما أن قررته في دواخلها، و لكنها مع كل هذا لم تجد أية كلمة لترد بها عليه، لكونها بالفعل لم تكن تنظر أمامها، حيث كانت هي قد أنشغلت بتفقد ثيابها و هندامها و برؤية إن كان هناك أي خلل به أو إن كان متكرفساً في ناحية ما، فهي لا تريد أن تظهر إلا بأبهى حلتها أمام صاحبات والدتها التي كانت في طريقها للتحية عليهن بإيجاز من داعي الكياسة و اللياقة قبل أن تغادرهن، فوقف كُلاً من الفتاة و رومان صامتان كأفعتان متعاركتان لا ترغب الأولى بتأجيج الأخرى، حتى صدح صوت العاملة السمينة قادمةً من خلف رومان.

« ماذا فعلت بآنستي يا وقح؟، كيف تتجرأ على إتهامها و بكل هذه الأريحية المتعجرفة؟، و حتى و أن كنت مرافقاً للسيدة غيرسكفيسكي، فهذا لا يعني بأنك معفي من إظهار مثل الإحترام الذي تبديه لأسيادك أيضاً لأسياد هذا المنزل، و بالتالي لماذا أنت لا تزال متواجداً هنا؟، لماذا لم ترحل بعد؟، فسيدتك ستمضي هذه الصبحية هنا حتى زوال الشمس، فتواجدك هنا حالياً غير مرغوب فيه، فعد لمنزل السيد غيرسكفيسكي و أغسل الفناء أو أكنس أرضيتهم أو ما شابه من متطلبات وظيفتك، هيا أغرب عن وجهنا ».

هزت الفتاة رأسها بحسم موافقة على كل كلمة قد نطقت بها العاملة، و كأنها معتادة على مناصرتها لها و الكلام بدلاً عنها على الدوام، لكن رومان كان بالمثل غاضباً و وجه إصبعه المؤشر إلى وجه العاملة هذه المرة، إلى ما بين عينيها حتى أخذتا بالحول في محاولتها لمراقبة ذلك الأصبع المنتهك لخصوصية الحيز المريح للفرد.

« ما هذا الكلام؟، أعود لتنظيف الفناء؟، هذا من أعمالكم أنتم الخدم، و ليس شيئاً يجب على سيد منزل مثلي الإهتمام به، نعم!، لقد سمعتموني أنطق بتلك الكلمة، سيد المنزل، فالشخص الذي ترونه يقف أمامكن ما هو إلا إبن أخ السيد غيرسكفيسكي، صاحب الورثات الضخمة التي لا تعد أولها و لا تجد لها نهاية، و لا يتجرأ أي أحد على الحديث معي بأية لهجة أراها غير مناسبة، حتى عمي لا يستطيع أن يرفع رأسه لمواجهتي أو بأن ينطق بكلمة واحدة دون أن يطلب إذني أولاً، فكيف تتجرأين أنتِ على الحديث معي هكذا؟، مجرد عاملة وضيعة، ستفصلين من عملك!، صدقيني عندما أقول هذا، فقط أصبري حتى أدبر أموري و سترين نتيحة تهورك هذا، نعم، فقط أصبرن، كليكن ».

أخذت كُلاً من الفتاة و العاملة تنظران إحداهن للأخرى، حتى بدأت الفتاة بالضحك العالي الذي يصم الآذان، و تبعتها العاملة ما أن تأكدت بسلامة الموقف و السماح لها بالإنضمام لهذه السخرية لكن فقط بالقهقهات المكبوتة، زاد حنق رومان و أخذ يطالب بإخباره بما هو المضحك في رأيهن في الذي قاله للتو، حتى تدفقت بضع كلمات من فم الفتاة التي لم تنتهي بعد من إطلاق دفعات متقطعة من الضحكات.

« أنت ذلك الفتى الذي أخبرتنا عنه عمتي دانيا الأسبوع الماضي أثناء التجمع الأسبوعي، لقد أخبرتنا عن رغبة عمك بالوصال و تضميم حسن القرابة بحق أخيه المتوفي، و ذلك بالشفقة على

إبنه اليتيم البائس، و الذي لا يملك حتى درهماً واحد في جيبه، فها هو أنت ذا، لا أصدق هذا!، هل ظننت حقاً إن بإمكانك خداعي بهذه الكلمات الخاوية التي قلتها للتو، نخمن مرة أخرى لو شئت، فتفطني لا حدود له، و ها نحن قد أنتهينا من هذه الشائكة، و أنفضح أمرك، فالآن أنت حر في الغروب عن وجهي، و أتعلم؟، بعد رؤية هذا المظهر المثير للشفقة و المخزي فأنا لا أريد حتى أي إعتذار منك، فهذا لا يشرفني، و لن يكون لأية كلمة تقولها أي مقدار أو إعتبار أصلاً، فوداعاً يا 'سيد المنزل و الثروات' ».

أستمرت ضحكاتها تدوي أرجاء الممر أثناء إبتعادها عن رومان مكملة مسيرها لحيث أرادت الذهاب أساساً، تاركة العاملة معه لتتأكد من رحيله بأسرع وجه ممكن، وقف رومان لبضع ثوان يحدق في الأرضية من شدة الحرج، ثم رفع رأسه تجاه العاملة السمينة التي كانت تحدجه بعينين مشمئزتين من محاولته البائسة هذه للرفع من شأوه و مكانته، فلم يستطع رومان تحمل المزيد من هذه النظرات، فهم خارجاً تكاد رجليه تطيران من سرعة حركتيهما، و جعلهما تحملانه إلى أي مكان إلا التسكع هنا في أرجاء هذا الحي اللئيم و الغث، فأخذ يمشي و يمشي، يتخطى الأحياء الغنية واحدةً تلو الأخرى، حتى وصل أخيراً إلى ما خمن بأن يكون مركز الأسواق التجارية الأساسية لهذه المدينة، حيث تجد كل ما تشتهيه نفسك، من المطاعم التي تقدم كافة أطباق الطعام، إلى متاجر الملابس التي تروج آخر صيحات الموسم، حتى إلى الحاجيات الجانبية كمثل صنارات صيد السمك و بندقيات القنص و المكتبات و زلاجات الثليج، لكن كل هذه المناظر التي تملئ العين لا تجذب الإهتمام و تشده إلا للمفلس الذي يدرك بإنه قد أتى هنا خالي الوفاض و سيغادره بمثل الحال، فتكون كل الأشياء المعروضة متساوية في تلك الحال في نظره، على عكس الثري الذي لا يأتي هنا و إلا في ذهنه غرضاً ما يكون سبب مجيئه الوحيد فيهمل بذلك كل المتاجر الأخرى، فأخذ رومان يبطئ رجليه في

الحركة ليعطي عينيه المجال لإمتاعها بكل هذه المتاجر اللامعة و البراقة، و الناس يمرون من حوله لابسين أبهى الملابس و أثمن المجوهرات، كُلاً منشغل في حال أمره أو بمن يصاحبه، فهاهن نساء مع أزواجهن متأبطات أذرعهم و يحادثونهم بكل غنج طالبين ما يشتهونه من أكل من مطعم ما أو حلية من متجر ما بغض النظر عن ما يكلفه هذا أو ذاك، و آخرون يمشون وحيدين شامخين رؤوسهم لا يحيدونه يميناً و لا يساراً لكونهم عارفين لوجهتهم و غير مكترثين لأية وجهة أخرى، وقف رومان عند أحد متاجر الحلويات، و المختلف في هذا المتجر هو حجمه الكبير الذي يدهشك و يجعلك تتسائل إن كان بالإمكان حقاً ملئ مساحة بهذه الوساعة بمنتجات الحلوى فقط، فأثار ذلك فضول رومان الذي فتح الباب و هم بدخوله حيث رحب به عاملٍ مُوظف للقيام بهذا الترحاب و لا غير، و باشر رومان بالدوران على محور قدميه يجيل بصره بكل الإتجاهات التي يمكن أن يتوجه إليها، حتى قرر على الذهاب إلى حيث اللوحة المنصبة مباشرة عند المدخل قد دلته إلى قسم الكعك، و مع إقترابه لاحظ تواجد بعض الزبونات الاتي كن واقفات و معطينه ظهورهن يتذوقن بعض قطع الكعك الموضوعة خصيصاً للتذوق، فأقترب رومان منهن من الخلف ليقوم بالمثل، و ألتقطت يده قطعة حلوى بنكهة الجزر و رماها في فمه و أخذ يردد عبارات الإعجاب بهذه النكهة بصوت مسموع، حتى سمع شهقة صادرة من على يمينه من إحدى الزبونات، فألتفت رومان بكل عفوية و بغير إكتراث ليرى بإيجاز من قد أصدر ردة الفعل هذه، و إذا بروتفا التي لم يتعرف عليها لكونه رجع ليلتهم الكعك بنفس السرعة التي أستدار فيها تحدق فيه بصدمة و بفم فاغر و بحواجب شاهقة فوق محجري عينيها.

(الفصل السادس)

كانت رائحة القرفة و الشوكولاتة تملئ أنوف الزوار، تسحرهم للتقرب من زجاج العرض حيث أنتصبت قطع الحلوى و الكعك بشكل مغري، تخاطبهم بكلمات تذوب في الفم، و تنظر إليهم بعيون شديدة الحلاوة، فيفغون أفواههم طالبين شراء منها ما يستطيعون حمله بين أيديهم، حيث السعر لا يهم هنا في هذا المتجر الباذخ الذي لا يتناوب على مدخله إلا المدركين لقدرتهم على التكفل بما يطلبه البائع من أسعار عالية، فلِما قد يأتي هنا شخص معوز و عديم المال و يرهق نفسه بعذاب التفرج المريق للعاب و هو يدرك عدم قدرته على الحوز على ما يريد من سلع معروضة، هذا ما ساءلت روتفا نفسها حين وقفت تحدج رومان بعيون مستفهمة و غير مستوعبة لتواجده هنا من بين كل الأماكن، و إن كانت لا تحب أن تحكم على الناس من مظهرهم فقط و أن تصنفهم في مراتب طبقية بناءً على ذلك، إلا أن الأمر واضح في حالة رومان بأنه بسيط الحال، وليس هذا فقط، فإن مكان كهذا لا يستجلب زوار من الرجال عادة، على الأقل لا تراهم يتفسحون لوحدهم، فلو تدير رأسك في أي إتجاه فسترى بأنه لا يعم المكان هنا سوى النساء و الشابات الاتي يتراودن مع صاحباتهن ليتناقشن و يختارن ما يريدَنَ من طعمٍ حلو ليسد فجوة الحيف و الجفاء العاطفي اللاتي هن عادة يرون أنفسهن محرومات منه، و رومان لا يصنف في أي من هذه الخانات بالطبع، فلا هو إمرأة و لا هو رجل مرافق لزوجته أو لخليلته، فأستجمعت روتفا نفسها و تذكرت الوعد الذي قطعته مع رومان قبل نزولها من القطار بالأمس، فأستدارت للجهة التي كانت مقابلة أياها مسبقاً فقط لتُلاقى بعيون صاحبتها المتسائلة عن حالة التبعثر هذه التي لقت بها روتفا عليها، فساءلتها.

« ما بك يا روتفا؟، تبدين و كأنك مشتتة و مبعثرة الفكر، هل هناك خطباً ما في الحلوى التي تذوقتيها، فإن كان الأمر كذلك فيجب أن تنطقي و تقولي لي ما هو الأمر، و أنا سأخاطب

مدير المحل و أقرع رأسه لهذا الإهمال و التقاعس في إعدادهم للحلوى، فنحن ندفع أثماناً باهظة زهاء ما نشتري، و لا يمكن أن نسمح لهذا التخاذل في تقديمهم الخدمات للزبائن، و خصوصاً الزبائن المعتادين كأمثالنا نحن ».

أمتعضت روتفا من هذا التحري الفضولي و الطويل، فأية شكوى و أية خدمة للزبائن تتكلم عنها هذه، فيا ريت الأمر كان كذلك و بهذه السهولة!، هذا ما طرئ على ذهن روتفا في تلك اللحظة و لكنها قررت الإبتعاد قدر المستطاع عن جلب الإنتباه لنفسها.

« لا شيئ يا جورين، فقط طعم الكعكة هذه التي تذوقتها كانت من النوعية التي تكون شديدة الحلاوة لدرجة تجلب الغثيان، فلا أنصحك بأن تتذوقيها إلا إذا أردت الذهاب إلى المستشفى لحالة إغماء، عطفاً على كونك شديدة التأثر و الحساسية لأي شيئ مفرط في المذاق، و الآن هيا بنا نذهب من هنا فلقد أخذنا كفايتنا من هذه الحلوى، هيا أسرعي يا جورين ».

بدأت روتفا محاولة إقناع صاحبتها للخروج من المتجر بأسرع ما يمكن لتتجنب رومان و هو الذي في هذا الوقت بدأ يعلوا صوته في مشاجرة مع أحد الموظفين الذي كان قد رآه يحدجه من بعيد بينما كان هو ينهم في الحلوى بدون أي أثر للتوقف أو أية بادرة لشراء أي منها، فكان رومان متهكماً لهذه المعاملة التي رآها مسيئة بحقه لكونه زبون محتمل لهذا المتجر، فأخذ يناوش الموظف مطالباً إياه بتقديم الإعتذار عن تلك النظرات التي على حد وصفه قد كادت تجعله يتقيئ الحلوى التي قد جرب تذوقها، و الموظف من الجانب الآخر من المنضدة كان يحاول تخفيف وتيرة الموقف بكلمات تطالب بتهدئة الحال و ضبط الأنفس، و لكن ما جلب إنتباه رومان هو محاولة الموظف التهرب عن تقديم الإعتذار مما زاد من حرارة الموقف و أجج غضب رومان الذي شعر بصفعة الإهانة المسددة إليه تتصاعد في حرارتها و خمن إن

سبب هذا الرفض بتقديم الإعتذار له هو فقط لكونه بسيط المظهر و الهندام، و لم يحتفظ رومان بهذه الخاطرة لنفسه في دواخل ذهنه، فهو لم يتباطئ في الإعلان عن ذلك و بصوت ملعلع يسمعه جميع من في المتجر.

« أهذا هو السبب؟، هل تنظر إلي بهذه النظرات لكوني ألبس هذا المعطف البالي، و هذا البنطال الكالح؟، هل يعطيك هذا الحق و الصلاحية في التعدي على حقوقي كزبون، أهناك بند في عقد وظيفتك هذه يخبرك بأن تعامل زواركم على حسب ملابسهم أم أن هذا مجرد تخصيص قد تفضلت أنت به بنفسك بدون أن تحتكم لموظفيك؟، أتعلم ماذا؟، أنا لا أريد أي إعتذار منك، ليس بعد هذه المماطلة منك و التعنت الشرس الذي أبديته، و خمن من الخاسر هنا؟، أنتم!، فأنا قد كنت محتاراً في إختيار المتجر الذي يمكنني أن أشتري منه كمية كبيرة من الحلويات و الأطعمة و التي أريد شراءها لتلبية حاجات الحفلات الضخمة التي أقيمها بإنتظام، حيث أني كنت أبحث عن مورداً دائم لأكون زبوناً وفياً و متواتراً إليه على المدى البعيد، لكن بعد هذه المعاملة المهينة التي عوملت بها لقد قررت التوجه إلى المتجر المنافس لكم، ذاك الذي يقع في الطرف الآخر من السوق، لا بد و أنك تعرفه لكون شهرته و صيته أوسع نطاقاً من متجركم هذا، فوداعاً يا هذا، و أتمنى لصاحب المتحر أن يعلم بما قد فعلت و يكافئك 'بتوصية' تناسب مقدار جهدك في تقديمك الراحة للزبائن، إلى الا لقاء! ».

ردحت قدمي رومان بخطوات سريعة متوجهاً نحو المخرج حتى أصطدم عند باب الخروج بروتفا التي كانت تحاول هي الأخرى أن تسبل طريقاً للخروج من هذا الموقف الغير محبب، و تفاجأ رومان بتواجدها أمامه، فأتسعت عيناه على محجريهما في صدمة من تجلي أمر سماعها لهذه المهزلة التي قد أستعرضها للتو، فما كان منه سوى أن يدفعها جانباً بيده متيحاً المجال

لنفسه للهروب من الباب أولاً، تاركاً إياها خلفه في المتجر حيث أنغلق باب المتجر عليها ليحجب تعابير وجهها المتعجبة و المتبعثرة وراءه».

لا يعلم المرء أحياناً ما الذي يجعله يتصرف بطريقة ما، فنحن نواجه مشكلة في أحد الأيام و نتصرف أزاءها بطريقة غير ملائمة تجعلنا نندم على ذلك التصرف، فنقرر في دواخلنا بإننا لن نعاود ذلك التصرف مرة أخرى في حال إن صادفتنا تلك المشكلة و عاودتنا، و نشجع أنفسنا و نتحفز لسناح الفرصة مرة أخرى لنصحح أخطائنا، و نكون من شدة الترقب بأن ينتهي الأمر بالبعض منا بإفتعال المشكلة بإصطناع فقط للتخلص من ثقل الموضوع الرازح على ذهنه، و لكن القول و التخطيط شيئ و العمل و التصرف شيئاً آخر تماماً، فالواقع ليس محاكاة بتاتاً إذا ظننت يوماً بإنه كذلك، و لا يمكن إبطاءه أو تغيير مجراه حيثما شئنا، فلا تكاد تظهر المشكلة مرة أخرى حتى نرى أنفسنا نعاود التقيد بنمطية تصرفاتنا و التصرف مع الموقف كما عهدنا، و يتضح الأمر عندئذ بشكل بائن و مخيب بأن ما نظنه مجرد تصرف بدئي غرّ في طريقه للتقوم و الصلاح هو في الحقيقة طبيعتنا العفوية و الحقة في مواجهتنا و تصرفنا أزاء مشكلة ما، فالرجل الذي يعنف زوجته كلما حاورته في موضوع لا يطيقه و من ثم يشعر بالندم على ذلك التصرف الذي لا يقبله كخصلة بنيوية من شخصيته و يحاول أن يقنع نفسه بأنه قادر على التخلص من هذا التصرف الذي لا يليق به، لكن ما أن تعود زوجته للحديث مرة أخرى في أحد المواضيع التي لا يحبها حتى يعود فجأة و بدون تفكير إلى ما أعتاد من تعنيف و شتم و سب، فهذا التصرف بكل بساطة هو طريقته الحقيقية و الثابتة لمواجهة تلك المشكلة، و لا تغيير لذلك، فهذه الخصلة التي نراها نيئة و سيئة المذاق هي في الحقيقة في أكمل نضجها و تمامها.

راقب رومان حركة قدميه اللتان كانتا أشبه بترسان لماكينة لا يكلان فيها عن الدوران بثبات منتظم، فرجليه مدركتان لوظيفتهما و لا يهمهما ما تقوم به أعضاء الجسم الأخرى، فيدا رومان مخبئتين بخمول في جيبي معطفه و كأنهما راقدتان، و رأسه منحني مواجه للأرض التي يمشي عليها، و ذهنه يفكر بتركيز على ما قد حدث للتو، فإلى متى سيظل ينفعل بهذه الشدة لكل حركة تحدث أمامه، فهل كان من الضروري توبيخ ذلك الموظف بهذه الشدة، و ليس هذا فقط و بل بطريقة كاذبة، فلما كل تلك الأكاذيب؟، ألم يكن ظن الموظف صحيحاً؟، فنظراته المشمئزة تجاهه ما كانت سوى لإدراكه من نتاج خبرته في هذه الوظيفة بأن من يقف أمامه هو شخص معوز لا يقدر على تكلفة هذه الحلويات الباهظة الثمن، و بأنه لا يلتهم هذه الحلويات المعروضة للتذوق و حسب كما يفعل جميع الزبائن الآخرين و إنما للتمتع بها كاملاً، فإذاً أليس الحق معه؟، أفلا يجب عليه الآن الرجوع و الإعتذار؟.

« كلا!، و ألف كلا، ما تأنيب الضمير هذا إلا بسبب تلك الفتاة و نظراتها التي تبدوا دائماً في تعجب و إستنكار لكل ما أقوم به أو أفعله، و من هي لكي تحدجني هي الأخرى بتلك النظرات، و بالحقيقة نظراتها هي أسوأ من نظرات ذلك الموظف، فعلى الأقل هو لديه سبب وجيه و إلتزام مسبق ليراقب الزبائن و يتصرف على حسب ما يظن بما هو هدفهم من هذه الزيارة، لكن ما دخلها هي؟، من جعلها المراقب و الحاكم على ما هو مقبول لفعله و على ما هو مذموم؟، و أليست هي من تلك الشابات الثريات الاتي لا يملكن خبرة في الحياة و متطلباتها، فما تبنيه هي من وجهات نظر لا يتناسب و لا يتلائم مع الواقع الحقيقي الذي أعيش فيه أنا، نعم!، فلماذا يجب علي أن أتحمل و أصبر تحت نظرات قذرة من موظف حقير إذاً؟، فالواقع يقول بأنني زبون ككل الزبائن، مثلها هي كزبونة لا فرق بيننا، فإذاً لماذا يسمح له بإهانتي بينما لو فعل هو ذلك معها لقُطِعت رقبته على الفور، لماذا هذه التفرقة؟، السبب

الوحيد الذي أراه مناسباً و وافياً بحق هذا السؤال هو التمييز بين من يلبسون ملابسٍ حسنة مثل تلك الفتاة المترفعة، و بيني أنا من لا يهتمون بلباسهم سوى لكونهم لا يعترفون بجواز الحكم على ما يرونه من الخارج فقط، نعم!، أنا من تلك الثلة القليلة من الناس اللذين لا يزالون محتفظين بالأخلاق الحسنة و الطاهرة، فسحقاً لهم و لمتجرهم الباهظ هذا، و سحقاً لتلك الفتاة بملابسها الباذخة، فلا يلبس أحد مثل تلك الملابس إلا أن يكون من الصلفين و المتعنتين، و هذا ما يجعلني متأكداً من كونها هي أيضاً منذ الأمس قد حكمت علي بالتشرذم، و لذلك نطقت بتلك الكلمات القاسية عن عدم رغبتها بملاقاتي مرة أخرى، و إلا ما قد يكون السبب غير ذلك؟ ».

أغرورقت السماء بلون الغروب اللازوردي، و أختفى قرص الشمس المحمرة خلف الأفق غائصاً ببطئ كسفينة غارقة إلى ما بعد الإنحناءة الأرضية، و هبت بعض الرياح و طايرت من أوراق الشجر و بعثرتهم في أرجاء المدينة، و كأنها ترجع للطبيعة بعض من حقوقيتها في إمتلاك هذه الأراضي المغصوبة منها، و تحت غطاء كل هذا كان الناس يضربون أرجلهم إلى طريق العودة إلى منازلهم منهين يومهم في الكدح و الحصد، لا يطيقون إلا أن تلامس أقدامهم سجاد عتبات منازلهم، و كان من ضمنهم إيفان الذي كان قد عاد للتو من مكتبه القابع في مبنى الإدارة العامة للتجارة حيث يعمل كمستشار و أخصائي لتحرير البنود التجارية، رحبت فيلبونا به عند دخوله، و نزعت عنه معطفه لتعلقه في علاقة الملابس، سألها إيفان عن دانيا و إن كانت قد رجعت من عند صاحباتها بما أنه كان مدركاً إن هذا هو يومهم الأسبوعي الذي يماطلون و يطنبون فيه في قضاء الوقت في أحاديثهن، فأجابته بالإيجاب عن رجوع السيدة غيرسكفيسكي منذ ما يقارب الساعتين، و هي في الحقيقة تنتظر عودته بأحر من جمر في غرفة الجلوس كونها تملك شيئاً مهم لتخبره، قلب إيفان عيناه في محجريهما و تأفف

من ذلك الخبر أثر توقعه لكون حديثها لن يخرج عن نطاق مواضيعها المعتادة و ترهاتها النسائية التي لا تنقضي و لا تنتهي، فأخذ راحته في تعديل هندامه و إرخاء بدنه بعد قضاء هذا اليوم الطويل محبوساً في حيز مكتبه الضيق لا يتزحزح منه لكثرة أشغاله و تراكم طبقات المعاملات التي كان عليه قضائها، دخل عليها في غرفة الجلوس حيث رآها مكاتفة الذراعين و ماطة الشفتين و يكاد بدنها الهزيل أن يغوص في مسند الكنبة، و ما أن لمحت قدومه حتى قفزت من مكانها لتخبره مباشرة بما أرادت.

« إبن أخيك هذا، ما شأنه؟، هلا أخبرتني، ما الذي يعطيه الحق و الجرأة ليهينني أمام صاحباتي، و يجعلني أضحوكة أمامهن، لقد كاد خداي أن ينفجرا من تكدس الدماء فيهما من شدة الحرج، لم أعرف ماذا أقول لهن أو كيف أشرح ما قد فعله، يجب عليك أن نتصرف معه بحزم و أن تمنعه بكل ما تستطيع عن التعامل مع الناس بهذه الطريقة المخزية كلما أراد و شعر برغبة إلى ذلك ».

حك إيفان رأسه غير مدركاً عن ما تتحدث زوجته عنه، لكنه خمن بأنهُ شيئاً ما قد فعله رومان أمام صاحباتها، و لكن من الصعب الشعور بالغضب فقط من مجرد سماعه لهذا العرض المبهم للأحداث لكونه يدرك بإنه لا يتطلب منك فعل الكثير لتزعج به تلك النساء المدعيات الاتي يلاحظن كل شاردة و واردة و لا يمنعن لسانهن عن التعليق على كل شيئ بعلو و صلافة مهما كان الأمر تافهاً، فقد يكون الأمر ببساطة بإن كل ما فعله رومان هو المشي أمامهن بطريقة غير لائقة لا تناسب أذواقهن و لا غير، و هذا كافي لجعله محط إنتباههن لتطاله ألسنتهن، فأولائك لسن سوى نساء فاضيات و تافهات لا يملئ جدول أيامهن أي عمل نافع أو مفيد سوى الثرثرة، و هذا ما حدا إيفان إلى الإمتناع عن الغضب.

« و ما الذي فعله رومان؟، لا تقولي لي بإنه لم يلقي عليهن التحية كما تحبين و تشائين و فقط، فهذا أمر في غاية السخافة و لا يستحق كل هذا الإنتظار الذي قمت به، فإن كنت تظنين بأني سأحادثه بهذا الشأن فأنت مخطئة و لقد أضعت وقتك، هه، و منذ متى كنت أنت مهتمة بعدم إضاعته من الأساس؟ ».

أمتعضت دانيا من هذه الإهانات التي صفعها إيفان بها على وجهها، و التي مهما سمعتها عبر السنين فهي لا تزال تحس بوخزتها في قلبها، لكونها تعلم بإن الحقيقة فقط هي ما تؤلم، فأخفضت رأسها في محاولة لإبتلاع تلك الكلمات و تجاهلها كما تفعل عادة، و أكملت تتبعة القصة.

« ليس الأمر بهذه الهينة، فما فعله إبن أخيك هو أكبر من ذلك، فلقد أخذته معي إلى منزل صاحبتي كيشكينا هذا الصباح، أنت تعرفها أليس كذلك؟، فمنزلها في الحي المجاور لنا، و لقد قابلتها عدة مرات من قبل، على أية حال، كانت فيلبونا قد أختفت لسبب ما من المنزل، و كان الوقت يداهمني و غدوت متأخرة عن وقت رحيلي، و حدث أن صادفت إبن أخيك هذا أمامي مباشرة في حيرتي هذه، فطلبت منه بأن يتفضل بمساعدتي لكوني كنت في أمس الحاجة لتلك الأذرع الإضافية لحمل أطباق الطعام التي جهزتها بالأمس لأحملها معي أثناء زيارتي، فوافق على ذلك بسرور و ترحاب و رحلنا، و ما أن وصلنا و دخلت أنا على صاحباتي لأسلم عليهن، و ذهب هو ليضع الأطباق في المطبخ ظانة بأنه سيرحل مباشرة بعد ذلك، لكن ما أن مرت بضع دقائق حتى أتت إبنة صاحبتي كيشكينا لترحب بنا كما تفعل كل إسبوع نجتمع نحن فيه، لكن عوضاً عن وجهها الباش و كلماتها اللطيفة و المهذبة المعتادات نحن عليها أخبرتنا بالأمر الصادم، عن تواجد فتى بمظهر رث قد أصطدمت به في ردهة المنزل، و قام هذا الفتى بإهانتها و سبها، و ليست هي وحدها فقط من تلقت تهجمات إبن أخيك بل

حتى إحدى خادماتهم لم تسلم منه و من كلامه المتعدي، و أخذت تلك الفتاة المسكينة تحاول منع دموعها من الإنجراف لكنها لم تستطع ذلك، و أخذت كل صاحباتي أبان تلك اللحظة بالتحديق تجاهي، و علامات الإحتقار و التحطيط تغرس أقدامها على وجهي، فأخذت أحاول الإعتذار للفتاة و لأمها كيشكينا التي كانت قد أحتضنتها بين ذراعيها و حاولت مواساتها، و على الرغم من قبولها إعتذاري، إلا أن ذلك لم يكن شافياً بتاتاً، فهي — كيشكينا — لم تنوء عن مجافاتي طوال الفترة التي قضيتها معهن، كلما أدرت رأسي تجاهها رأيتها تحدجني بتلك النظرات المتسائلة "لماذا أسمح لهذه المتسولة بالدخول إلى منزلي و أحضار فتيانها المتشردين معها فقط ليهينوني أنا و أبنتي، لما لا أتوقف عن مصاحبتها إطلاقاً"، و أتعلم كم أحرجني ذلك و كم أذلني، شعرت بأن الدنيا قد بدأت تضيق علي حتى كادت عظامي أن تعصر، و ذلك الفتى لا يزال يسرح و يمرح في الخارج غير مهتماً بما قد فعل و ما قد عرضني له، أفي يوم واحد فقط يدمر علاقتي بصاحبتي التي قضيت السنين ببناءها؟ أخبرني، أذلك مقبول؟ ».

تغيرت ملامح إيفان من عدم الإكتراث إلى حنق واضح و مسيطر، و أخذ يطأطأ رأسه في توعد و تدبير لما سيوجهه من كلام لاذع و قاهر تجاه رومان.

دقت الساعة السابعة بعقاربها البطيئة، و كانت عائلة غيرسكفيسكي جالسة على مائدة العشاء بإنتظار وصول أصحنتهم التي تحتوي على ما يطيب لهم من طعام، و كان أحد المقاعد شاغر، مقعد رومان، و أخذ إيفان يحدق بنظرات حارقة إلى الهواء الذي ملئ ذلك الحيز في إنتظار عودة رومان، و أخذ يتوعد في دواخله بأشد العقاب على رومان لو أنه يتجرئ و يقوم بالتخلف عن الموعد المحدد الذي أعلمه إياه بأهمية تواجده عليه في هذا الصباح، و في الحقيقة كان إيفان يتمنى حدوث ذلك التأخر!، فهو حقاً يريد أي عذر لفرض سطوته و إظهار جبروته أمام إبن أخيه الصعلوك هذا، فهناك جو من العلو و التكبر قد لاحظه إيفان يحيط برومان،

و خبرته تقول له بإنه يجب كسر ذلك الغرور حالاً و خلال هذه الأيام الأولى و إلا تفاقم الأمر ليخرج عن سيطرته، أدار إيفان وجهه تجاه إبنته داليا التي كانت تلعب بشكل ساهم بملعقتها في محاولة لتجزبة الوقت حتى حين وقت العشاء، فلاحظت نظرات والدها قد توقفت عليها، فأقامت من جلستها حالاً و توقفت عن اللهو بالأواني، لخنت تعابير إيفان من ردة الفعل الحذرة هذه، و أرتسمت إبتسامة متعاطفة على شفتيه.

« كيف كان يومك يا داليا؟، عساك قد ثابرتي في دروسك و ركزت في شرح المعلمين، فلطالما أخبرك بأن هذه المرحلة من حياتك هي الأهم و الأكثر حساسية لتكوين هويتك و ما ستكونين عليه، فإن جعلت المثابرة و الإجتهاد ملازميك منذ الآن فسيظلان يصاحبانك في كل ما تفعلينه في المستقبل سواء القريب منه أم البعيد، و هذه ليست مجرد ترهات أخبرك بها فقط لأحفزك بها، بل إنها تجربة واقعية مثبوتة و حقيقة لا غبار عليها، فخذيني أنا على سبيل المثال، لقد كنت أدرس ليلي و نهاري، لا أشارك التلامذة الآخرين في لعبهم مهما دعوني و أغروني لذلك، لطالما كنت أرفض دعوتهم حتى إنتهى الأمر بهم بالتنمر علي في محاولة لكسر قوة إرادتي، لكني لم أرضخ لذلك و قاومتهم حتى تركوني أخيراً لحالي، و خمني ماذا حدث لهم بعد ذلك؟، واحد منهم إنتهى الأمر به ملقي في السجون يخرج منها فترة فقط لأسمع خبراً عن دخوله خلف قضبانها مرة أخرى، و آخر لا يستطيع الإحتفاظ بأية وظيفة حتى غدا واضحاً بأنه يستلم راتبه من معونات العاطلين أكثر من الوظائف التي شغلها مجتمعات، و آخر يعمل تحت إشرافي، لكن برتبات واسعة في ما بيننا، فأنا مرؤوس مرؤوسه، و هو لا يستطيع حتى رفع رأسه ليواجهني كلما مر بحدائي، و هذه ليست مجرد صدف، بل هو تدبير و تخطيط، و هذه المرحلة التي أنت بها هي الورقة البيضاء الأساسية التي ترسمين عليها الخطوط التي لا تمحى، فذاكري و أجتهدي، و ألا إنتهى الأمر بك كـ . . . ».

و في تلك اللحظة أطل رومان عليهم قادماً من ردهة المدخل، و ألقى عليهم نظرة مستعجلة قبل أن يتقدم من الطاولة قليلاً ممتنعاً عن الجلوس، و كأنه يستجمع بعض الجرأة لقول شيئاً ما.

« مساء كم خير، معذرة على قدومي المتأخر هذا، فلقد أنشغل ذهني ببعض الأشياء و سرحت عن الوقت، و ما أن أنتبهت حتى بدت الشمس بإنها قد أفلت، و تاهت قدمي تحت ظروف تغير المكان على عيني الغير معتادتين على مظهر هذه المدينة و كيف تبدوا تحت تأثير الظلام، فلذلك أنا متأخر، و يجب أن أعتذر مرة أخرى، لكوني لا أستطيع الإنضمام إليكم هذه الليلة على العشاء، فأنا أشعر ببعض الوعكة و التعب في جسدي، أعتقد بإني على وشك الإصابة بحمى، و الآن لو سمحتم بأنصرافي، طابت ليلتكم ».

أستدار رومان قاصداً الإتجاه للأعلى، لكن سماعه للصوت الصاخب لزحزحة إيفان لكرسيه قد أوقفه ليلقي نظرة من خلف ظهره فقط ليرى إيفان و قد وقف شامخاً نافخاً صدره، مقطباً حواجبه، و ملوي قبضة يديه إلى كرة من اللحم الصلب، فأستيقظ رومان من خموله و أستدار بجسمه كاملاً ليواجه عمه الذي تحرك من مكانه و تقدم إلى رومان بخطى حازمة، و فاجأه بصفعة قوية قد سمعت أصدائها في أرجاء المنزل كافة، و تبعها شهقة صادرة من كِلا من دانيا و داليا التي غطت هي بدورها فمها بيدها في صدمة و ذهول، بينما ظل رومان متجمداً على ما هو عليه جراء الصفعة مغطياً خده بيده لا يجرئ على رفع رأسه أو إدارته تجاه عمه، فهو قد أدرك ما سبب كل هذا، فلا يمكن أن يكون بأنه قد توقع بأن يهين شخصاً ما في منزله و ينجو بجلده من أية عقبات تنبع من هذا الفعل المتهور، فلا بد أن تصل الأخبار و تنتشر كحريق الغاب، و كحريق الغاب لا بد أن تحترق الأشجار كما يحترق خده من سخونة الصفعة، أتت فيلبونا في هذه اللحظة مهرولة لتستقصي ما سبب هذا الصوت المدوي الذي بدا

منبئاً بالمشاكل فقط لتجد الجميع متسمرين على وضعيات غير طبيعية و كأن لعنة قد حلت عليهم من حيث لا يدرون لتجعل منهم تماثيل خرساء، تقدمت فيلبونا من الطاولة ملتفة حول إيفان و رومان و كأنها لا تجرُء بأن تحاول الإستعلام مباشرة من إحداهما، فهي قد فهمت ما جرى فقط من رؤية المشهد أمامها، و لكنها توجهت لداليا و أمسكتها من يدها لتجرها معها إلى غرفة أخرى مبعدة إياها عن خضم هذه المتاعب و الشجارات التي لا تصلح لفتاة في مثل سنها، و خصوصاً فتاةً ضعيفة القلب و سهلة الذعر مثلها، فقامت دانيا هي الأخرى من على مقعدها لتتْبعهم و لتُطمئِن إبنتها و تهدئها، أو هذا ما حاولت أن تظهر بأنه السبب لهروبها، فهي في الحقيقة لا تريد مواجهة مسؤولية كونها من سبب هذه المحنة بإخبار إيفان عن ما حدث، فهي لو تغاضت عن الأمر و تحملت المشقة لكانوا الآن كُلاً على مقعده يأكل طعامه في هدوء، فخلى المكان برحيلها هي الأخيرة لإيفان و رومان الذي أعدل من وقفته و أزاح يده من على خده، ليقابل عمه أخيراً و لو بخنوع ظاهر، سحب إيفان نفساً سريعاً قبل أن ينزل على رأس رومان كلامه الذي قد دبره من قبل.

« لقد أخبرتك و أنذرتك، أليس كذلك؟، و ها أنت منذ اليوم الأول تقوم مباشرة بإفتعال المشاكل و تقوم بتشويه سمعة العائلة، أعلي أن أنبهك من وضعك المخزي هذا، و لما أنت هنا تحت رقابتي من الأساس، و كيف أني أقوم بكل هذا كخدمة و تفضل مني لترقيع أخطاء أبيك و أخطاءك أنت معه أيضاً، أهذا جزاء من يحسن إليك و يشفق على حالك البائس هذا؟، لماذا قمت بإحراج عمتك أمام صاحباتها؟، بل قل ما الذي جعلك تتسكع في أرجاء منزلهم بعد إنتهاء الخدمة التي وكلتها لك عمتك؟، أحرقتك يدك مرة أخرى و قررت السرقة؟، أهذا هو الأمر؟، أنطق! ».

رفع رومان عينيه و وضعهما كمثقاب في وجه عمه في تحدي واضح، فها هو رومان المتهور يطل مرة أخرى في وقت غير مرغوب بأن يكون المتصرف فيه، و يتخذ دور المتحدث و المتكفل بدور التبرير الغير المقنع.

« و ماذا لو أحرجتها أمام أولائك النساء؟، ألم تقل في الأمس عن كونهن مجرد نساء حمقاوات لا يعتد بكلامهن؟، فما هذا التناقض في كلماتك، أترى يمكن أن تكون أنت أيضاً من ثلة أولائك النساء الحمقاوات و الثرثارات و الاتي لا تركدن على رأي؟، مجرد شخص لا رأي و لا مبدأ له، تنجرف مع أي تيار تجد نفسك فيه، فإن أخبرتك زوجتك بشيئ ما لا يعجبها تقوم أنت في الحال بالتخلي عن كل الكلام الذي تقوله عنها من خلف ظهرها و تخالف نفسك فقط في حال كان هذا الأمر يخدم مصالحك و حسب، فأنت لا تهتم لكلام زوجتك، و لا كلام صاحباتها، إلا في حال كان ذلك عذراً لشيئاً ما في خاطرك، نعم، و ذلك الشيئ في هذه اللحظة هو التهجم علي و إهانتي، و أمام من؟، زوجتك و إبنتك، و حتى أمام الخادمة!، فما هو التالي على الخط إن أستمريت على أعذارك الزائفة هذه؟، فهل ستضربني و تتعدى علي أيضاً في حال لو كنت أمشي بطريقة ما لا تحبها أو أي أمر تافه آخر قد تجده سبباً لتبرير كرهك لي، فأنا لم أقضي هنا سوى يوم واحد و ها أنا قد سئمت من هذا المنزل و من رؤيتك بهيئتك القبيحة هذه، فأغرب عن وجهي، أو دعني أنا أغرب عنك، لكن لا تدعني أقف هنا محتاراً لا أعرف يميني من شمالي، و لا أنت تعرف صحيحك من خطأك ».

رفع إيفان يده و وجهها تجاه رومان الذي تلقاها هو بقبضة يده و منعها عن إكمال وجهتها تجاه خده، فلم يكن إيفان متفاجئاً بردة الفعل هذه، حيث أنه قد توقع بأن يتقدم رومان و يدافع عن نفسه، فهو بالطبع لن يذعن له بهذه السرعة، فهذا أمر متوقع و محتسب في مخططات إيفان، فشراسة و ضراوة من هذه الدرجة لا تروض بمسحات اليد و لا بقبضات

اليد، لكن بالتروي في مزج الأثنين معاً، و تعمد الإرباك في إستعمالهما لبعثرة أوراقه و جعله يتخدر تحت تأثير مفعوله، فأنزل إيفان يده في تنازل منه عن هذا العراك، و أشار تجاه السلالم معلناً وقف إستئناف هذه المحادثة و السماح لرومان بأن يتخلف عن الجلوس معهم على العشاء، و لا سيما بأن هذا هو الخيار الوحيد أمامه بعد هذا الإحتدام، فنادى إيفان على نساء المنزل للرجوع إلى طاولة الطعام، و أمر فيلبونا بإحظار العشاء الذي قد برد لا شك بعد كل هذا التأجيل الطارئ الذي جرى، فجلسن كلاً من دانيا و داليا على كرسيهن، بينما كان إيفان منهمكاً على حاله يكاد يغوص على مقعده من شدة الإنفعال الذي لا تزال وجفاته تجري في أديم عروقه، حتى لاحظ التوتر البادي على وجه داليا التي لا زالت تبدوا و كأنها على وشك الإنخراط في البكاء، فأرخى إيفان من بدنه و أصطنع قليلاً من الإبتسامة المُطمئِنة على وجهه، و هو يفكر بأن معاشرة دانيا طوال هذه السنين لا تجلب منفعة إلا في مثل هذه الأوقات حيث التصنع و التمثيل متطلبان منه و هذه هي خاصيتها، فأدار رأسه تجاهها فقط ليراها تلبس تعابير الندم على وجهها.

(الفصل السابع)

لطالما كان النهار رمزاً للبداية، و خصوصاً عند أوائله حين تبزغ الشمس بواهجها المندفع و تغطي به جميع ما يقع تحت ناظرها، فهذا الفجر هو أول ما ندركه و نتعرف عليه كبداية، مما يجعل بزوغ الشمس — أي الفجر — الشريك الشَرطي ليرافق النهار لكي نعبر بشكل واضح عن البدايات، كمثل قولنا 'فجر الكتابة' للتعبير عن طلائع التطور في الحضارات القديمة التي أبتكرت طرق و سبل الكتابة كمثل حضارات السومريون و المصريون، و تشبيه آخر نستخدمه كذلك هو قولنا 'فجر الهداية' للإشارة إلى زمن ظهور أوائل الأنبياء المصلحين، و الأمثلة كثيرة لا نهاية لها، و كمثل الإستعارة المجازية للفجر للتعبير عن البدايات فكل مراحل اليوم هي أيضاً متاحة للإستخدام بالمثل للتعبير عن أقرب ما تشابهه في رمزيتها لها، كمثل إستخدام كلمة الظهيرة للتعبير عن أواسط المراحل الزمنية و الطورية في مختلف القطاعات، و فترة أخرى من اليوم دائماً ما نراها تستخدم هي أفول الشمس عند الغروب للتعبير عن نهاية مرحلةً ما، لكن نرجع للفجر و حلوله مرة أخرى و نحاول أن نحلل سبب كونه دائماً ما يستخدم للإشارة للبدايات و عن كيف قد أرتبط ذلك مع كونه إشارة و رمز للتدليل على النهضة و حسب عوضاً عن اليقظة، فالنهوض من النوم حتماً أكثر علواً في مكانته على سلم طبقات الوعي المتنبه مقارنة بالإستمرار في الغط في النوم، لكن هذا طبعاً لا يعني بإنك تكون في أعلى درجات قدرتك و أقوى عنفوان أحاسيسك أبان ذلك الوقت، و هذا هو الخلاف الشائك بين من يحبون هذه المرحلة من اليوم و بين من يفضلون مرحلة أخرى لتعبر عن شخصيتهم و كيف نتواكب تلك المراحل الأخرى بشكل أنسب من المرحلة التلقائية لدى معظم الناس ألا و هي أوائل النهار، فالأمر واضح كوضوح الشمس بأن هذه الفترة هي بداية و فاتحة اليوم لدى معظم الناس، و كلنا نعرف الآراء و المقاويل التي يوصف بها معظم الناس

ألا و هم بصفة أخرى ما يسمون بالعامة، بكونهم ضحلين الذكاء و ركيكين التفكير و التدبر في ما يواجهونه من أي شيئاً كان، و لكن في نفس الوقت هم قوة الساعد و شدادة الكاهل و هم من يقومون بشأن المجتمع بأكمله و يبنونه و يحكمون مسار توجهه، فهم حقاً ناهضين و لكنهم أيضاً ليسوا بمتيقظين، فهذه الصفة الأخيرة مخصصة لفئات أخرى من أمثال من يهوون الجوبان في غياهب الظلام عند الليل و ممن تتوسع أجفانهم حتى تكاد أعينهم تسقط من محجرها من شدة التوجس و الترقب لأي إنقضاض أو هجوم قد يسقط عليهم من حيث لا يدرون، فهذه هي يقظة الليل و تنبهه، و هؤلاء هم من يُسدَل الستار عليهم أو قل من يسدلون الستار على أنفسهم و على غيرهم ليختمون اليوم سواء كان على وجه حسن أم سيئ، و أغلبية الحال تكون الخاتمة على الوجه الآخر عوضاً عن الأول.

أستيقظ رومان من نومه الذي لم يأخذ كفايته منه لكونه كان متقطع الوصال، حيث كان رومان يستيقظ كل حين أثر سماعه لأقل صوت أو حركة تصدر من أي مكان كان، و طبعاً لا صوت ينتج من أغوار هذا المنزل، فجميع قاطنيه قد غطوا مبكراً في النوم، و أما عن فيلبونا فإنها و إن كانت ما زالت مستيقظة تقوم بما تبقى من أعمال منزلية أو ترتب أعمالها للغد فهي لن تصدر أي إزعاج بكل تأكيد حيث حركتها دائماً ما تكون منسابة و سلسة حتى في أواسط النهار فما البال في هذا الوقت المتأخر، أخذ رومان يجوب أرجاء غرفته خطوةٍ تأخذه يساراً و خطوةً أخرى تأخذه يميناً و أخرى تجاه النافذة التي تحلت بغطاء جديد و نظيف لا بد وأن فيلبونا قد ركبته هذا اليوم أثناء غيابه عند الظهيرة، ففتح الستارة بمقدار أصبع ليتفحص أرجاء الحي المظلم و الخاوي، فلا أثر أو حس لأي أحد أو شيئ و لا حتى خرخرةٍ لقط أو نباحاً لكلب، جو ميت و راكد كلوحة زيتية من الفترة السوداوية للرسومات التي كانت في عز رواجها في القرن السادس عشر، و كاللوحات تماماً ما أن تنظر إليها لثواني حتى

تحس بإنك لا تستطيع التفرقة بين سواد لون اللوحة و سواد النقط العمياء التي تطفوا في العين فلا تعرف حدود الرسمة و لا أبعادها، فتنحى رومان من هذا المنظر و قرر التشجع قليلاً و الخروج من غرفته حيث أنه لم يخرج منها و لم يقترب حتى من باب الغرفة منذ أن دخلها غاضباً و مقهوراً بعد تلقيه لتلك الصفعة المدوية و المهينة، لكن بما أن الجميع قد أوى للنوم و لا يمكن أن يستيقظوا إلا بعد عدة ساعات على أقل تقدير فهذه هي فرصته السانحة للخروج و التفرج على أرجاء المنزل و إستكشاف المزيد من أنحاءه، ففتح باب غرفته و توجه للدور الأسفل.

ظلمة خانقة قد صبغت جدران المنزل و جعلت منه قبراً موحشاً في مقبرةٍ قافرة، فأخذ يتلمس الجدران بأطراف أصابعه يضغط بهم على الجدار ليطلقونه إلى الجدار المقابل و كأنهم نوابض لولبية، و كان مصدر الضوء الوحيد الذي يجذبه تجاهه كما تنجذب العثة إلى النار هو الصادر من أغمار المطبخ مما جعله يخمن بأنها فيلبونا و ها هي لا زالت مستيقظة حيث بدا بإن هذا من طباعها اليومية، و أحتفظ رومان بهذه المعلومة في مدونته الذهنية، فتقدم من المطبخ و أطل برأسه أولاً ليتفقد الوضع قبل الدخول، و ما أن رأى فيلبونا جالسة كما كانت عليه بالبارحة تحمل كتاباً في يدها و كوب القهوة الساخن على الطاولة حتى أرتسمت إبتسامة خفيفة لا تلحظ على شفتيه، و تقدم متخذاً الهوينى على أطراف أصابع قدميه متوخياً إصدار أي صوت، حتى وقف أمامها مباشرة تفصل بينهم الطاولة، و هي لا تزال لا تلحظه لكونها منغمسة في صفحات الكتاب تحدق بعينين لا تراك إلا لو كنت إحدى الحروف المطبوعة في صفحات الكتاب، حتى حان وقت قلبها للصفحة و لكن صوت رومان المفاجئ قد أوجف قلبها و جعلها تطلق صرخة سريعة قد تداركتها قبل أن تدوي و تتزايد، و رفعت رأسها تجاه رومان و راحة يدها تغطي فمها و عيناها على أوسع ما يمكن أن تكونا عليه، و ما أن رأته أمامها

ينظر إليها بملامح بريئة مفتعلة حتى تنفست الصعداء و تخاذل جسدها على الكرسي حيث إنها ظنت بحتمية بأن يكون هذا هو اليوم المشؤوم الذي يغزوا فيه لصاً قاتل المنزل و يقضي عليها لا لشيئ سوى لكونها الوحيدة التي لا زالت مستيقظة، أغلقت فيلبونا الكتاب بعد أن وضعت العلامة على الصفحة التي وقفت عليها، أو قل أوقفت عليها، و قامت من على كرسيها متجهة ناحية المغسلة متعذرة ببقاء بعض الصحون الوسخة التي أجلتها لصباح الغد و قررت الإنشغال بغسلها الآن فقط لكي لا تعطي المجال لرومان لتكرار الموقف الذي وضعوا أنفسهم فيه بارحة الأمس، فتحت حنفية المياه لتطغي على صوت زحزحة الكرسي خلفها حيث جلس رومان، و مرت لحظات حتى أنتهت فيلبونا من غسل الصحون و لم يعد لها أي عذر الآن سوى الإستدارة للخلف و مقابلة الوضع الذي جبرت عليه، و ما أن أستدارت حتى رأت رومان جالساً و كتابها بين يديه و يبدوا منغمساً هو الآخر في كلماته، فهي لم تسمع صوت قلب الصفحات من ضوضاء صفع المياه على الصحون، فتقدمت تجاهه مادة يدها إليه ليعيد الكتاب إليها، فأرجع رومان من ظهره إلى الوراء حتى أستند على الكرسي محاولاً الإبتعاد عن قبضة يدها بقدر ما يستطيع، وقفت فيلبونا و يديها على خاصرتها تساءل نفسها أستتكرر واقعة البارحة أم أن هذه الليلة هي ليلة التحلي بالهدوء و ضبط الأنفس، ففاجئها رومان بكلامه.

« أتعلمين؟، لقد كنت مخططاً للإستهزاء مجدداً بالكتب التي أراك تقرئينها، لكن يا للمفاجأة!، هذا الكتاب لا بأس به في الحقيقة، على الرغم من إنني لم أقرأ سوى بضع صفحات، لكنه يبدوا متوازناً و محايداً في طرح المواضيع و تقصيها ».

أغلق رومان الكتاب و وضعه على سطح الطاولة، بينما كانت فيلبونا من فاجأته هذه المرة بعدم تطاولها للكتاب و الهروب منه كما توقع، حيث إنها عوضاً عن ذلك قد أنحت الكرسي المقابل له و جلست قباله تنظر بعيون صلبة و متأهبة لمواجهة أي شيئ قد تضعه أمامها، و في

هذه الأثناء دخلت من نافذة المطبخ المفتوحة هبات من نسيم الليل المنعش و أرخت من جو التوتر و الحدة التي كانت تكهرب أبدانهم أبان تلك اللحظة.

« لا بد و إنك مشغولة دائماً في أرجاء هذا المنزل، فأنا لا أرى زوجة عمي كإمرأةٍ تقوم بعملها بتمام الواحب من الإهتمام بمشاغيل البيت و تنظيم شؤونه، أو تحضير وجبات اليوم، أو حتى الإعتناء جيداً بإبنتها، فأنت كنت من سارع بإبعادها عن ساحة العراك الذي دار بيني و بين عمي على طاولة العشاء بدون أي تردد أو إستفسار، بينما في المقابل فإن تلك المرأة لم تفعل أي شيئ سوى إتباعك و حسب، فِعلٌ يناسب ما أظنها عليه من أمرء، فأنا أظنها شخص متخاذل و ينقاد بكل سهولة، بدئاً من كونها راضخةً تحت أمرة زوجها و لا تساويه في مكانته أو حتى أن تحاول تكثيف جهودها للوصول لتلك المراتب التي هو فيها، و من ثم هنالك على الجانب الآخر تذللها إلى آراء صاحباتها و تكوين كل ما تقوم به هي على ما يشرعنه هن فقط، و إنتهاءاً بفشلها في فهم إبنتها و متابعة شؤونها سواء في المنزل أو في المدرسة، إمرأةٌ نمطية و مبتذلة بإمتياز، هذا ما أظنها عليه، ألا تظنين أيضاً بأن هذا هو تماماً ما هي عليه؟ ».

جفلت فيلبونا جفنيها تحت ضغط هذا السؤال الفج و المنتهك، و كاتفت ذراعيها تحت أسفل صدرها و كأنها تتقي نفسها من تعديات هذا الشاب الماجن التي لا تستطيع تخمين من سيكون ضحية كلامه في كل مرة يفتح فيها فمه، و أخذت وقتها لتفكر و لتهضم ما قاله، رافضة الإنجراف في تحطيطه من شأن مرؤوسيها، فهي ليست بهذه الرعونة و الغباء الذي ما زال يظنها عليه، فلقد أدركت منذ الأمس كونه مجرد شخص آخر من مئات الأشخاص الآخرين من اللذين ما أن يعلموا ما كُنه وظيفتها حتى يبدؤا بإحتقارها و الإستخفاف بذكاءها، و هي و إن كانت عادةً ما تحاول جعل ذلك يمشي في صالحها للتخلص من بعض الحمول الغير

المرغوبة إلا أنها في هذا الموقف و لسبب ما لم نتضح معالمه رفضت التراجع أو التخلي عن توضيح حقيقة ما تظنه هي و ما هي آراءها بكل تفاصيلها.

« يجب عليك ألا تنسى في ضيافة من أنت تقيم، و من يقوم على أمورك، فنحن هنا في هذا المنزل لا نقوم بالتعدي على أحد أعضاء العائلة من خلف ظهورهم، و إن حدث خلاف أو شجار بين إحدانا و الآخر فإننا نواجه بعضنا البعض و نحكي بصراحة و بجدية لا نتجاوز معها حدود الإحترام و التقدير الذي نكنه لبعضنا البعض، فكلا، أنا لا أظن بالسيدة غيرسكفيسكي كما تظنه أنت، فأنت لا تعرفها بعد، و لا تعرف كمية الأخذ و العطاء الدائم و المتبادل بينها و بين السيد غيرسكفيسكي، و الإحترام للآخر الذي يبينانه كُلاً تجاه الآخر على مدار الأوقات حتى في أوج حدة خلافاتهما، و لا تعرف أيضاً العمل الكبير و المجهود الوفير الذي تصرفه السيدة غيرسكفيسكي من وقتها و طاقتها في ترتيب شوؤن المنزل، و كم هو مهم رأيها و حكمتها الحاسمة في تخليص الأوضاع الصعبة التي نمر بها، و أما عن صاحباتها فهذا أمر خاص بها لا شأن لك به و لا لي أنا به أيضاً، فكل ما أعرفه هو إنهن يحبون صداقتها و مجالستها و قضاء وقتهن معها، و هي تبادرهن بالمثل دائماً، و لا تجاملهن أو تصانعهن بتاتاً، فكل ما تقوله أمامهن تجدها تقوله كما هو تماماً حين يكونن غير متواجدات أمامها ليسمعن كلماتها، و أخيراً و ليس آخراً، كيف تتجرأ على إتهام السيدة غيرسكفيسكي بإنها مهملة لإبنتها داليا؟!، فمنذ أن عرفتها أنا و تشرفت بكوني جزء من هذه العائلة منذ بضع سنوات و أنا لم أسمع منها سوى المحاتاة و التوجس في كل شيئ يخص أمر داليا، فهي دائمة المراقبة و المتابعة معها في كل حركة تقوم بها، و دائمة المسائلة عن كل ما تقوم به و ما يخصها، سواء بأن تستعلم أمر ذلك مني أو من مدرسة داليا أو منها مباشرة، فأمنع لسانك عن التهجم على سيدة المنزل الذي يتفضل بضيافتك، فأنت لا تعرفها و لا تستطيع تقدير شخصها بنظراتك السطحية و المتشائمة هذه ».

لعق رومان شفتيه بحركة تعبر عن التمايع النفسي الذي أخذ يحل به جراء هذا الرد المفصل و الدقيق، أو على الأقل كان يبدوا كذلك، فهو يدرك الأخطاء الكبيرة و البائنة التي شكلت فجوات في وجهة نظر فيلبونا للعلاقات القائمة بين أفراد هذه العائلة، فبدت له فيلبونا في هذه الحال كشخص متوهم يخادع نفسه بالكلمات الرنانة و الطاهرة فقط لكي لا يواجه الواقع الشرس و المتداعي، فهو قد أكمل هذه الصورة بتذكره لما قالته بالأمس عن حلمها، ذلك الحلم بالتعايش مع أسرة مرحبة و معتنية بها، تخصها بالعناية و الإهتمام و كأنها أحد أفرادها اللذين لا يستغنى عنهم، خرجت ضحكة صغيرة من فم رومان أثر أسترجاعه لتلك الكلمات الطوبائية، هي كذلك على الأقل لخادمة منزل مثل فيلبونا، و عندما رفع رومان رأسه ليلقي نظرة متفقدة لما تكون عليه تعابير وجه فيلبونا، أحتار من جمود وجهها، و من برودة عينيها، و كأنها جالسة بفراغ تنتظر دورها لسماع إسمها يستدعى في إحدى العيادات، غير مهتمة و لا تكاد تنتظر مرور الوقت و تخطي هذه اللحظات التي بدت لها مملة، فلم يطق رومان هذه النظرات و لم يرتاح لها، فهو لسبب ما دائماً ما يرى نفسه مجبراً على تأجيج مشاعر أي شخص يتجرأ و يتحدى وجهة نظره، فلا أمل لأن نتوقع أية حوار هادف أو مثمر قد يأتي في حال إن كان رومان يمثل أحد قطبي أية محادثة.

« هه، أنظري إليك، بكل جدية و وفاء صامد تدافعين عن أسيادك و مخدوميك، فما غير هذا أتوقع؟، فالعبد الذي لا تراه موثوق الجَيدْ هو عبد موثوق الطاعة، و مضمون التلبية الكاملة، و الخدمة التامة، و هذا يذكرني تماماً بأيام الآحاد في الكنائس، حين يتضرعون المؤمنون و ينوحون طلباً للصفح و الرحمة من كائن لا يراهم كأنصاف له أو مستحقين لعطاياه إلا بتذليل أنفسهم و التحطيط من أقدارهم، فالأنسان كما هو على حاله و بشخصيته الحقة لا يستحق أي من ذلك الصفح و العطاء في حال كون ما هو عليه لا يتوافق مع ما يطلبه الكائن الأعلى، و

بالمثل أنت لا تستحقين معاملة أسيادك الجيدة و العادلة إلا في حال الطاعة التامة لأوامرهم، فلو جربتي الإطالة في مرادداتك و كلامك لذكروك بمكانتك الحقيقية بالنسبة لهم، و لو أزدت في طلباتك و مشترطاتك لبانت ملامحهم المخصصة التي لا توجه إلا إلى العبد العاصي، فالنار للذي يكفر بالكائن الأعلى، و الذل و من ثم التسريح للعبد الفارض لشخصيته، فلا أعلم لماذا أنت تصرين على مواصلة الجري خلف حلمك هذا الذي لا تطاله يداك، فقط أستسلمي لمصيرك و أقتنعي به، فهذه هي الوسيلة الوحيدة لمواجهة الحياة وجهاً لوجه ».

أستمرت فيلبونا على حالتها المتصلبة هذه، و عيناها لم تجفلا و لم تدورا مطلقاً طوال حديث رومان، مستعدة و متأهبة لمواجهة أي نقد أو أية إهانة أو محاولة منه لتحطيم و تفكيك إعتدادها بنفسها، فهي قد خمنت منذ البارحة بعد أن ذهبت لغرفتها و أخذت تفكر و تحلل لما حدث بأن رومان من النوعية المختلة نفسياً، و ليس معنى هذا الكلام القول بأنه مصاب بمرض نفسي إعتيادي يصاب به عامة الناس و من النوع الذي لا يجدون أية إشكالية في التحدث عنه أمام الجميع، مثلاً كالهوس الإنفعالي، أو قطبية المزاج، أو حتى الإكتئاب، و إن كان الأخير أكثر سرية في التحدث عنه مقارنة بالأمراض الأخرى، لكن ما تعنيه بوصفها له بالمختل نفسياً هو ذلك النوع من الأشخاص اللذين يصعب وضع مبغاهم و تصرفاتهم في خانة ما، متقلبين على أمورهم، و مبعثرين في أفكارهم و مبادئهم، فيوماً تراهم يغدقون عليك بالكلمات الطيبة، و في اليوم التالي تراهم يحاولون تفنيد كل ما قالوه و سحبك من عرقوب قدميك للأسفل حيث هاويتهم المقفرة ترحب بك، و كأنهم يرون بعين واحدة شيئاً جيداً، و بالأخرى شيئاً سيئاً، فلا يعرفون أي العينين أصدق، و لا يستطيعون تتبع الأسباب التي قد تستدعي الأشخاص العاديين من العامة لما قد تَحدي بهم إلى الإعتناء قل مثلاً بالكبار في السن، فأمثال رومان لا يرون المنطق في تخصيص فراغ من وقتك في خدمة فئة من الأشخاص

يرونهم— أي أمثال رومان — بأنهم منتهيين الصلاحية، لا فائدة منهم، فالأفضل هو عزلهم بعيداً — كبار السن — عن المجتمع إن كانوا لا يستطيعون تدبير شؤونهم، كما كانوا يفعلون الهندوس تماماً، اللذين ما أن يبلغ إحداهم الكبر حتى أنفرد بذاته و بدون أمر من أحد ليتوجه إلى حواشي القرى، لا أحد يعتني به أو يتفقد أمره، منعزل تماماً، حتى يموت أخيراً و ينخر الدود لحمه و تغطي الحرائش عظامه، أرتعشت فرائض فيلبونا من تلك الصورة الموحشة و القاسية التي تفرضها علينا قوانين المجتمع في كل شأن من شؤون حياتنا في حال سقوط أمرتها تحت قبضة المعتوهين، و نفضت رأسها لتبعثر تلك الصورة، و أشدت من مأزر عزمها على عدم الإنحياد عن موقفها، و عدم الإنجراف خلف كلمات رومان المنبعثة من مكامنها الفاسدة.

« من السهل عليك قول كل ذلك الكلام، كونك تظن نفسك تحلق خارج السرب، و لا تلزمك قواعد المجتمع أو الدين، لكن كل ذلك ما هي إلا إفتراضات واهية و غير مدعومة بأي دليل على قدرتك على تحدي تلك القواعد التي أنت ترفضها أو بأن تضع أي بديل لها، هذا إن كانت بحاجة لذلك من الأساس، فأنت تتصرف كمثل الطفل الذي لا يعجبه أسلوب لعب الأطفال الآخرين من أترابه فقط لكونه لا يستطيع مجاراتهم في اللعب و لا يملك قوة التحمل و لا حس الغيرية لكي يتبع القوانين و المسارات المحددة مسبقاً، فإن فشل في تحقيق الفوز، قام بنفض التراب في وجوه غيره من الأطفال متهكماً و متهجماً على كون اللعبة غير عادلة أو سليمة من الأساس، و نحن ماذا يحل بأمثال الأطفال من تلك الخانة؟، الضياع، و الوحشية، و حمل الضغينة المشرأبة على أكتافهم التي تهرص عظامهم و تفتتها، و إن كنا نتحدث عن العبودية، فأنت أكثر الأناس رضوخاً و مذلةً لقيودها، نعم أنت!، فأنا أتكلم هنا عن عبوديتك لأهواء نفسك و خواطرك الطائشة ».

قامت فيلبونا من على كرسيها بكل هدوء و رخامة، و ألتقطت كتابها بكل سلاسة، و هي تقفص بعض من شعيراتها الشاردة خلف أذنها بحركات لا تنم إلا على إحساسها المتأكد بالظفر بهذه المجادلة، و مضت في طريقها إلى ظلام ردهات المنزل، متجهة بالتخريص إلى غرفتها لتحتفل بإنتصارها هذا.

عاد رومان إلى غرفته حيث بدأ بالدوران و الإلتفاف حول محوره من جديد، لا يعرف ما يجب عليه فعله الآن لتجزية الوقت، حيث إن النوم و إن كان يراه مستلقياً على الفراش يرحب به و يدعوه إلى الإنضمام معه على هذا السطح المريح و كأنه زوجة في ضناء إلى حضن زوجها، إلا أن رومان كان يكره إجفال عينيه لهذه المدة الطويلة حيث يُقْفل الطريق إلى التفكير و يجرد من حريته و من أريحيته، فما النوم إلا إضاعة وقت و مقايضة خاسرة بين الراحة و الوعي، فمن منا لم يحلم مراراً و تكراراً بتلك الأحلام المزعجة التي لا تنوء عن غزو مخيلتنا، و ليس الحديث هنا عن الكوابيس المخيفة، و ليتها تكون كذلك، و لكن الحديث هنا هو عن تلك الأحلام الساهمة و السخيفة التي لا لها بداية و لا لها نهاية، فكلها وسط، و ليس أي وسط، بل وسطٍ من شدة سخافته لا يمكن مشابهته إلا بالأحاديث التي نتبادلها مع جيراننا اللذين لا نطيقهم عندما نلتقي بهم مصادفة عند خروجنا من المنزل، فكُلاً يكون يريد الذهاب في حال سبيله لقضاء مشواره الهام الذي خرج من منزله من أجله، لكن هذه الثواني العفوية و العشوائية أبان تلك اللحظة عند الحديث مع الجار هي التي تفسد بقية المشوار، و هذا بالذات هو النوم الذي يأخذ مكانه و يتوسط بكل سذاجة في ما بين وعينا المتيقظ، فأنتهى الأمر برومان بالخروج من غرفته مريداً التوجه إلى المطبخ مجدداً، لربما يصادف فيلبونا مرة أخرى و يقنعها هذه المرة بتقضية الوقت معه، حيث إنه قد عقد عزمه على التخفيف من مضابقته لها و الإبتعاد عن تأجيج مشاعرها، على الأقل إلى حد لا يصل

به بأن يجعلها تهجره و تغادره، فأقترب رومان من المطبخ حيث كانت الأضواء ما زالت مضاءة، فهو لم يخطر في باله إطفاءها عند مغادرته إياه مسبقاً، و عندما أقترب من مدخل المطبخ ببضع خطوات سمع صوت حنفية المياه تجري، نخمن أن تكون هذه هي فيلبونا قد رجعت ما أن أستكشفت خلوا المكان مرة أخرى، فدخل رومان بسرعة إلى المطبخ مستهدفاً ضبطها و هي في وضعية غير متأهبة، لكنه تفاجأ بكون هذا الشخص لم يكن فيلبونا، بل دانيا، التي كانت ممسكة بكأس ماء في يداً واحدة، و باليد الأخرى ضاغطة على فصوص دواء، و كانت على وشك إلتهامها قبل أن تُفاجأ هي الأخرى بمرأى رومان أمامها.

« رومان؟، ما الذي تفعله هنا؟، لقد ظننت بإن الجميع قد ناموا، فالوقت متأخر، . . . ، لا بد بإنك مثلي، شعرت بالعطش فنزلت لتسقى ماءاً، أليس كذلك؟ ».

أرتسمت تلك الإبتسامة المصطنعة على شفتيها، تلك الإبتسامة التي لا تبدوا موجهة إلى أي أحد و ليست صادرة من مقصد أو غاية غير لترخية جو المحادثة و الإبتعاد عن الكمود و القنوط الذي تراه مسيطراً على أحاديث معظم الناس عندما يتحدثون بشخصيتهم الحرة و الطلقة، أقترب رومان منها و أشار برأسه إلى قبضة يدها الممسكة بفصوص الدواء، منبهاً إلى أن غايتهم بالتواجد هنا لا يمكن أن تكون بالمثل.

« لشرب الماء أتقولين؟، حقاً أنا أراك ممسكة بكوب ماء، و لكني أيضاً أراك ممسكة بطبق جانبي ليرافق الماء، أهي مشهيات؟، أم مهبطات؟، لن أتقصى حقيقة هذا الأمر، فأنا أعرف حدودي هنا ».

جلس رومان مكانه السابق على الطاولة، بينما وقفت دانيا و الإبتسامة لا تزال متمسكة بإصطلابتها، فهي ليست تعابير حقيقية لكي تتغير في مواكبة مع تغير أحاسيس دانيا،

فيما كانت قبضة يدها الممسكة بالفصوص تعصر بشدة عليها حتى تكاد تجزم بإنها قد تفتت و لا تصلح الآن إلا كبودرة تذاب في الماء، أستدارت دانيا إلى الخلف تجاه المغسلة حيث سكبت كوب الماء و ألقت ما بيدها الأخرى لتجرفه دوامة المياه السائبة في الحوض، و بدت و كأنها في خضم تنظيم أفكارها للحظة قبل أن تستدير مرة أخرى ناحية رومان مسندة أسفل ظهرها على حافة المغسلة، و في لحظة إستدارتها كاد رومان يقسم بكل ما هو مقدس بإنه لمح و لو للحظة تعابير وجهها تعتفر و تعتفس بشكل شيطاني و مختل قبل أن تعود تلك الإبتسامة الملعونة إلى الإرتسام مرة أخرى على وجهها لتملئه بأكمله.

« إذاً يا رومان، ينتظرك عند الصباح يوماً حافل، أليس كذلك؟، فأنت على موعد مع أول يوم لك في إستلام وظيفتك التي حاز إيفان عليها لك، وظيفة جيدة لو سألتني، فمن منا لا يحب التفسح في ما بين حضائن الزهور و الورود و الإنسياب في ما بين مدارس الأشجار ذات الروائح المنعشة، و أنت من حظك أن تكون من يعتني بنموها و برعايتها و قضاء ساعات لوحدك في ما بين ترحابها، و لا أخفي عليك بأن حديقة السيد غوربوف رائعة و شديدة الجمال على رغم صغرها و ضيقها، بل قل إن ذلك هو ما يجعلها مترعة بالنباتات العالية الجودة، فلو كانت واسعة لأصبحت مجرد مزرعة من المزارع التي تراها دائماً مهملة التربة و ذابلة المنبت، لكن في حديقة السيد غوربوف كل شجرة مختارة بعناية و بتحيص لإن كانت تصلح للتربة التي تغرس فيها و إن كانت لا تضر بما حواليها من مزروعات، فصدقني عندما أقول لك بإنها ستبهرك و تدهشك عندما تراها و خصوصاً لأول مرة، فأنا حتى هذه اللحظة أجد نفسي دائمة السرحان في كل مرة أذهب فيها مع إيفان للزيارة و قضاء بعض الوقت، فالسيد غوربوف هو أشبه بصديق لإيفان، أقول أشبه بصديق لكون السبب الأغلب للزيارات و المحادثات التي تجري بينهم هي خاصة بالأعمال، حيث أن السيد غوربوف رجل أعمال موقر و محنك، لا

يرفض المشورات و النصائح التي يقدمها له إيفان بصفته المستشار التجاري لإدارة المدينة، و لكن هذا لا يمنع أن تصف العلاقة بينهما بالصداقة أيضاً و إن كانت مبنية على مصلحة بين الطرفين، و أكون أنا عند شروعهم في أحاديثهم المملة عن المشاريع و المخططات التجارية متروكة لحالي، لا أحد يضيفني أو يرفهني، فالسيد غوربوف أرمل، توفت زوجته منذ عدة سنوات، و لا أنا أريد آن ذاك أن أحل ضيفة في غرفة الخادمات فذلك ليس بالمكان الذي يناسبني حتماً، و إبنتيه أصغر سناً من أن تستطيعا مواكبتي في مواضيع حديثي، فينتهي بي الحال دائماً بالتنزه في أرجاء حديقة المنزل، و لا أكاد أحس بمرور الوقت مهما طال و أنا أتفسح في أرجاءها، و لذلك لا تحاتي في حال قد ظننت بأنك قد تجد هذه الوظيفة مملة أو سادرة، فأنت بالتأكيد ستتعلم الكثير فقط من تمضية وقتك هناك و ستكتشف مهارات و خبرات لم تعرف إنك بحاجة إليها، فقط كل ما عليك فعله هو الإعتناء بالحديقة، و أبواباً كثيرة ستُفتح أمامك، صدقني، ذلك حتمي ».

هز رومان رأسه الذي قد أسنده على راحة يديه، ماطاً شفتيه، فهو لم يدرك المدى الذي كانت دانيا ستأخذ به حديثها من طول و تفصيل و تنقلاتها هذه من ناحية من الموضوع لأخرى، فلم يدرك ختام كلامها و إلا و هو في حالة أشبه بالخدر و الإنصات الملبي، فلا جواب هنا قد يصدر من جانبه، و لا تكملة لأية فكرة أو موضوع قد يرى بإنها قد تجاهلته بكلامها الطويل هذا، فما كان منه سوى أن يقوم من مكانه و هو مطأطئ رأسه يتفحص قدميه و يخرج من المطبخ ليتجه إلى غرفته حيث غلبه النوم مباشرة ما أن أسقط رأسه الثقيل على سطح الوسادة، ليغط في نوم منعدم الأحلام، لا شيئ سوى السواد ثم السواد و متبوع بمزيد من السواد، و وعيه لا يكاد يغيب حتى يرجع مرة أخرى ليواجه هذا الظلام الحالك الذي ينبئك بظلمة القبر تحت ملئ التراب.

(الفصل الثامن)

طرقت فيلبونا باب غرفة رومان ثلاث مرات متتابعات، و من بعد أن أمهلته فرصة للرد و لم تتلقاها، قامت بإعادة الطرق بنفس المثل كما فعلت قبل قليل، و لكن بحدة و ثقل، و وقفت منتظرة بأن يفتح الباب لها أو بأن يرد عليها على الأقل، لكنها لم تتلقى أي من هذا أو ذاك، و أستعجبت من عدم تلقيها أي جوابٍ كان و أحتارت إن كان رومان لا يزال غاطاً في النوم، و خصوصاً إن الساعة أقتربت من أن تكون عشر دقائق قبل السابعة، أي أن عائلة غيرسكفيسكي قد بدأت بتناول فطورها منذ فترة، و ها هو رومان يتخلف مرة أخرى عن حضور إحدى وجبات اليوم، و لا يعني هذا بالنسبة لفيلبونا إلا إفتعال مزيداً من المشاكل فيما بين رومان و السيد غيرسكفيسكي، نفثت فيلبونا نفساً غاضباً من مجرد تخيل المزيد من الشجارات و المناوشات التي قد تتكرر في هذا المنزل و تعكر صفوه، و كل هذا أزاد من صورة رومان السيئة التي كانت تتركب و تتشكل في مخيلة فيلبونا، مما حداها إلى إعادة طرق الباب بجرأة جعلتها تطرقه خمس مرات إضافية و بحدة لا تعبر إلا عن الحنق و فقدان الصبر، سمعت أخيراً خرخشة المقبض و هو يدور ليفتح رومان الباب في بطئٍ حذر، و أطل من خلف الباب و هو يحدجها بعينين حمراوتين تنمّان عن فقدان النوم، و شعره مشعث و خداه خاويان و كأنه قد حُبس وراء قضبان سجن إنفرادي لأسبوعٍ كامل، أمالت فيلبونا رأسها جانباً تتفحص وجهه و تحاول في نفس الوقت رؤية أرجاء الغرفة من وراءه، و فاجأها رومان بصوتاً بح.

« لمن تلك الثياب المطوية في الخزنة؟، إذا كنت تعرفين من صاحبتها نخذيها إليها، فأنها تأخذ حيزاً لا يمكنني الإستغناء عنه لضيق مساحة الخزنة ».

رمشت فيلبونا محاولة إستيعاب ما قاله رومان للتو، و خصوصاً لكون صوته و تحت تأثير الإنهاك بدا و كأنه يطلق الكلمات من وراء جدار حجري، و ما أن فهمت ما يتحدث عنه حتى دخلت غرفته عنوة دافعة بالباب دون إستئذان، و تقدمت تجاه الخزنة حيث فتحتها لترى بأنه حقاً قد كانت هناك ملابس نسائية موضوعة بطريقة مرتبة و مهندمة، فأخذت تسحبها الواحدة تلوا الأخرى بكل حذر لكي لا تفسد ترتيبها أو أن تمزق إحداها عن غير عمد، و ما أن أخرجتها كلها و حملتها على ساعدها حتى توجهت للخروج من الغرفة، لكن رومان كان لها بالمرصاد حيث وقف بكل حزم أمامها و أغلق الباب مسنداً يده على لوحه الخشبي، و أشار تجاه الثياب و حاجبيه يرتفعان مع كل كلمة كان ينطقها.

« لمن . . هذه . . الثياب؟!، لا تحاولي تجاهلي أو التقليل من إعتباري بصموتك الوقح هذا، فأنا ألاخذ كفايتي من تلقي الإساءة من عمي السافل ليكفيني الدهر كله، و لا ينقصني أن تأتي خادمة وضيعة و تزيد من الجرح شقاً، فأجيبي على سؤالي، لمن هذه الثياب؟ ».

أقتربت فيلبونا من رومان قبل أن نتوجه بجسدها تجاه الباب و بدأت تحاول إزاحة يده الموضوعة عليه بيدها الأخرى الفارغة، فما كان من رومان سوى أن يقبض على رسغها بقسوة و يسحبها تجاهه لتسقط الثياب أثر ذلك من على ذراعها إلى الأرض، تغيرت ملامح رومان إلى تقاطيع شيطانية و تجاعيد مرعبة، فهو في هذه اللحظة قد فقد صبره، و لم يرى حلاً أو سبيلاً لفرض سطوته إلا بالعنف، فكانت الخطوة التالية منه هو رعص حنكها بقبضة يده في محاولة منه لإغتصاب الكلمات من حلقها، و ردد سؤاله مرة أخرى، لكن هذه المرة و السم يتطاير و يسيل من أطراف فمه.

« لمن هذه الثياب؟، هل ترين سؤال بهذه التفاهة بأنه حقاً ليس سوى فرصةً لك لإحتقار مكانتي في هذا المنزل؟، أجيبيني!! ».

قطبت فيلبونا حواجبها حتى كادا يغطيان محجري عينيها، بينما حاولت بيدها الأخرى تحرير نفسها من بين قبضته، و هي تكرر كلماتاً آمرة.

« أتركني، أتركني و شأني، ليس لك الحق بالتعدي علي، و لا التنمر علي، أتركني و إلا أخبرت السيد غيرسكفيسكي بكل هذه التصرفات، أتظن بأنه سيتساهل معك هذه المرة، كلا و ألف كلا!، فهو لا يسمح لأحد بتخطي حدوده معي، و لا لأي من أفراد هذه العائلة، أتركني الآن و بالمقابل لن أخبره، الخيار لك، كما كان دائماً ».

غلق رومان فمه و أسنانه تصر على بعضها البعض، و أفلت قبضته من على معصمها، و أستدار بإتجاه السرير يحدق في فراشه المبعثر تاركاً فيلبونا خلفه تمسد رسغها الذي أحمر و من ثم لتجمع الثياب الملقاة أرضاً، و كل ما سمعه رومان بعد ذلك هو صوت إرتطام باب غرفته بقوة بإطاره راجاً أرجاء الغرفة كما كان يرتج قلبه من أثر تصاعد وتيرة ما قد حدث، فأخذ يمسد غرة شعره في ندم و حسرة على فعله الشائن هذا، فإن كان المثل يقول ضَربَ عصفورين بحجر، فحجره لم يخطئ كِلا العصفورين فقط، و إنما أرتد عاكساً مساره ليفلع جبهته، فها هو يفرق و يباعد الوصال فيما بينه و بين فيلبونا، و في نفس الوقت لم يحصل على ما كان يريده ألا و هو معرفة صاحبة الملابس التي أخذتها فيلبونا معها، لكن كل هذا الآن يجب وضعه في الخلف حيث أدرك رومان بأن عليه التوجه إلى الدور السفلي و الإنضمام لمائدة الفطور حالاً، مؤملاً عدم رؤية فيلبونا قد سبقته إلى إخبار عمه بما قد حدث.

جلس رومان على مائدة الفطور في نفس الوقت الذي كانت داليا تهم فيه بالنهوض للتوجه إلى مدرستها، حيث إنها ودعت الجميع بقبلة على الخد، ما عدا رومان الذي لم تلقي عليه حتى أية نظرة، حيث كان من السهل التنبئ بتراجعها و نفورها هذا منه بعد أحداث الأمس التي شهدتها و سمعت حواراتها على مائدة العشاء، فجلس الثلاثة منغمسين في إتمام فطورهم بأسرع وجه، على الأقل إيفان و دانيا كانا كذلك، و ما أن أنتهى إيفان من الفطور و قام من على مقعده حتى مر من خلف رومان و توقف ليلقي عليه كلمات سريعة و خافتة.

« إنهي فطورك بسرعة، و قابلني في مكتبي، فأنت لن تستطيع التوجه إلى وظيفتك الجديدة بدون التوجيهات و المعلومات التي سأفيدها لك، فهلم بسرعة، أحسناً؟ ».

و ما أن قال هذا حتى مضى مسرعاً يعلوا درجات السلم بهمة، فيما ظل رومان و دانيا لوحديهما على الطاولة صامتان، لا تسمع سوى صوت قرقعة إحتكاك الملاعق و السكاكين على أسطح الصحون، توقف رومان عن تناول الفطور بعد أن أحس بلوعة في أحشائه جعلته يظن بأن كل ما أكله و لو كان قليلاً سيرجع قافلاً من فمه كما دخل، فأبعد رومان الصحن بعيداً عن نفسه و ألقى بجانبه الملعقة من يده بتقزز، مما جعل دانيا تلاحظ ما كان يحدث و أخذت تنظر إليه بإستطلاع مريدة معرفة ما يحدث له، فأخذ رومان يطمئنها مستخدماً تعابير وجهه في محاولة منه لإبعادها عن أي شيئ يخص شأنه، فعمه كان كفيلاً بما فيه الكفاية بهذا الخصوص في نتظيم شوؤنه ليجعله يرغب ببعض الخصوصية و الحرية حتى في أمرٍ هين و تافه كإهتمامها هذا الغير مرغوب فيه بشعوره بالغثيان، فقام من على طاولة الفطور نافضاً يديه، و دانيا لا تزال تشزره من طرف عينها تراقب حركاته تحت غطاء إدعاؤها بكونها مشغولة في تناول الفطور.

كان إيفان واقفاً مديراً ظهره تجاه الباب، حيث كان ذلك الظهر ما رحب برومان عند دخوله المكتب، و أبخرة دخان السجائر تملئ أرجاء الغرفة و تلامس كل جدرانها تاركة بصماتها الصفراء على أسطحها الملساء، أستدار إيفان في إدراك لدخول رومان و أشار إليه بحركة ناشة من يده بالجلوس على أحد الكرسيين المتوافرين في هذه الغرفة، حيث أتخذ إيفان مكانه المعتاد خلف مكتبه الذي لا يمكن أن تعلم ما هو لون سطحه من كثرة تكدس الحاجيات و الملفات المتراعصة عليه واحدة جنب الأخرى، نفض إيفان عقب سيجارته في المنفضة قبل أن يستدرك نفسه و يقوم بإطفاءها مجملاً، حيث أنه قد وجد نفسه في الآونة الأخيرة لا يستسيغ طعم النيكوتين في فمه و خصوصاً في هذه الفترة المبكرة من اليوم، مد يده تجاه كدسة الملفات و أستل واحداً منها، و فتحه ليتأكد من محتواه قبل أن يوجهه تجاه رومان ليأخذه و يقرأه، فتح رومان الملف الذي لم يكن يحتوي سوى على ورقتين، واحدة كما خمن عليها نص إتفاقية الوظيفة التي تدل على توظيفه بشكل رئيسي كحدائقي براتب معين و لم يكن ينقص هذه الورقة سوى توقيعه، و على الورقة الأخرى قد رُسِم عليها تعاليم الوصول إلى منزل السيد غوربوف، فما كان من رومان سوى أن يأخذ أحد الأقلام من محبرة السيد غيرسكفيسكي و يباشر بخط توقيعه أسفل الورقة الأولى بدون الإطلاع عليها منهياً بذلك كل تلك المناوشات التي قد حدثت بالأمس، و بدا إيفان مرتاحاً و راضياً عن إتمام هذه المسألة بهذا الهدوء الذي لم يحتج أي منهما خلاله بأن ينطقا حتى بكلمة واحدة بعد لغي أمس الطويل!.

وقف رومان في فناء منزل عمه مستنداً بمرفقيه على سياج المدخل، يراقب الحركات الضئيلة التي كانت تحدث أمامه، فهاهن ربات منازل الحي قد وقف بعضاً منهن أمام فناء إحدى المنازل يتحاورن و يتضاحكن بأصواتاً مليئة بالرخاء و الراحة حيث أن جميع أعمال منازلهن تقوم بالتكفل بها عاملات و خادمات قد وظفن لإراحتهن و إعفاءهن من التكفل

بأي من ذلك، و هذه هي التسمية التي حقاً يستحقنها، "ربات"، فهن من إستيقاظهن إلى ساعة رقودهن لا تتطاول أيديهن أية حاجة تخص المنزل إلا و هي قد قضيت مسبقاً، فيسرحن، و يمرحن، و يأكلن، و يأمرن، و يطاعون في كل كلمة يلقونها، فإن كنت على الرغم من هذا لا زلت لا تظن بإنهن قد أتموا المواصفات اللازمة ليحصلن على لقب ربات، فأميرات على الأقل قد يكون لقباً أنسب لوصف حالهن، و على الجانب الآخر بمسافة ليست بالبعيدة كانت ثلة من الأطفال يتلاعبون و يتراكضون، مشهد لا يختلف كثيراً عن ما شهده رومان صباح الأمس، و في الحقيقة بعد أن أمعن النظر في ملامحهم و تقاطيع أبدانهم أستيقن بأن هؤلاء الأطفال هم أطفال أمس بذاتهم و حالهم، و مرة أخرى رأى أحد الأطفال ينشق من منظومتهم التي كانت أشبه بسرب نحل متحرك، و يتوجه تجاهه بكل عزم و حسم، فتعرف رومان على أن هذا الطفل هو طفل الأمس أيضاً، الأصم و الأبكم، وقف أمامه مثل وقفته بالأمس، و أخذ رومان يحدق فيه و على وجهه علامات النفور و الإحتقار، حتى مل من هذه المواجهة السخيفة، فأخذ يرقب حوله و يتلفت يميناً و يساراً قبل أن يقرب فمه من أذن الطفل و أخذ يتلفظ بأبذئ الكلمات و أقساها و أشنعها صوراً، و هو يحاول كتم ضحكاته، فهو قد وجد في ذلك لذة و تنفيس عن المكبوت، فما شأنه و شأن هذا الأصم الأبكم، و ما الضرر بفعل هذا إن كان هو لا يسمع و لا يوتعي لما يقال له، و حتى و إن كان يسمعه و يعيه فما الذي بإمكانه فعله و هو مجرد طفل بهذه السن التي في حينها لا يملك في كلماته أي وزن أو إعتبار، و من الواضح أيضاً بأن هذا الطفل من ذلك الصنو من الأطفال المعتكفين و المنغلقين على أنفسهم، و مهما فعلت له فهو لن يشكوك أبداً إلى أحد والديه أو أي من أقرباءه، و لا بد بأن إعاقته هذه التي تمنعه عن التواصل فيما بينه و بين أترابه قد أحالته كهدف سهل للتنمر منهم، و لكن ها هو يعتبر كجزء منهم بإعتباره كواحداً من منظومتهم، مما يعني بأن والديه لم يمنعانه عن ملازمتهم، و الذي يعني بذلك عدم إدراكهم لمعاملتهم السيئة له و التي و لا بد

بأنه يقاسيها، و قد تقول ما الذي يجعلك متأكداً بأنهم يعاملونه بجفاء و بقسوة؟، و الجواب على ذلك هو أن الدليل واضح على أن آثار التنمر النفسية باديه عليه، فها هو يركض لليوم الثاني على التوالي تجاه شخصاً غريب عنه، مفضلاً مقابلته بصموته الواجم هذا على التواجد في ذيل موكب أولائك الأطفال، فلمعت فكرة في ذهن رومان، و أخذ ينقر بأصبعه على السياج محاولاً إكمال فكرته على أحسن وجه لتنفيذها بفعالية محكمة، أقرب رومان وجهه من وجه الفتى محاولاً إيجاد طريقه للتواصل معه و إيصال ما يريده أن يدركه من كلماته و ما يشير به من حركات يقوم بها بيديه.

« إسمع يا هذا، أنت تكره أولائك الأطفال المقتين، أليس كذلك؟، لا تحب مرافقتهم و لا مصاحبتهم، أليس هذا صحيحاً؟، و أنت بالأحرى من ذلك تريد مرافقة شخص يحترمك و يقدرك و لا يهين ذكاءك فقط لكونك لست قادراً على إيصال أفكارك بوضوح، و لهذا أنت قد أتيت هنا، لتقف أمامي، فأنا ضالتك و منشدك، فأنت بوقوفك هذا تعرض علي صداقتك و تريد مني قبولها، لا بد من ذلك، و خمن ماذا؟، أنا قد قبلت عرض الصداقة هذا، و لا أخفي عليك بأن هذا قد أستلزمني يوم أمس كله لأفكر فيه، فالحصول على صداقتي ليس بالأمر الهين، و أنا لا أعرضها و لا أقبل مثلها بكل سهولة، لكوني شخص كثير المشاغيل لدرجة لا تسمح لي بقضاء أي وقت في مصاحبة أي شخص، فها أنا أمامك تراني لا أملك أي أحد بجانبي، . . . و لكن . . . ، أنت شخص مختلف عن الكل، لقد لحظت هذا منذ الوهلة الأولى التي لمحتك فيها، و رأيت الشهامة و الفضيلة تلمعان على صفيحة عينيك، و وقفتك الشامخة هذه التي تخضع أي شخص ليحترمك و يجلك مهما كان، نعم!، أنت الشخص المثالي لمصاحبتي، فمن هذه اللحظة و لوقت لا يعلم إلا الرب مداه نحن أصدقاء و أصحاب، لا يجب أن نفترق ما دام إحدانا في حضرة الآخر، . . . ، ما رأيك، أليس هذا رائعاً؟ ».

أخذ رومان يحدق في وجه الفتى بعيون لامعة و نجلاء، و بإبتسامة تشق الشفاه و تمزقها، فيما ظل الفتى مكانه بنفس التعابير و لم تتغير منه لمحة واحدة، فأستمر رومان على هيئته هذه و يديه على خاصرته آملاً من الفتى أن يظهر أية علامة منه على فهمه لما قد قال أو حتى لإداركه لما تعنيه ملامحه التافهة و المدعية و المخزية هذه التي يصطنعها، لكن الفتى ظل على عناده الغير مقصود، فما كان من رومان سوى أن يمسكه من ذراعه عنوة في يأس من محاولة إفهامه، فلا نفع الآن إلا الإحتكام إلى الإجبار و الجرجرة.

« إسمع يا هذا، نحن أصدقاء الآن، أنت عرضت علي صداقتك، و أنا قبلتها، فلا يمكنك التراجع عن هذا، فإن فعلت ذلك فأنت لست برجل حقيقي، أتدرك هذا؟، و هناك شيئاً آخر أتمنى أن تكون مدركاً أياه، و هو وقوف الأصدقاء بجنب أصدقاءهم في وقت الحاجة، و معاونتهم في كل ما يريدون مهما تطلب ذلك من تضحية، و خمن ماذا؟، صاحبك هذا الذي يقف أمامك في حاجة للمساعدة، و أنا أطلب منك تقديم تلك المساعدة، و أنت ستنفذ ذلك سواء رضيت أم أبيت، أاتفقنا؟، . . . ، و الآن هيا بنا نمضي، فالوقت لا يسعفنا للوقوف هنا و الثرثرة فقط كمثل أولائك العجائز الفاضيات، فنحن أفضل منهن حالاً، و ما نحن إلا رجالاً ذوي مشاغيل تتطلب منا إتمامها، فهيا بنا نمضي إلى حديقة السيد غوربوف! ».

أحكم رومان قبضة يده على معصم الفتى و أخذ يجرجره خلفه، و في الحقيقة هو لم يحتج للكثير من القوة لفعل ذلك حيث إن الفتى لم يظهر أية ممانعة أو مقاومة لما كان يحدث له، و لم يخطون سوى بضع خطوات حتى سمع رومان صوت فتاةٍ ما تنادي من خلفهم.

« سيرغي!!، إلى أين أنت ذاهب؟ ».

ألتفت رومان إلى الخلف بخشية، مما جعل الفتى الذي غدى واضحاً بإنه يدعى بسيرغي يلتفت هو الآخر للخلف ليرى ما المسبب لهذا التوقف و الإستدارة المفاجئة، فتقدم رومان و حجب سيرغي خلفه و يده لا تزال تقبض بإحكام على معصم الفتى، و أخذ يحدج الفتاة التي قد وقفت أمامه تلتقط أنفاسها، فلحظ رومان بإنها هذه هي الفتاة التي شرحت له حالة سيرغي بالأمس، و خرص في هذه اللحظة بإنها قد تكون موكلة من قبل إما والديها أو والدي سيرغي بالإعتناء به و مراقبته و التأكد من عدم تعرضه لأية مشكلة قد تنجم أثر إعاقته، و لم يرى رومان أي داعي للحذر أو الخوف من هذه الفتاة ذات الملامح البريئة و الملائكية، فنظرة واحدة إلى عينيها الكبيرتين و وجنتيها الممتلئتين و وقفتها المتحفظة و المجولة تجعلك تدرك بكونها سهلة الإنقياد و الطاعة هي الأخرى، فعمق رومان من حدة عينيه، و عفس تقاطيع وجهه ليزيد من رهبته.

« لا شأن لك بهذا يا فتاة، فسيرغي هو صاحبي من الآن و صاعداً، فإذهبي و جدي شخص معوق آخر لتعتني به، أوتدرين؟، ربما تلاقين قطاً جريح ملقي على أرصفة إحدى الشوارع، فإذهبي و وجهي حنانك الفائض هذا و عطفك الباسل تجاهه، فهيا أنصرفي عنا ».

أنقلبت تعابير الفتاة إلى حيرة و إرتباك، و بدت على وشك الإنهمار في البكاء لولا تماسكها لحال نفسها، فهي و إن كانت خائفة من هذا الرجل الغريب و المخيف، فهي لن تتراجع بكل هذه السهولة، و تدع سيرغي يقاد بغير رضاه وتحت سطوة رجل لا يعرفانه، و أخذت تحاول رؤية تعابير سيرغي من خلف ظهر رومان، لكن لا سبيل لذلك، و حتى و إن رأته فلن ينفعها ذلك بشيئ، حيث إنها كانت مدركة لجمود سيرغي و إعتكافه عن التعبير عن أي شيئ يجول في دواخله، على عكسها هي التي كانت فرائضها ترتجف و ترتعش تحت ضغط أي موقف، لكن لا جدوى هنا لها سوى الصمود.

« معذرة، لكن من أنت؟، فنحن لم نرك هنا من قبل سوى بالأمس فقط، و ماذا تريد من سيرغي؟، فلقد قلت لك بالأمس، إن كنت قد ظننت بإنه قد أهانك أو أساء إليك في أمرٍ ما، فأتوسل إليك بأن تتغاظى عن ذلك و تعطف عليه بتسامحك عن ما قد فعل أو سبب، فهو كما قد قلت و شرحت لك مسبقاً لا يسمع و لا يتكلم، بتاتاً!، فالأمر خارج قدرته و إستطاعته، و سيكون من القسوة أن تطلب منه التصرف كما يتصرف الأطفال الآخرون و تحكم عليه بتوقعات تتطلب منه شيئاً خارج قدراته، أليس كذلك؟ ».

قهقه رومان من كلامها هذا، فالأمر واضح بإنها تردد كلاماً قد لقنت إياه من قبل أحد الكبار، في محاولة منهم لإلقاء عبئ هذا المعوق على كاهلها، و بالطبع هذا الكلام لا يأخذ مفعوله إلا على طفل ساذج، و ليس أي طفل، بل يجب أن يكون من الصنو العطوف و ذو المشاعر الجياشة و المتدفقة، مثلها تماماً!، رفع رومان أصبع يده في وجه الفتاة بحركة تحذيرية و متوعدة، و أخذ يهددها بكلمات بالكاد تخرج سليمة من بين تفاريج أسنانه المصطكة على بعضها البعض في حنق و غضب واضح.

« إسمعي هنا يا هذه، أنا لست بأحد رفقائك الأطفال أولائك لكي تنطلي علي هذه الكلمات السخيفة و الخادعة، و لست مجبراً على إجابة أي من أسئلتك هذه أو تفحصاتك، فكل ما يجب عليك فعله الآن هو السكوت و إطباق فمك بينما أخبرك بما يجب عليك تنفيذه بحذافيره، أاتفقنا؟، . . . ، حسناً، سيرغي و أنا لدينا بعض الأمور المهمة و الطارئة لنقضيها، و أنا أعلم بإنك هنا لتأخذيه معك إلى المدرسة، و ربما لم يخبروك أهلك أو مدرسيه، لكن سيرغي قد غدا معفي في هذه الفترة عن الحضور للدروس المدرسية، حيث أن الأمر بات واضحاً بأن تلك الصفوف المخصصة لذوي الإعاقات لا تجدي معه نفعاً و لا طائل منها في تحسين أموره، و لذلك أتفقنا أنا و إدارة المدرسة بالإهتمام به، و تعليمه على طريقتي الخاصة التي تتواكب مع

ظروفه، فليس هنا أي أمر سيئ أو مريب يحدث هنا كما تظنين، مجرد إساءة فهم منك، و أنت لست ملامة على ذلك، فمن سيخبرك بمتطورات الأمور و أنت لست في نظرهم سوى طفلة صغيرة لا تعي الحال، لذلك لا تقلقي بشأن سيرغي بعد الآن، و دعيه لي بأمان بين يدي، و أعدك بأنه في غضون أقل من سنة سترينه يرطن بلسانه و يغرد كالعصفور، و يسمع نداءك و لو كان في آخر طرف للمدينة، و ها نحن قد أنتهينا من إيضاح هذا الأمر، فما يجب عليك الآن فعله هو اللحاق بأصحابك اللذين سبقوك إلى المدرسة، هيا أذهبي بسرعة و إلا أعابوك على بطئك، هيا حركي رجليك و أركضي! ».

أخذت الفتاة ترجع بعينيها من رومان إلى سيرغي الذي كان قد بان من خلفه في هذه اللحظة، ساكناً و هادئاً لا ترى أية علامة خوف أو ذعر على أي جزء من أنحاء بدنه، فأخذت الفتاة تتراجع بخطواتها لتنفذ أوامر الرجل الغريب و هي لا تزال ترمقه بنظراتها الشاكة و الغير مطمئنة، حتى تدافع زخم جري رجليها و أخذت تركض خلف الأطفال الآخرين اللذين كانوا قد غدوا مجرد نقط متحركة ترى في آخر الشارع، فأستدار رومان بعد أن أطمأن من إنقضاء هذه المعضلة بكليتها، و أخذ يكمل طريقه متبعاً التعليمات المرسومة على الورقة التي تدله إلى الطُرق التي يجب عليه سلكها ليصل إلى حيث تقبع حديقة السيد غوربوف و منزله، و يده الأخرى لا تزال تهرص معصم سيرغي، الفتى الأصم الصامت.

وقف رومان في وسط إحدى الطرق الفسيحة و الخاوية، طريقاً ترابي ينبئك بمغادرتك للأحياء المدنية و دخولك لحواشيها و قطاعاتها النائية، حيث لم يعد يتراءى أمامه سوى الفسحات البعيدة المدى التي لا تحُدها سوى غابات الأشجار التي أنداحت على الأفق البعيد، و أحتار رومان في أية جهة يجب عليه أن يسلكها الآن، أو حتى إن كان هو حقاً على الطريق القويم أم لا، فهل يمكن أن يكون منزل رجل أعمال بارز كمثل السيد غوربوف في

منطقة بعيدة و منعزلة كهذه؟، لا يبدوا الأمر معقولاً، فألتفت رومان إلى الخلف حيث أعترضه بدن سيرغي، و الذي هو الآخر كان رومان قد تناسى أمره و غاب عن باله، فطرأت في هذه اللحظة و بعد لأْي فكرة لا تعبر سوى عن اليأس و الإستسلام و عن اللجوء إلى الملاذ الأخير و الرجم بالغيب، فوضع رومان خارطة الطريق أمام ناظر سيرغي، و أخذ يشير على المربع المرسوم على طرف الورقة و الذي يدل على منزل السيد غوربوف، و سيرغي الذي بدا بشكل دائم غير مهتم أو عابئ بما يحدث حواليه وقف ينظر إلى الورقة بسهامة و سرحان، حتى أخذ رومان يصرخ و يلعلع طالباً منه أن يدله على الطريق و إلا، لكن سيرغي الذي لم يدرك و لم يستشعر الجلجلة و الحس الطارئ الذي كان يحيط به أستمر في الوقوف و التحديق غير واجفاً عينيه و لو لمرة واحدة، وضع رومان يده على كتف سيرغي و أخذ يضغط عليه حتى ألتوى سيرغي تحت تأثير الألم الذي لم يستطع تجاهله، و أعاد رومان الورقة أمام ناظره مرة أخرى، و أكتفى بالإشارة على مطلبه فقط هذه المرة بدون الصراخ و العويل الذي أدرك بشكل سريع عدم جدواه مع سيرغي، فأعاد سيرغي النظر و التحديق في الورقة مرة أخرى، لكنه في هذه المرة فاجئ رومان بالإشارة إلى إحدى الجهات التي تميل جانباً على آخر الطريق أمامه، فدفع رومان بسيرغي أمامه ليتقدمه في المسير و يكون دليله الذي لا يضلله.

أنتصب المنزل أمامهم بوساعته و حيزه الضخم، و كان رومان من شدة إنبهاره أثر رؤيته لحجم هذا المنزل أنه أخذ يخطوا خطوات واسعة يميناً و يساراً في محاولة منه لإحاطة المنزل و تقدير طوله و عرضه، فيما كان سيرغي مكاتفاً ذراعيه خلف ظهره في إنتظار منه لرومان بأن يتخذ الخطوة التالية، ألا و هي طرق الباب، فضغط رومان زر جرس المنزل الذي صدح بصوته الصاخب أرجاء المنزل في الداخل، و ما هي إلا ثواني حتى فتحت الباب إحدى الخادمات، و ما أن رأتهم حتى أستدارت للخلف من حيث أتت و أغلقت الباب في وجه

رومان الذي أخذت تعابير وجهه بالتغير في الحال معلنة عن غليان دمه جراء هذا الفعل المهين الذي قامت به الخادمة تجاهه، لكن كل هذا قد خمد بعد أن فُتح الباب مرة أخرى، لكن هذه المرة كان من خرج ليقابلهم هو رجلاً طاعن في السن، يرتدي لباساً خاص للأعمال اليدوية، خرج من المنزل و أغلق الباب خلفه، و أخذ يخطوا مبتعداً عنهم متجهاً للجهة اليسرى من المنزل، و ما أن تقدم خطوات معدودة حتى ألتفت للخلف و حدجهم بنظرات مستعلمة.

« أتنتظران أن تأتي العربة لتقلكما يا أميراتي الصغيرات؟، هيا بنا!، هلما بسرعة يا سفلة! ».

تبادل كِلا من رومان و سيرغي نظرات محتارة، فكانت حيرة رومان هي من هذا الأسلوب البغيض في توجيه الكلام إليه، و هو الذي كلف نفسه عناء المجيئ كل هذه المسافة، و كانت حيرة سيرغي هي من عدم إتباع رومان لهذا الرحل العجوز منذ البدء!، حيث بدا له واضحاً من الوهلة الأولى بأنه مكلف بالتكفل و الإهتمام و مراجعة سبب مجيئهما هنا، و الذي لا يزال سيرغي غير مدركاً بماهيته أو حتى ما الذي يفعله هو هنا عوضاً عن تواجده في المدرسة!، دفع رومان بسيرغي أمامه مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يكن ذلك بداعي جعله كمرجع للإستدلال للطريق، بل ليكون كحاجز يقع بينه و بين ذلك العجوز اللئيم.

(الفصل التاسع)

تراءت الحديقة أمام أعينهم بكل بهائها و جمالها، مختبئة خلف المنزل، مسورة بسياج يرتفع عن الأرض بمسافة تقارب المتر أو أقل، مما يسمح للقادم و الآتي برؤيتها في أروع حلتها و من دون أن يغمر نفسه في الداخل فيما بين حرائشها، و يصل ما بينها و المنزل طريق يشابه الجسر في بنائه و تشييده، و يمتد هذا الطريق من الحديقة إلى ساحة الشرفة الأرضية للمنزل حيث نصبت كراسي إسترخاء على أطرافها، و لا يُرى وراء الحديقة أي شيئ من منازل أو مشيدات سوى المروج الخضراء التي لا تبدوا و كأن لها نهاية، و أستطاع رومان أن يرى من هذه المسافة التي وقف فيها أصناف الأشجار التي تحتويها هذه الحديقة، على الأقل الاتي برزن من بين خليلاتهن و سمقن مرتفعات عنهن، فها هي شجرة جراد العسل مباشرة في واجهة الحديقة، و من على جانبها رأى شجرة الكرز الهندي المتميزة بلون أوراقها المائل للأحمرار، و من على الجانب الآخر كانت شجرة الخوخ بميلانها للأسفل المشابه للذبول، و في الوسط برزت عالية من بين كل تلك الأشجار و بدت من علوها و كأنها ستلامس هامة السماء، كانت هذه هي شجرة الصفصاف المعروفة بتغطيتها لمساحة كبيرة من التربة و التي لا تسمح بأن تجاورها أية شجرة أخرى، منعزلة و معتكفة لحالها، و على الرغم من ذلك فهي لا تزال تعتبر من أكثر الأشجار التي لطالما تتوافد جموع و حشود الناس إليها للتظلل تحت أوراقها الوافرة و الطويلة.

« كم مرة يجب علي أن أصرخ في وجهك لكي تنتبه إلي؟! ».

ظهر العجوز الأدرد مباشرة أمام وجه رومان الذي أفزعه رؤية هذا الوجه القبيح و البائس بهذه القرابة منه، فيما أشار العجوز بأصبعه تجاه مدخل الحديقة آمراً رومان بأن يتقدم المسير و يكون أول من يدخل من بينهم، حيث كان سيرغي كالأمتاع المهملة و الملقية جانباً

لا يزال مكاتفاً يديه خلف ظهره و علامات الفتور و الركود لا تبارح وجهه، تقدمهم رومان و من ثم تبعه العجوز الذي بدوره تجاهل سيرغي المتذيل خلف الصف، و رحبت برومان رائحة التربة الغضة و المترعة بالسماد التي تدل على شدة الإعتناء الذي تلقاه، فيما أتضح له مشهداً لم يكن ليتمكن من رؤيته من الخارج، ألا و هو صفوف الأزهار و الورود بشتى أنواعها و أحجامها، شكلت هذه الصفوف مربعاً يحيط بحيز الحديقة كاملاً، و يحد الأشجار المطلة إلى الخارج، فيما أنتصبت في وسط الحديقة شجرة الصفصاف بكل روعتها و حجمها الذي أستطاع رومان ملئ جل عينيه متفحصاً إياها من أعلاها حيث أوراقها حتى أخمصها حيث جذورها، تاركاً العجوز ليتواثب من قطعة إلى قطعة أخرى يتفقد هذه الشجرة أو تلك الزهرة، حتى ظهر مجدداً أمام رومان و هو يحمل بين يديه عدة أدوات، من مشذب، و مقص، و محراث، و رفش، و كثير من الأدوات التي لم يعرف رومان إسمها أو لم يتعرف عليها.

« إسمع يا هذا، و إنتبه جيداً لما سأقول و لما سأريك، فأنت الآن الموكل بهذه الحديقة، و لكن ليس قبل أن أناولك أنا هذا المنصب، و لكي تحوز عليه، يجب عليك إظهار قدرتك، و فهامتك، و إثبات جدارتك للنيل على هذا المنصب، فسؤولية هذه الحديقة في هذ اللحظة ما زالت تقع على عاتقي، سواء أشئت أنا ذلك أم أبيت، و لن أسمح لك بتخريب كل ما قمت به عبر السنين و تدميره في بضعة أيام، أسمعت؟، ذلك لن يحدث أبداً!، على الأقل ما دمت حياً و أتنفس هذا الهواء العليل فلن تتدهور حال هذه الأشجار و الزهور و الورود، و تيقن بأني سأكون دائماً متأكداً من ذلك، و سأجعلك مهيئاً لمنع الحول إلى تلك الحال، و سأغرس تعاليمي و توجيهاتي في دماغك كما غرست هذه الأشجار بعناية، لن تُقْطَع وردة من مكانها، و لن تسقط ورقة من إحدى الأشجار قبل أوانها، و لن يمحي أثر السقي على التربة إلا من تشبع

الأشجار و الزهور و إمتلاءها بماءها، فهذه ورثتي، و هذه فخري و إبتهاجي، و لن أسمح لشاب ريعان مثلك بأن يفسد أي من هذا، أفهمت؟ »،

كاتف رومان ذراعيه في إعتكاف عن تقبل هذه المذلة التي أخضعه هذا العجوز إليها، و رفض حتى أن يتعطف بقول كلمة من فمه، فكل ما سمح لنفسه بأن تتكلف بفعله هو هز رأسه بخفوت، و شفتيه مزمومتان، و لم تفت هذه التعنتات من تحت مرأى العحوز الذي أخذ يلحس شفته السفلى محاولاً منع نفسه من عضها من شدة حنقه و غضبه إزاء هذا التصرف الصلف، و لكنه لم يجد سبيلاً غير إكمال طقوس التلقين هذه التي لم يرتح لها و لم يحبذها إلا لكونه قد بلغ من الكبر حد فقدان التبرم و التجلد اللذان يتآكلان عند بلوغ عتبات هذه السنين المتقدمة كما تفتت عظامهم الواهنة، فأنت لن ترى يوماً عجوز يتكئ على عصا بإستحباب من نفسه، و لكن إلا من حاجة لا رجوع أو إستغناء عنها.

« حسناً يا هذا، و الآن و قد إنتهينا و عقدنا إتفاقنا على شروطنا الأساسية، إحمل هذه الأدوات و أتبعني و راقب كل حركة أقوم بها مهما ظننت بأنها قد تكون غير مهمة بالنسبة لك، فالغر لا يعلم و لا يرى النجوم إلا كحبات ألماس لا هدف لها سوى اللمعان و البرقان، و لكن المنجماتي يدرك أهمية كل من تلك النجوم حتى الخفية منها و التي لا تظهر و لا تبان، فلا تحتكم لما يقوله عقلك المبتدئ، و إنما إتبع كل كلمة يقولها لك الحكيم المقتدر، فهيا بنا نبدأ »،

أرتفعت الشمس لتعامد قبة السماء، و أغدقت من نورها الوضاء ما يسمح به لرؤية الشيئ بكل دقائقه، سواء الجميلة منها أم القبيحة، فكان العجوز الأدرد بتجاعيد وجهه الأشبه بخنادق الوديان يزمجر و يئن من تبعات المجهود البدني الذي كان يقوم به على أتم وجه، محاولاً إيصال سر صناعته لهذا الشاب الذي لم يرى بأنه يستحق كل هذا العناء الذي يبذله لتعليمه،

لكن لأسفه لا رأي له هنا سوى إتباع التعليمات الصادرة من مستخدميه، فيما كان رومان يزخ عرقه الذي تصبصب بمقادير قد أبلت ملابسه و أغَطّت بدنه، و ذبل شعره على رأسه كطحالب بحرية راكدة في قاع بحرٍ هادئ، و كان يتبعهما في كل خطوة يقومان بها سيرغي الذي كان كما هو دائماً، متصلب و متزمت كفيلسوف رواقي، يراقب كل حركة يقومان بها، و يتحرك بخفة لا تلحظ منها أثراً أو صوت، و ظلوا على حالهم هذا لساعة أخرى من بعيد هذا الزوال، حتى أنتهيا أخيراً و رجعا من حيث بدءا عند مدخل الحديقة، و وضع العجوز عدته في مخزن وُضِعَ على زاوية لا تكاد ترى، مختبئة وراء حرائش و أوراق، و أشار لرومان ليفعل مثله كما فعل، و ما أن أستيقنا بأن العمل قد تم و أنتهى حتى خرجا من الحديقة.

« لا بأس بهذا، هذا يكفي و يوفي، لا أرى أي سبيل الآن لتضييعك زمام السيطرة على أوضاع هذه الحديقة حتى لو حاولت، و أأمل أن تكون قد فهمت الهدف من كل شيئ قد قمت به و أريتك إياه في الداخل، و أن تطبقه كما هو و لا تغير أي شيئ منه، . . . ، في الختام كل ما أريده منك هو أن توعدني بأن تبذل على الأقل كل ما تستطيع من مجهود في إستطاعتك تسخيره في عنايتك لهذه الحديقة، فهذا ليس بالشيئ الكبير لطلبه في حال تفحصناه حقاً، أحسناً؟ ».

جلس العجوز و رومان على مصطبة الشرفة، بعد أن نهره عن محاولة الجلوس على إحدى الكراسي المخصصة فقط لأفراد عائلة هذا المنزل، و حتى إن لم تكن الحال كذلك، فعلى الأقل و من باب اللياقة كان يجب على رومان أن يدرك بأنه سيلطخ قماش الكراسي بعرقه المتصبصب هذا، فيما أنسل سيرغي من خلفهما من حيث لا يشعران و أسند أسفل ظهره على إحدى تلك الكراسي، أرجع رومان ظهره للوراء قبل أن يلقيه على الأرضية الخشبية في

إنهاك و لغب، بينما كان العجوز قد أنحنى للأمام لكون عظامه المتهالكة لا تسمح له بإسناد ظهره أو تقويمه و هو في هذا العمر.

« أتعلم؟، أنا أريد حقاً أن أثق بقدراتك و أن أؤمن بأن نيتك حسنة في تدبر هذه الوظيفة على أحسن وجه، لكنك لا تعطي هذه الطمأنينة، ففقط من أول نظرة ألقيتها عليك لحظت تكبرك و تعنتك، و لا تحاول إنكار هذا، فأنا لم أقضي كل هذه السنين في عمل لا شيئ كالمغفل، ففي عمري هذا لا أرى ضرر من الإحتكام مباشرة لما تخبرني به خبرتي، فأنا بقولي لكل هذا أريد أن أكون واضحاً في موقفي أزاء هذا الموضوع، ألا و هو توليك وظيفتي في هذا المنزل، فأنت لا تبدوا مهتماً بهذا النطاق من العمل و لست مكترثاً حتى بأبسط مواضيعه، فأنت لم تسألني حتى عن ما هو إسمي!، تخيل هذا، الشخص الذي نتولى منصبه و مكانه و أنت لا تريد أن تعرف لا عنه و لا عن الوظيفة التي تستلمها منه و لو حتى بالقليل، فيا للمهزلة هذه التي قد حلت على رأسي! ».

أمسك العجوز جبهته و أخذ يمسدها بحركات دائرية من إصبعيه، و تنهداته لا تنقطع و لا نتوقف، فيما ظل رومان على حاله غير مكترث لما يقوله له هذا العحوز المتشائم و المتهكم، فظل يحدق فقط في سقف الشرفة، حتى لمح من آخر مجال بصره لوناً دخيل يتقرب منه حتى تشكل بشكله الكامل و لكن المقلوب و ملئ نطاق عينيه، أنهض رومان ظهره و أستند على مرفقيه مديراً رأسه للخلف ينظر إلى الفتاة الصغيرة التي تجلت أمامه و وقفت تحدق في الضيوف الدخيلين، حتى نهض العجوز و رحب بالفتاة.

« أهلاً بعودتك آنسة فيولا، أتمنى أن تكوني قد أستمتعي و أستفدتي من يومك الدراسي هذا، . . . ، آه، هذا الحدائقي الجديد الذي أخبرتك عنه، لقد وصل هذا الصباح و أعلمته بكل ما أستطيع أن أنقله إليه من خبرة قد تتواجد لدي ».

أرجعت فيولا بصرها من العجوز إلى رومان و من ثم إلى العجوز مرة أخرى، و بدت في عدم إرتياح لأن تنطق بما تريد أن تقول، على الأقل ليس أمام هذا الجمع.

« أحقاً سترحل يا عم نيكولاي؟، لقد كنت أظن في بدء الأمر بأن كل هذه ليست سوى مجرد خططاً مستقبلية لن يأتي وقت أوانها آنياً، فهذا الذي يحدث أمامي هو سابق لوقته، و يضعني أمام الأمر الواقع، و أنه ليحزنني أن ينتهي الحال بنا هكذا و بهذا الهدوء و الركود، فلا أحد حاول المقاتلة من أجل بقاءك، لا والدي و لا أختي، و لا حتى أحداً من العاملات، مع أن كل هؤلاء اللذين عددتهم يجلونك و يقدرون مكانتك، فيا للأسف على هذا التخاذل الذي لم أتوقعه بأن يصدر منهم ».

أقترب نيوكلاي من فيولا و أخذ يمسد شعرها بحنية و بمواساة غير مكترثاً بكون يده ما زالت تعبق برائحة التراب الذي لا يمحي بغسلة واحدة بالماء، و لا كانت فيولا مهتمة بذلك هي الأخرى، حيث أنقَضّت عليه تحضنه مطوقة ذراعيها حول خاصره النحيل، و هي تتمتم و تهذرم بكلمات تترجاه بها بعدم الرحيل، و نيكولاي يرد عليها هو الآخر بكلمات نمطية لا تعلم حتى إن كانت تتناسب مع ما كانت تطلبه، لا هدف منها سوى إستجلاب التطيب و السلوان، حتى أفترقا أخيراً و أخذت فيولا تمسح دموعها بظاهر كفها، فيما أشار نيكولاي على رومان بالنهوض و تعريف نفسه، و أستطاع رومان أن يخمن مكانة هذا العجوز و جلالته لدى هذه الفتاة الصغيرة، فالعلاقة بينهما ليست علاقة عامل و إبنة موظفيه، و لكنهما بديا له و كأنهما

أقرب لأن يكونا أفراداً من عائلة واحدة تجمعهما صلة دم، فتقدم رومان منهما على مضض، فهو لا يريد أن يلامس لا من قريب و لا من بعيد هذا الجو المسمم بالعاطفة الجياشة و المبتذلة.

« أنا الحدائقي الجديد، رومان غيرسكفيسكي ».

و لم يقل أكثر من ذلك، و لم يبادر حتى بمد يده لمصالحتها، حيث ظلت يده مختبئة في جيب بنطاله، و أخذ يستطلع فيولا بعينين حذرتين تتخللهما بعضاً من المعاداة و البغض، و لا يعلم ما هو مصدر كل هذا سوى إن هذا هو شعوره البدئي في كل مرة يقابل فيها أحداً ما لأول مرة، و فيولا هي الأخرى لم تكن أفضل حالاً منه، و لو أن لها أسبابها المدركة و البينة لهذا الإعتكاف، حيث إنها لم ترغب بالإعتراف بحتمية الموقف، و بأن هذا الشاب الغريب سيحل مكان العم نيكولاي، و لذلك أمتنعت عن الرد، و لم تعطه من وقتها سوى لمحة واحدة، قبل أن تعود لتوسلاتها الميؤوس منها تجاه نيكولاي، و هو الذي بدا و كأنه يريد أن يتطمأن بأن تكون هنالك بادرة وصال بين هذين الأثنين قبل أن يرحل نهائياً عن هذا المنزل.

« هذه إبنة السيد غوربوف الصغرى، الآنسة فيولا، هي في التاسعة من العمر، و لقد شهدتني طوال فترة حياتها أعمل و أكِد في هذه الحديقة، و هي التي لطالما كانت و لا زالت معجبة و مغرمة بأشجارها و ورودها، و لطاما قضت كثيراً من وقتها في أرجاءها برفقتي، فقدماها لامستا تراب أرضها أكثر من أرضية غرفتها الخاصة، و لذلك أطلب منك زيادةً على إعتناءك بالحديقة بأن تعتني بها هي الأخرى و أن تعاملها بلطف و بمودة، فهي ستكون من الآن و صاعداً تحت ناظرك في كثير من الأوقات التي ستقضيها أنت في عملك في هذه الحديقة ».

هز رومان رأسه موافقاً على كل ما قد قاله نيكولاي، ليس بإقتناع طبعاً، حيث إنه كان سيقوم بالمثل حتى لو كان قد أخبره للتو برغبته في قتله!، فالكلام و المغزى لا أهمية لهما، فما يهم حالياً هو الجريان مع كل ما يطلب منه و إصطناع المسايرة و الفهم في كل ما يقال، ربت نيوكلاي مزيداً على فيولا، قبل أن يوجهها لدخول المنزل، لكي تبدل من ملابسها، و من ثم أن تتفقد إن كانت أختها في المنزل حتى يباشرون وجبة الغداء، فتوجهت فيولا إلى المنزل مهمومة و مكدورة، ذقنها ملتصق برقبتها، و لكون العمل قد أنتهى مبكراً لهذا اليوم بشكل خاص، أشار نيكولاي لرومان بأنه حر في الرحيل و العودة لمنزله، منبهاً إياه بأن هذه الوظيفة ستكون مقسمة الأوقات من الغد و صاعداً، حيث سيكون عليه الحضور مرة في الصباح و مرة أخرى في العصرية، ثلاث ساعات في كل فترة، ففي الصباح يحضر من الساعة السابعة إلى الساعة العاشرة، و في العصر من الساعة الثالثة حتى السادسة، فكان جواب رومان هو التثاؤب بشدة في وجه نيكولاي و الطأطأة برأسه مظهراً إدراكه لما يقال، فأفترق كُلاً منهما عن الآخر، نيكولاي متوجهاً مرة أخرى للحديقة لتفقد أمورها، و رومان عائداً من حيث أتى، هذا قبل أن يصل لواجهة المنزل الأمامية و يستدرك بإنه قد نسى سيرغي خلفه، ليعود أدراجه مرة أخرى للخلف و يجرجر سيرغي من معصمه معه، عائدين من حيث أتوا إلى حيهم.

ترك رومان سيرغي يتدبر أمر حاله ما أن وصلا إلى الحي، حيث رآه يتجه لآخر الشارع ذابل الرأس و يديه في جيبي سترته، دخل رومان المنزل و أرتقى السلالم إلى الطابق العلوي متوجهاً إلى غرفته، غير طائقاً سوى أن يخلد رأسه على الوسادة ليغط في نومٍ عميق، أو هذا ما كان يريد أن يحدث، لكن للواقع شأن لا يتبع الترجي و الأماني، فأخذ رومان يتقلب و يتدحرج على بطانة السرير، النوم لا يحابيه و لا يراضيه، أجفانه ترتعش، و شفته تنتفض، و أحشاءه تمتعص و تهوج، ألماً بغيض قد حل به، يجعله يشعر بأن الغثيان و التقيئ

قريبان من الحدوث، لكن مهما أنتظر و مهما كانت معدته فائضة و ممتلئة فأن الترجيع لم يحدث يوماً أثناء هذه المعمعات التي تصيب معدته، تصبصب العرق من جسده و زخ من كل مسام مثقوب على بشرته، و بدأت أحلام اليقظة تغزوا مخيلته، أحلاماً لا معنى لها مجرد أضغاث مبعثرة، فها هو يرى على شاطئاً ما طفلاً مقطوع اليدين يحاول أن ينثر تراباً بكفيه المعدومين الوجود، و يتغير المشهد فجأة، و يتحول الطفل إلى سمكة ذات عيون جاحظة و شفةً متدلية تعتفر على الرمال تحاول العودة إلى مياه البحر، و ما أن تصل إليه حتى يتغير المشهد مرة أخرى، لتظهر من تحت صفحة المياه جنية بحر ذات بشرة زرقاء و عيون حوراء و أسناناً ممشطة، تخرج من غياهب الأمواج المتلاطمة، لتحفر على الشاطئ قبراً و تشير لرومان بأن يستلقي فيه، لكن المطر الغزير يبدأ بالإنهمار و يفسد القبر و يجعله عديم الجدوى، فتعود الجنية إلى قاع البحر خائبة المرجى و صائحةً بصوتاً حزين على خيبة أملها، و تسدل الستارة على هذا المقطع، لتعاود الإنزياح مجدداً على مشهد آخر، إلى غرفة مظلمة لا تنيرها إلا شمعة ذاوية، يتوسطها سريراً مهترئ يستلقي عليه عجوزاً كامد، لا تعرف إن كان حياً أو ميتاً، حتى يبدأ بالسعال و يستيقظ أثر ذلك فقط ليستلقي على الجانب الآخر معطياً ظهره لرومان الذي أخذ يتقرب منه محاولاً إستطلاع وجه، لكن هذا الوجه قد إنمحى و لم يتبقى منه أي أثر، مجرد قطعة لحم يعتليها شعر رمادي، لا يعرف رومان ماذا يفعل به سوى أن يزيحه من على الفراش ملقياً به على الأرضية فقط ليعتلي هو السرير بدلاً عنه، و يتقمط بغطاء الفراش، و يأخذ بدنه بالإرتجاف و الخضخضة، و أذنيه تدقان عليه كأنهما مطرقتان تضربان حديداً صلد.

أستيقظ رومان مذعوراً، و العرق قد غمره و لطخ فراشه، و الأحلام قد غابت و تلاشت، إلا الدقات في أذنه التي أستيقن في الحال كونها ليست صادرة من مخيلته أو من دماغه و أنما هي دقات على الباب، هذه طرقات فيلبونا المعتادة، ثلاث طرقات متتابعة تليها

عشر ثواني صامتة لتعود الطرق مرة أخرى، قام رومان من على فراشه و أوقف هذا الإيقاع الموسيقي النشاز، و ظهرت فيلبونا أمامه و أخبرته حال ذلك بلزوم تواجده على مائدة العشاء، و لم تفضي له أي مجال بأن يرد عليها أو حتى بأن يبدي إن كان قد فهم و أدرك ما قد أخبرته، عطفاً على كونها قد غادرته بسرعة فائقة، رجع رومان إلى غرفته و رأى لطخة العرق التي أرتشحت على الفراش، و تذكر الأحلام التي قد مرت عليه في قيلولته هذه التي بدأ بالندم على أخذها، و حيث إن رائحة التراب و السماد ما زالت عابقة بملابسه و بالإمكان تبينها حتى من على بعد فهو لم يرى بداً له سوى بأن يأخذ حماماً و لو بسرعة و إيجاز، و حتى لو كان ذلك على حساب تأخره في التواجد على المائدة.

لم يستطع رومان تبين و قراءة تعابير وجه إيفان عندما جلس على مائدة العشاء، و بالأحرى القول بأنه لم يمديه أن يتفحص ملامحه، حيث إن إيفان ألقى عليه نظرة واحدة عندما رآه قادماً و عاد في نفس اللحظة إلى تناول طعامه، فيما كانت دانيا تبلع لقمتها و هي تنش بيدها إلى رومان محاولة جذب إنتباهه إليها، و أخذت تثرثر معه و كأن شيئاً لم يحدث بالأمس، و كأنها لم تكن طرفاً في المشكلة التي حدثت.

« لقد تلقينا خبر ذهابك إلى منزل السيد غوربوف و تلقيك تعليمات يومك الأول، و يبدوا بأن الأمور مبشرة بالفاتحة الحسنة، حيث إن موظفهم الحالي أي الحدائقي العجوز أثنى عليك و على جديتك في إلتقاط كل توجيهاته بحذافيرها، و لكن ليكن معلوماً لديك بأنه من الغد سيبدأ الجد و التيقن إن كنت حقاً قد ألممت بالعمل و بالوظيفة أم لا، و شعوري يقول بأنك ستبلي حسناً، و لكن يا رومان، ألم تقابل السيد غوربوف أثناء تواجدك هناك طيلة هذه الصبحية؟ ».

نفض رومان رأسه و هي يقطع شريحة لحم الظأن بالسكين، ليغرس أسنان الشوكة في القطعة و يلقيها في فمه، غير مبالي بلباقة الحديث أو بآداب المائدة، يأكل و يتكلم في نفس الوقت، لكن من الملام هنا؟، أفلن يكون من عدم اللباقة أيضاً بأن يقوم بتجاهلها؟، فلا رابح هنا عندما نتعامل مع البرجوازيين و نفاقهم في ما يطبقون من لياقات و آداب.

« كلا، لم ألاقيه، و لكن لا يعني هذا بأنه لم يكن متواجداً في منزله، فكل ما هنالك هو إنني لم أدخل أرجاء المنزل لأتفحصه و أستعلم أموره و حالته، و بالحقيقة لم أُعْزم للدخول أصلاً، و كأنهم يقولون لي 'هذا هو مكانك هنا، في الحديقة و فقط، و ليس من مكانتك أن نتواجد في المنزل و السماح لك بتلويثه'، لكن لا بأس، فأنا غدوت معتاداً على هذه المعاملة، و ليكن في علمك يا زوجة عمي، بأن طريقي و طريق السيد غوربوف لن يتقاطعا أثناء عملي في منزله، فأرخي أذنيك، و لا تترقبي أي من الثرثرات أو الإشاعات أو الأحاديث السرية التي قد تظنين بأني قد ألتقطها منه صدفةً إن كنت تتوقعي أن تنالي و تُخلّصي أياً منها من فمي، فدعي هذه الترهات لصاحباتك الثرثارات و أبعديها عن وجهي ».

أنقلب وجه دانيا في إمتعاض، و تلألأت الدموع تتساقط من جرف عينيها، و أخذت تجول ببصرها على كل من جلس على المائدة، تعطيهم من وقتها رمقات وجيزة، قبل أن تهوج من على كرسيها و تركض رجليها إلى أي مكان إلا هذه المائدة التي لا تنوء و لا تبغى إلا أن تكون الساحة التي نتلقى فيها الإهانات و التهجمات.

تهيئ رومان لتلقي الشتائم و اللعنات من إيفان، و أيقظ من نباهة نفسه ليتصدى لأية صفعة قد تأتيه من حيث لا يدرك، لكن لمفاجأته، و بشكلٍ شاذ لخيبة أمله، لم يحرك إيفان ساكناً، بل ظل يحدق في طبقه، و أستمر بتفقد دانيا كل حين ليرى إن كانت تأكل

كفايتها، فأحتار رومان من ذلك، و لم يخرص أي سبب لهذا الوجوم و التخاذل إلا إن كان إيفان قد أصم و أصبحت أذنيه مجرد لحمتان متدليتان لا جدوى منهما، لكن هذا لم يكن جواباً معقولاً، و على الجانب الآخر كانت داليا تحدج بعينيها الطريق الذي أتخذته والدتها في هروبها هذا، و كأنها ترغب في اللحاق بها و تهدئتها و الإطمئنان عليها، قام رومان من على المائدة مريداً العودة إلى غرفته مرة أخرى، لكنه لم يرى ضرراً من التوقف عند المطبخ و إعلام فيلبونا عن حال دانيا و الوضع البائس الذي جعلها عليه، و عن الكارثة التي خلفها مجدداً على رأس هذه العائلة.

(الفصل العاشر)

تقاعس رومان في نهوضه من على الفراش، و لم يكن ذلك بداعي التعب أو قلة النوم، حيث إنه قد أخذ كفايته من الآخر و نفض من بدنه آثار الأول، لكن ما جعله يكره هذا الإستيقاظ و هذا النهوض هو ما تحتم هذا اليوم بأن يكون عليه، فهذا هو اليوم الأول لمداومته في وظيفته الجديدة بشكل رسمي، فحبذا لو كان هو مثله مثل البقية من الشبان المتعطشين لتحقيق مساعيهم في الحياة لكان أعتز و أفتخر كما يفعلون بأن يكون قد حاز على وظيفة جيدة مثل هذه، فليس من السهل أن تكون بمحل من الثقة لكي تُوظّف كراعي لقطعة أرض مملوكة من قبل أحد أثرياء المقاطعة، و ربما رومان لم يستحب هذه الوظيفة لكونه يدرك بأنه لا يستحقها و لا يجب أن يوكل بها، و هذه هي المشكلة العويصة عندما نتكلم عن الطبقات من التداعيات التي تنتج من مثل هذه العلاقات الإجتماعية الرفيعة، فنحن لدينا هنا شخصان محضيان بالثروة، ألا و هما إيفان غيرسكفيسكي و ميتيا غوربوف، تصل بينهما علاقة رسمية و شخصية، و لكي يتأكدا بأن هذه العلاقة لا تنضب و لا تهزل فهما يران من الواجب بأن يستمرا بتبادل الخدمات فيما بينهما سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، و هذه الخدمات الصغيرة عادةً ما تخص الناس المحيطين بهاتين الشخصيتين، فإن أراد أحداً منهما من الشخص الآخر بأن يظفر له بتوصية لأحد معارفه، فيجب على الآخر لضمان إستمرار علاقته كما هي مع الطالب للخدمة بأن يتأكد بأن التوصية محققة، و لا يكون من المشترطات بأن يتأكد إن كانت هذه التوصية هي حقاً مستحقة!، و ما تكون هذه إلا وصفة فاسدة لا تسبب و تمهد إلا المشاكل، و بذلك تُعرّض الوظيفة التي تُنال بهذه التوصية الغير مستحقة لأن تكون غير مضمونة بأن تتم بالجودة المطلوبة و لا تأديتها بأتم وجهٍ مراد، و الأمر واضح هنا بأن هذا هو ما يحدث مع رومان حالياً، الذي لم يرغب و لم يطلب هذه الوظيفة من الأساس.

جرجر رومان قدميه إلى الحمام حيث أغتسل، و خرج من غرفته ساحباً بدنه إلى الدور السفلي حيث كانت عائلة غيرسكفيسكي قد شرعت لتوها بتناول الفطور، هز إيفان رأسه في إعجاب على نزول رومان و إنضمامه معهم و هذا دون أن يضطر بأن يرسل فيلبونا لكي تيقظه كما أمرها بأن تفعل في اليومين الماضيين، شرع رومان بتناول الفطور، و ما هي لحظاتٍ حتى أحس بعينان تراقبانه من حيث لم يتوقع، فرفع رأسه بسرعة ليصطادها في خضم ما تقوم به، فتأكد ظنه بإنها كانت داليا من تحدق فيه، و في الحال شعرت بالخجل من جراء ضبطها و هي تقوم بذلك، فلم يرى رومان بداً أو مانعاً من أن تكون دانيا هي من تتكفل بشرح سبب هذا التحديق.

« لا تهتم لما تقوم به، فهي تشعر فقط بالتعاطف و الشفقة تجاه فيولا، إبنة السيد غوربوف، فداليا و فيولا في مثل العمر كما ترى، و كلاهن قد تزاملتا نفس الفصل طوال السنوات الثلاث الاتي قضياتها في دراستهن، و داليا تدرك كم كانت فيولا تعز و تحب الحدائقي الذي قد نحي عن وظيفته و الذي أنت قد حللت مكانه، . . . ، ما هو إسمه؟، يا لخزيي، لطالما أنسى إسمه على الرغم من لقائي الدائم و المتكرر معه في كل مرة نقوم فيها أنا و إيفان بزيارة منزل السيد غوربوف، فكما أخبرتك بارحة أمس، بأني دائماً ما أقضي كل وقتي أثناء الزيارات التي نقوم بها لمنزل السيد غوربوف بالتجول في أرجاء الحديقة، لكن دعنا من هذا، . . . ، عن ماذا كنت أتحدث؟ ».

أخذت دانيا تحلق في الفراغ بفماً فاغر محاولة إستذكار ما كانت تحاول قوله لرومان عن أمراً لا تعلم سوى بإنه يخص فيولا، و في الحقيقة هي قد نسيت أيضاً عند هذه اللحظة سبب كونها موضوع حديثهم هذا من الأساس، و لطاما رأت دانيا نفسها في هذا الموقف المزعج، فهي تفتتح حديثها و في عزمها تقسيم الموضوع الذي تريد أن تتكلم عنه إلى أجزاء، لكنها

ما أن تبدأ بالكلام حتى تتدافع و تتسابق الكلمات لتحل الواحدة بدل الأخرى و ينحرف موضوع الحديث إلى تشعبات لا تنتهي، فلا خيار عند ذلك إلا الإحتكام إلى من تحادث لِيُنصّب سير الحديث و يرجعه إلى طريقه القويم، لكن هذا أمر شائك آخر، فهنا لدينا في هذه الحال طرفين آخرين يشكلان ثقل في سبب إنطلاقها في الحديث، رومان و داليا، فمن تسأل في هذه الحال، فإن سألت رومان فهو سيرجعها إلى النقطة الأولى، ألا و هي سبب تحديق داليا فيه، و إن سألت داليا، فهي ستقدم لها صورتها عن الموضوع التي ستكون مشوبة و غير موثوقة، فهل هي مثلاً تريد إستعلام أمر كونها و فيولا زميلتا فصل، أم هل هي تسائلها عن الحدائقي و عن مكانته بالنسبة لفيولا، أم تريد توكيداً منها لحقيقة ما تقوله عن كونها هي دانيا دائمة التجوال في أرجاء الحديقة عند زياراتها لمنزل السيد غوربوف، و هذه ليست مجرد فرضيات معقدة تقال فقط لتعقيد الأمور، بل هو الواقع المعاش، فعندما توجهت دانيا بالسؤال مختصة به داليا عن ما كانوا يتحدثون عنه، أجابتها بجواب يسد غموض إحدى التشعبات لا الأساس.

« إسمه نيكولاي ».

لم تقل سوى هذا و أنهمت في إكمال طعامها، غير عابئة أو معيرة أي إهتمام لمستلحقات و متبعات هذا الحديث، رفع رومان حواجبه في إستعلام عن إن كانت دانيا ستعاود الخضم في حديثها المبعثر و المشتت هذا، فما كان منها سوى أن تعفيه من ذلك، و أعادت توجيه تركيزها إلى داليا مرة أخرى، لكن لتعلمها هذه المرة عن وجوب إسراعها في تناولها للطعام لكون الساعة ستقارب السابعة، و يجب عليها المضي بعد دقيقة على أقرب وجه للتأكد من عدم تأخرها عن حضور الحصة الأولى، و فيما كانت دانيا و إبنتها في تناوش، أو قل دانيا تناوش إبنتها التي كانت لا تجيب إلا بهمهمات و أنات صادرة من خلف فمٍ مطبق،

كان يدور في ذهن رومان حساً بالإستغراب لرؤية إيفان بهذا الوجوم الغير المعتاد و إمتناعه عن التعليق على أي شيئ مما كان يقال على المائدة، و لا يمكن الحكم بهذه السرعة إن كان الأمر حقاً بهذه الغرابة، لكون رومان لا يعرفه لتلك الدرجة ليعتاده و يتعرف على خصاله و يتبين السليم منها من الشائك، لكن يبدوا بإن هذا الصموت ما هو إلا إستمرار لصموته في الأمس على مائدة العشاء، مما جعل رومان يشك في إمكانية كون شيئاً ما قد حدث، و بأن هناك شيئاً ما يؤرقه و يجعله يظهر بهذا السرحان المغيم، لحدق رومان فيه مزيداً، حتى أنتبه إليه إيفان أخيراً، و أستفاق من غفوته هذه، نافضاً بدنه جراء القشعريرات التي سرت على فرائضه، و بدا إيفان لرومان حقاً كالمستيقظ من النوم، حيث أخذ يدور برأسه متلفتاً يمينه و شماله، و يحلق في الأواني التي وضعت أمامه غير مدركاً حتى ما هي أصناف الأطعمة التي كان يضعها في فمه، و لم يرى بداً سوى أن يضع حداً لأي شك قد يعتري أحد أفراد العائلة في حال كانوا قد لحظوا منه هذا التصرف المشوب و الغير معتاد.

« معذرة، لقد أبتعد تفكيري إلى مكان آخر تماماً، فالأعمال كما تعلمون لا تنضب و لا تنتهي، فما أن أنتهي من معاملة ما حتى توضع أمامي واحدة أخرى، لكن ما السبيل غير ذلك؟، فهذه هي حضوة و نصيب من يريد ان يهنئ و يرغد في حياته، أليس كذلك يا صغيرتي داليا؟ ».

هزت داليا رأسها موافقة على ما قاله، و نهضت من على كرسيها لتقبل والدها و والدتها قبلتي الوداع قبل رحيلها للمدرسة، لكن ليس قبل أن تقف قبال رومان من على الطرف الآخر من المائدة، و تثبت عينيها عليه بكل حزم و جدية، و بدا واضحاً بأنها قد أستجمعت كل ما تملكه من شجاعة و جرأة لتنطق بما تريد أن تقول، أو بالأحرى إيصال مغزاً ما من ما تريد أن تقول.

« أرجوا أن تعتني بفيولا، و تهتم بها، و ألا تعاملها بقسوة أو عنف في حال صادفتها في منزلهم، فهي فتاة لطيفة، و هي صاحبتي كذلك، و لا أحب أن أراها أثناء الفصل واجمة و قانطة لسبباً ما ».

أبتعدت داليا عن مرآهم، و أختفت من أمام ناظرهم، لكن كلماتها القليلة ضلت تصدح في أذهانهم، و الأبتسامة المتفاخرة و المتبجحة تعلو وجه كُلاً من إيفان و دانيا على تربيتهم الأكثر من جيدة لإبنتهم الوحيدة، فيما ظل رومان على حاله الغير عابئ و القليل الإهتمام، ينفض كلماتها دون إكتراث و كأنها قشرة غبار عالقة بين أظافره.

أسند رومان ذراعيه على سياج المنزل، و أخذ يتفقد أرجاء الحي، حيث أضحت هذه عادة قد تلازمه طوال إقامته هنا، فقط التحديق و التنصت لما حواليه، لكن الأمر كان مختلفاً في هذه الحال عن الأمس، فلم يكن رومان واقفاً يسترق أحاديث نساء الحي الصاخبات عبثاً، لكنه كان يريد التأكد من إن كان خبر إعتراضه طريق الفتى الأصم و الأبكم سيرغي و منعه من الذهاب إلى مدرسته و إقتياده معه إلى منزل السيد غوربوف قد وصل خبراً منه إلى آذانهن، فهل قام سيرغي مثلاً بإخبار أحد والديه عن الرجل الغريب الذي أختطفه و جرجره من ذراعه إلى آخر المدينة؟، و حتى و إن كان رومان قد سلم من فضح سيرغي له لما قد قام به، فالفتاة المصاحبة له و التي لا يبدوا بأنها تفارقه كثيراً تظل مصدر خطر يأجج حس التوجس لديه، فهل أطفالٍ بمثل هذه الأعمار حقاً قادرين على الإحتفاظ بسر؟، و حتى لو كانوا مدركين لما هي مقتضيات الأسرار و ما تعنيه هذه الكلمة و ما تتطلبه من إستحقاق ليوفيها، فسيظل هنالك في مؤخرة رؤوسهم الفكرة المظللة و الطاغية على كل أفكارهم و كل ما يقومون به، ألا و هي أن آباءهم و أمهاتهم هم السلطة الأعلى و المرجع الأسمى لكل ما يدور حولهم — أي الأطفال —، فمن منا قد يظن يوماً و بشكل جدي إن بإمكانه إخباء أي شيئ عن

الرب؟، و حتى و إن تظاهرت بإمكانية حدوث ذلك بعدم الحديث بعلانية عن ذلك السر، فستظل مدركاً في دواخلك بعبثية ذلك و كونه فعل لا طائل منه، فلا يكون آن ذاك أي فرق، سواء أخبأت السر أم أعلنته، و العلاقة متماثلة و متطابقة بين الأطفال و والديهم، فلا حيز لتواجد الأسرار في حضرتهم، لكن لدهشة رومان و لحظّه لم يسمع من نساء الحي أية كلمة أو خبر عن أي شيئ شائب قد حدث بالأمس قد يقلقهن، فتنهد الصعداء و توقف عن الإستراقة إلى أحاديثهن المملة و المضجرة، و برقت عيناه لمرأى سرب الأطفال يتقدمون في مشيهم مريدين التوجه للمدرسة، يتلاعبون و يتصادمون مع بعضهم البعض، و كأنهم سكارى يخرجون من حانة بعد ليل شربٍ طويل، فهذا يدفع هذا، و ذاك يتعثر بخطوات ذاك، و هذه إحداهن تزمجر وجهها في وجه الأخرى، و خلفهم في هذه المسيرة الحافلة كان سيرغي يمشي متذيلهم برفقة الفتاة التي دائماً ما تلازمه في كل مرة يراه رومان فيها، أشار رومان من بعيد تجاه الفتاة التي أرتكبت خطأً فادح بإجالة رأسها تجاه رومان و لمحته يحاول جلب إهتمامها، فلا مجال لها هنا بالتظاهر بعدم رؤيته، و رأته يشير إلى سيرغي، ثم إلى حيث هو واقف عند السياج، طالباً منها إحضاره إليه، فلم يكن أمامها أي خيار آخر سوى غمز ذراع سيرغي للحوز على إنتباهه، و من ثم إدلاله إلى رومان.

لم يحتج رومان إلى الإمساك بمعصم سيرغي و جرجرته خلفه كما فعل بالأمس، فكالكلب الذي يتعلم خدعة جديدة، ما أن يدرك الطريق إليها و كيف تُفْعل حتى لا يصبح بإمكانك إيقافه عن تكرارها، فكان سيرغي هو المتقدم في الطليعة، و رومان خلفه يثرثر بكلامه المتعجرف و تذمره الذي لا ينتهي و لا ينقضي، حتى وصلا إلى منزل السيد غوربوف، و ما أن وصلا حتى أنصدم رومان بالأمر الواقع و حل عليه كإنهمار المطر، فهو لسببٍ ما لم يطرأ عليه بأنه من اليوم و صاعداً سيترك لحال أمره لتدبر جميع شؤون الحديقة، فالعجوز الأدرد قد

رحل عن هذا المنزل و غادره لا شك في ذلك، و تركه هنا ليتدبر كل شيئ يجب عليه فعله، حتى و إن كان هو بالأمس قد تكفل أمر إيضاح طريقة الإعتناء و الإهتمام بالحديقة و كيفية التعامل مع ما تحتويه من أشجار و ورود، إلا أنه كذلك لم يأخذ من وقته و لو بالقليل لشرح و إيضاح ما تبقى لرومان من أمور ليدركها، فهل هو عليه مثلاً أن يعلم قاطني المنزل بقدومه؟، أم أنه متاح له أن يقتحم لوازم المنزل كما يريد؟، و ماذا عن مستلزماته هو رومان؟، ففي حال لو أراد شيئاً ما، فمن يجب عليه أن يسأل؟، و لو أراد أن يستخدم دورة المياة، فأي حمام متواجد هنا ليذهب إليه؟، هذه أسئلة تحتاج إلى أجوبة بضرورة قصوى، فلم يجد رومان بداً سوى أن يطرق الباب و يستقصي كل ما قد طرحه على نفسه من تساؤلات، فيما كان سيرغي كعادته متصلباً متجمداً، لا ترى أية علامة على وجهه قد تعبر عما يجري و يجول في ذهنه، فتحت عاملةٍ للمنزل الباب، و أخذت تحدق في وجه رومان و تتفحصه من أعلاه حتى أخمصه.

« ما الذي تريده بطرقك للباب الأمامي؟، ألم يعلمك أحداً الآداب؟، فالأمر واضح في أنه في حال كونك أردت شيئاً ما، فعليك الدخول من الباب الخلفي، و إعلام إحدانا نحن العاملات عن ما تريده، فهل حقاً تحتاجني لأوضح لك شيئاً بهذه الدرجة من البديهية؟، ألم يجدوا غير هذا المغفل ليرموه تجاهنا؟ ».

صفقت العاملة الباب في وجه رومان، الذي قليلاً بقليل أخذت معالم وجهه تتحول من الدهشة إلى الغضب المستعر، و قبضتي يديه تكادا أن تنفجرا من شدة إحكامهما، حتى أخذ بإرجاع إحدى هاتين القبضتين للوراء، و لطمها بكل ما يستطيع على خشبة الباب، و لم يعطي الوقت لإحدى العاملات بأن تأتي و تستطلع هوية من يكون هو الفاعل لذلك، فهو قد

أعطى رجليه للريح، و ركض متجهاً لخلف المنزل، و يتبعه سيرغي بحركاته البطيئة و المتعثرة و الذي كان فطناً على عادته بإتباع و مجاراة كل ما كان يفعله رومان.

لم تختلف الحديقة عن ما رآه رومان في الأمس، فهو لسبباً ما ظن بأنه ما أن تقرر بأنه سيكون الراعي الجديد لها فهي مباشرةً و منذ تلك اللحظة ستبدأ بالتدهور و الإنحطاط، فالأشجار ستحت أوراقها و ستتيبس غصونها و جذوعها، و الزهور ستذبل و تسيح مسدلة رؤوسها على سيقانها، لكن الحقيقة أن لا شيئ من هذا قد حدث، فها هي الأشجار غضة الأغصان و مفعمة الإخضرار في أوراقها، و ها هن الأزهار و الورود لا يمكن أن يكونوا على حال أفضل مما هن عليه، فكل تلك التخيلات ما هي إلا توجسات، فكم حقاً قد يكون من الصعب الإعتناء بحديقة بهذا الحجم؟، فأخرج رومان عدة الأدوات من صندوقها المخبئ تحت أشمة من الحرائش و الذي قد أُدِل لمكانه بالأمس و لم ليكن ليعلم بوجوده لولا تعليمات ذلك العجوز، و بدأ العمل محاولاً إتباع التوجيهات التي نبه عليها العجوز و أوصاه بعدم الإنحياد عنها، لكن لم تمضي سوى بضع دقائق، لم يكمل فيها الإعتناء حتى بشجرة واحدة، حتى توقف عن العمل و أستدار تجاه سيرغي الذي كان قد وقف على بعد مسافة تسمح لرومان في الحركة بكل أريحية، فأشار رومان إليه بأن يقترب، و ما أن وقف أمامه يحدجه بتلك النظرات الحادة حتى أخذ رومان المشذب الذي كان ممسكاً به و يقص به الأوراق التي خرجت عن مجموعتها و وضعه بين أنامل سيرغي، الذي أخذ بدوره يتفحص تكويناته و يتفقد ثقله الذي رزح على ذراعه النحيلة، أفاق رومان سيرغي من سرحانه هذا بحركته المعتادة التي يقوم بها كلما حاول جلب إنتباهه إليه، ألا و هي إمساكه من كتفه و إخفاض رأسه ليكون موازياً لرأس سيرغي، و كأن هذا قد يجدي في إفهامه بما يريد أن يقول و بأن يصل إليه معناه.

« إسمع يا سيرغي، . . . ، ليس هذا ما قصدت، الأفضل القول إنتبه يا سيرغي، أنت فتى فطن و ذكي، و سريع الحيلة و التعلم، و أنا أعلم كل هذا لكوني أنا من أتخذك من دون الناس كلها كصديقٍ لي، فأنا لا يمكن أن أسمح لأحداً بأن يحوز على هذا المنصب بجانبي سوى أن يكون مقتدراً لكل تلك الصفات التي قد عددتها، و هذا الشخص هو أنت و لا غير، فبالأمس، لا بد و أنك قد رأيت كل ما قد فعله ذلك العجوز، أليس كذلك؟، فأنا كنت متيقظاً و موجهاً كل تركيزي عليك، و لقد لحظت كيف إنك لم تزيح عينيك و لو للحظة عن ما كان العجوز يريني إياه، إذاً فالأمر واضح بأنك قد أدركت و فهمت كامل الخطوات و كل التوجيهات التي أملاها العجوز علينا، لا بد من ذلك، و لكي أخبرك الحقيقة، . . . ، أنا مصاب بعاهة مستديمة، تسبب لي فقدان التركيز و عدم القدرة على الإنتباه لما يقال لي، و هذا شيئ خارج عن سيطرتي، لا يمكنني التحكم بشأن ذلك و لا تخطيه بحيلة أو علاج ما، و لذلك أريد منك أن تكون دليلي و مرشدي، نعم!، ذلك هو منصبك من الآن فصاعداً، أن توجهني و تخبرني بما يجب علي فعله من خطوات في سبيل الإعتناء بهذه الحديقة الرائعة و الجميلة، فقط أنظر إليها، ألا تريد أن تستمر على نضارتها و بشاشتها لتملئ قلوب رائيها بالسعادة، نعم!، بالطبع أنت تريد ذلك أيضاً، فهيا بنا نعمل معاً ».

ألتقط رومان المشذب من يد سيرغي و أستدار مقابلاً الشجرة التي كان يعمل عليها، قبل أن يتأوه حسرةً و في ضياع للأفكار صافعاً جبهته بيده الأخرى، فهو قد تناسى شيئاً مهماً سيعرقل سير هذه الخطة الجديدة التي أبتدعها للتو لتسهيل سير عمله، فأستدار مجدداً للخلف ليقابل سيرغي مرة أخرى، ناظراً إليه بندم و بأسف، واضعاً المشذب في يد سيرغي من جديد.

« سامحني يا سيرغي، لكني قد نسيت كونك لست أصماً فقط، بل أبكم كذلك، كيف غاب ذلك عن ذهني، لا بد بإن ما قد قلته منذ لحظات كان جارحاً و مهيناً لك، فكيف ستعلمني

بما يجب علي فعله و أنت لا تستطيع الكلام؟، فنحن أمام معضلة عويصة، ألا تظن ذلك؟، فنحن لدينا في هذه اللحظة خياران، فأما أن أستمر أنا بالعمل لوحدي، و أنا الذي كما قد قلت لك سابقاً لا أذكر ما قاله ذلك العجوز و لا ما يجب علي فعله بالتمام و الكمال ليتم العمل بأنسب وجه، و بالحتم سيكون جراء ذلك من تبعات أن ينتهي بي الحال بإفساد كل ما قد تعب عليه العجوز من تربية و تنمية لهذه الحديقة، . . . ، و الخيار الآخر هو أن تقوم أنت بالعمل كله لوحدك، و تكون عند ذلك قادراً على الإهتمام بجميع شؤون الحديقة دون الإحتكام إلي و إضاعة وقتك و وقتي في محاولتك إيضاح العمل الواجب القيام به لي، فيا ترى ما الخيار الأنسب هنا؟ ».

حدق الإثنان ببعضهما البعض لثواني معدودة، و بدا لرومان بأن سيرغي قد فهم كل ما قد قاله و أستوعبه كما هو بالضبط، و الدليل على ذلك هي نظراته التي قد تبدلت من الحدة إلى الحيرة و الإرتباك، فكان ذلك تعبيراً جديداً لم يره رومان من قبل يرتسم على وجه سيرغي، مما شجعه على التمادي في فرض سيطرته عليه.

« نعم، الأمر واضح، أليس كذلك؟، فلا أعلم لماذا أضعنا كل وقتنا هذا في هذه المهزلة، فقط إلتقط المشذب و إبدأ في العمل، هلا قمت بذلك؟ ».

أرتفع قرص الشمس بدرجة مائلة معلناً إنقضاء وقت الصباح و إنمحاء فترته و إقتراب وقت حلول الظهيرة، و كان رومان الذي قضى كل هذا الوقت مستلقياً على إحدى كراسي شرفة المنزل غاطاً في قيلولة لا تسمح للأحلام بأن تتخللها قد أستيقظ و أنتبه إلى إقتراب إنقضاء ساعات عمله، و لكونه لم يملك ساعةً لا على رسغه و لا في جيبه، فقد قرر التجرئ و المغامرة بالدخول للمنزل لتقصي وقت الساعة بدقة، ففتح الباب و ما أن فعل ذلك حتى حس بالهواء

البارد و المنعش يهب في وجهه، مما جعله يلعن قاطني هذا المنزل اللذين يسترخون في هذه البرودة المنعشة فيما يكون هو في الخارج يزخ و يغط في العرق و ينش بيده المتعبة الذباب الذي لا ينوء عن مشاكسته، و كلما غال رومان دخولاً في المنزل كان يتضح له بأن هذه المنطقة الخلفية من المنزل مخصصة للخدم و لغرف التخزين، لكن كل هذا لم يكن ليهمه بشيئ، فما يريده الآن هو إستعلام الوقت لا غير، فما يهمه هو إن كن العاملات يقطن في خلف المنزل أو حتى إن كن يحبسن في أقفاص حديدية بعد إنتهاءهن من أعمالهن؟، فأخذ يتلفت يمينه و شماله باحثاً عن ذلك القرص المدور ذو الشوارب المتحركة ألا و هي الساعة، لكنه مهما بحث لم يجد أية من ذلك أو ما يشابهه، مما أضطره للإيغال مزيداً في أرجاء المنزل، و كلما فعل ذلك كلما أتضحت له أصوات صادرة من شخصاً ما، أصوات سعال و شهيق عالي، فأخذت يد الفضول تجر رومان تجاه مصدر هذه الأصوات، حتى تخطى المنطقة الخلفية للمنزل و لا شك بأنه أصبح الآن في قسم أصحاب المنزل و اللذين لم يقابل منهم سوى تلك الفتاة الصغيرة بالأمس، فيولا، فأين حس الإستضافة للسيد غوربوف؟، لماذا لم يحضر شخصياً إليه و يعرف بنفسه؟، أيظن نفسه بهذا العلو عن بقية الناس؟، أخذ رومان يتمتم باللعنات و الشتائم على ذلك الرجل البغيض، حتى رأى نفسه و تحت تأثير سرحانه هذا و تشتت أفكاره واقفاً في وسط غرفة واسعة، غرفة المعيشة لا شك، و على الجانب الأيسر كان هناك شخصان جالسان على الكائب يحدقان بإستغراب و دهشة في من يكون هذا الشخص الذي قد دخل عليهم فجأة، و لكن كانت المفاجأة الكبرى من نصيب رومان الذي تسمر مكانه فاغراً فمه غير مصدق لمن يراه جالساً أمامه.

لم يتوقع رومان بأن يكون السيد غوربوف بهذه الرحابة و سعة النفس و البشاشة، حيث إن الإبتسامة لم تمحي من على شفتيه منذ أن جلس رومان على إحدى الكنبات و

عرف بنفسه بأنه الحدائقي الجديد الذي تم تعيينه بالأمس، و أخبره عما كان يفعله هنا في غوره للمنزل بعيداً عن أين يجب أن يكون، و لم تكن تلك الإبتسامة من ذلك الصنو الذي يستعرضه البلهاء و الحمقى من اللذين لا يبارح التفكير عندهم ميناء شواطئه أبداً و لا يتعمق في البحار المحيطة به، فهذه إبتسامة تدل على الإقتدار و التمكن، لا ترتسم إلا على وجه شخص محنك و خبير قد مر بكل ما يمكن للمرء أن يمر به من تجارب و من إختبارات و محن، فما غير الإبتسامة قد ترتسم على وجه الظافر بالصعاب و المتغلب على الشدائد، و كان كلامه بطيئ ذو ثقل و وزن، كل كلمة تخرج هي مسننة و مشذبة و مصفية لتكون على أكمل ما يمكن أن تعبر عنه و لا تصيب غير مغزاها، فهو قد رحب برومان في منزله و أعتذر عن عدم تمكنه من القدوم لفعل ذلك شخصياً بالأمس، و عن كونه كان عازماً على دعوته اليوم أثناء فترة رومان الثانية من العمل عند العصرية للترحيب به كما يجب بما يقتضيه حس الإستضافة عنده، و لكن رومان قد أستبق مجرى الأحداث و غلبه في ذلك، و أرتاح رومان من هذا العجوز الأشيب و أطمأن له بكونه شخص متزن ذو مبادئ و أخلاق حسنة، و لكن الشيئ الشائب الوحيد في هذا الأمر كله هي من كانت جالسة بجنبه طوال هذا الوقت، تتفادى النظر إليه، و تعامله و كأنه غير موجود أمامهم، و لا كأنه جالس على بعد خطوتين منها فقط.

« هئ هئ، إنك حقاً لخجولة يا عزيزتي يا روتفا، فأنت لم تنطقي بكلمة واحدة طوال هذا الوقت الذي نحن أخذنا فيه نثرثر لوحدنا، و أرجو أن لا تحكم عليها خطئاً و لا تعاتبها، فليس من السهل عليها السبر في الأحاديث و الحوارات مع من لا تعرفهم و مع من هي ليست بتلك القرابة منهم، و قد يبدوا من القساوة مني أن أقول هذا، لكني محظوظ لكونها كذلك، فهي لم تطق البقاء و لو للحظة في حرم مدرستها بعد تخرجها منها، و أرادت العودة بجوار والدها مباشرة بقصوة لا تحتمل أي تأخير، لولا الإجراءات الإدارية و الرسميات لمدرستها التي منعتها

من ذلك، فكل ما كانت تفعله طوال تلك الثلاثة أشهر من بعد تخرجها و إضطرارها للبقاء هناك هو كتابة تلك الرسالات المطولة و المفصلة و إرسالها إلي، تخبرني فيها عن ضجرها و مللها، و عن رغبتها الملحة في العودة للمنزل، و عن إشتياقها لي و لأختها الصغرى فيولا، و ما أن سُمح لها بالخروج من حرم المدرسة حتى شدت حقائبها و أرسلتها إلى عنوان المنزل لتسبقها بالوصول إلينا، لنجهزها لها في غرفتها لكي تحس و كأنها لم ترحل عنا قط، هئ هئ، يا لك من فتاة مدللة يا روتفا ».

أرتسمت إبتسامة مجبورة على وجه روتفا في محاولة منها لجعل الأمور تسير بسلاسة و بدون إثارة أي شكوك لكون هناك خطباً ما بينها و بين ضيفهم هذا الذي حل عليهم فجأة، أو بالأحرى القول موظفهم الجديد، و ما أن تجلت لها هذه المعلومة الجديدة و أعلنت نفسها عن كونها حقيقة واقعة حتى تغيرت ملامح روتفا بالكامل و كادا كتفيها أن يسقطا من هامتها لولا قدوم إحدى العاملات التي أزاحت نصب الإهتمام عنها و تبديد إحتمالية ملاحظة أثر تلك الواقعة.

« ما الذي تفعله هنا؟، عذراً يا سيد غوربوف و يا أنسة روتفا على هذا المتطفل، و على عجرفته بإقتحام المنزل هكذا بدون أن يعلن نفسه، فلقد أخبرناه مسبقاً في حالة إن كان بحاجة لشيئٍ ما فيجب عليه إعلامنا، لكن بما إن هذا هو يومه الأول فالخطأ وارد، فعذراً مجدداً، و الآن رافقني و أتبعني و سألبي لك ما تحتاجه، أحسناً؟ ».

أشار السيد غوربوف برأسه تجاه رومان ليرافقها معفياً أياه من الجلوس هنا، حيث أنه قد لاحظ الإرتباك و التلعثم في الجو الذي هم كانوا عابقين فيه، و ما أن خرج كُلاً من العاملة و رومان و أبتعدا بمقدار لا يمكن أن يُسمعا فيه حتى بدأت بزبره و تأنيبه و بالتلويح

بإصبعها في وجه، و رومان بالمقابل كان ينتظر الفرصة السانحة لكي تصمت قليلاً حتى يتبادل الدور معها و يفعل معها بالمثل، لكن خطته فسدت بظهور روتفا خلفهم مما جعل العاملة تطبق فمها و تنزل رأسها محرجة لرؤيتها لها بهذا الشكل تطيل من لسانها.

« المعذرة، لكن هلا تركتنا لوحدنا لقليلٍ من الوقت؟، فلن يقتضي الموضوع منا سوى ثواني معدودة ».

أصطنعت العاملة إبتسامة تطغي على وجهها كله، و يديها تفرك بعضها البعض في خنوع و رضوخ لكل ما قد يطلبه منها أحد أفراد عائلة مستخدميها، لتنسحب من مرآهم و تعود من حيث أتت، فيما كانت روتفا و التي كانت دائماً ما تبرز بشكل يوضح وقارها و تربيتها الحسنة، شامخة الرأس و متلازمة القدمين، تنظر بعيون غريبة و بعيدة لرومان.

« والدي أرسلني لأخبرك بأن عرضه لك بأن تنْظَم معه عند المساء ما زال جارياً، و بأنه سيحس بالكدر لو تجاهلت هذه الدعوة، . . . ، هذا كل شيئ، وداعاً ».

حاولت روتفا الإلتفاف و الرجوع إلى غرفة المعيشة لتجانِب والدها، لكن كلمات رومان أوقفتها في مكانها.

« يا المفارقة و التباين!، أين هذه اللياقة و حسن السلوك و اللفظ عندما كنتِ تحادثينني منذ ثلاثة أيام فقط، أذاكرتي تخونني، أم أنك تغيرين أسلوبك بالكامل أعتماداً على الموقف الذي تجدين نفسك فيه؟، لكن لا غرابة في ذلك، فهذا إعتيادي للبرجوازيين من أمثالكم ».

أستدارت روتفا و علامات الدهشة و عدم التصديق لما تسمع بادية على وجهها و لا يمكن إغفالها، فهي لم تتوقع مثل هذه المواجهة و لا مثل هذا الكلام، خصوصاً بعد مراجعتها و تذكرها للأحداث التي جرت أبان ذلك الوقت الذي لمح له للتو.

« مهلاً، ألم تكن أنت من كان يتصرف بإسلوب شائن و همجي؟، بينما كل ما كنت أنا أحاول القيام به هو تمضية و تجزية وقت الرحلة الطويلة بالحديث مع من يجلس حوالي، و أنت كنت على الجانب الآخر تقطع كل محاولة كنت أقوم بها لتحقيق ذلك، فعن أي إختلاف في الأسلوب و التعامل تتكلم عنه أنت؟ ».

ضرب رومان رجله على الأرض في تحذير لروتفا لكي لا تقلب مجريات ما حدث حقاً عندما كانا مرتحلين على متن القطار، و أخذ إصبعه بالتلويح في وجهها، و كأنه لم يرد فعل ذلك سوى لتبديد حنقه السابق على تلك العاملة التي أهانته و لم يستطع الرد بالمثل عليها.

« لا تقلبي حقيقة ما حدث!، فأنت مختالة و متفاخرة بنفسك لدرجة إنه كان ذلك كل ما حاولتي إظهاره و تبيانه لكل من كان راكباً على متن القطار، و كل ما فعلته أنا هو محاولة إيقاف إستعراضك ذاك، أهذا بالأمر السيئ؟، بالطبع كلا!، لكن هو كذلك بالنسبة لك، فطريقتك هي قلب كل شيئ و عكسه، ليس فقط مجريات الأمور، بل و حتى المفاهيم و المصطلحات تقلبينها رأساً على عقب، تحاولين أن تضعيني على الجانب السيئ و وضع كل اللوم علي، لكن هيهات من ذاك، و هيهات إن ظننت بأن حيلك هذه ستنطلي علي، فقط جربي و حاولي، و سترين مع من تتعاملين أنت ».

نفضت روتفا يديها و أخذت تخض رأسها في سخرية لحال رومان التي هو فيها، و أستيقنت عدم قدرتها في الخوض بالمزيد في حوار بهذه الشدة من اللغط و الشبهات، و مع

من؟، شخص بالكاد تعرفه، و لا تعلم لحد الآن من أية جهة يتقدم فيها في تفكيره، فأرتأت إنهاء هذه المناوشة لكي لا تثير قلق والدها بغيبتها المطولة هذه عنه.

« لا جدوى في الحديث معك، لقد كان ذلك بغاية الوضوح آن ذاك، و كنت من الإصابة في الحكم في ظني عندما أخبرتك بعدم رغبتي بلقاءك مجدداً، و إنه في حال حدوث ذلك فعليك تجاهل وجودي، و كوني سأقوم بالمثل كذلك، لكن لنستمهل الأمور و نهدأها قليلاً، فأنا سأعذرك و سأعذر نفسي هذه المرة لكسر قدسية ذلك الوعد، لكوننا مضطرين لذلك هذه المرة بسبب هذه الظروف التي ليست بيد إحدانا، و لكن يجب علينا في الحال عقد إتفاقاً جديد يراعي هذه الظروف، فمن الآن و صاعداً يجب عليك الإمتناع عن توجيه الحديث إلي أو إعطاء أي إعتبار لوجودي، إلا في حال الضرورة القصوى طبعاً، و سأقوم أنا بالمثل، و لن أنتظر منك أية موافقة لذلك، فهذا أمر قد تحتم و أنقضى شأنه، فوداعاً ».

طأطأ رومان رأسه بصلف و تعنت موافقاً على تلك الشروط، و مباشرة منذ تلك اللحظة أزاح نظره عنها معتبراً إياها غير حاضرة و متواجدة أمامه، فيما أخذت روتفا طريقها للعودة، لكن ليس قبل أن تودعه بكلمات تعلم بأنها ستسعر غضبه و عند ذلك سيجعل منها الفائزة في هذه المواجهة الأخيرة.

« آه، . . . ، بالمناسبة، أتمنى أن تكون تلك الحلويات المجانية التي أقمت الدنيا و لم تقعدها بشأنها و التي أزدرتها بكل جشع قد نالت على إعجابك، هه، ياللهمجية التي حلت علينا في منزلنا! ».

(الفصل الحادي عشر)

ألتقط رومان قبضة يد من الحصيات و الحجارة، و أخذ يقذفها عرضياً ليجعلها تتقافز على صفيحة النهر الهادئة، و كان بين كل حين و حين يلقي نظراتٍ إلى جنبه رافعاً رأسه إلى حيث كان المارة يعبرون على متن الجسر الذي يصل ما بين القطاع الشمالي من المدينة إلى الغربي منه، يراهم من حيث قد أتخذ له موقفٍ على الضفة من النهر الذي كان حداً يقطع المدينة إلى نصفين، و ما أن تنفذ حفنته من الحصايا حتى يقرفص جالساً ليجمع المزيد منها، و كأنه قد كُلِف بردم هذا النهر و طمسه حتى أعلاه بالحجارة، و من خلفه كان سيرغي بدوره جالساً يتلمس براحة يديه الحجارة المنتشرة و المبعثرة من حوله ليجد الجيد و المدور منها و من ثم يلقيها تجاه رومان، حيث كانت رغبته كمثل رومان هي رؤية إحداها تعبر صفيحة النهر لتصل للضفة المقابلة و لكي يتمخض كل هذا العناء و المجهود المبذول إلى نتيجةٍ ما، أياً كانت.

« ما هذه المدينة؟، و من هؤلاء الناس؟، يستيقظون فرحين، و ينامون فرحين، و فيما بين هذا و ذاك يستمرون في تبديد سعادتهم المضجرة هذه على كل من يلاقون، أتعلم يا سيرغي؟، كلما رأيت أحداً من مدعي الفضيلة و الإحسان من هؤلاء يستظهر و يستعرض زيفه بشكل لافت كلما إزدادت رغبتي في التخلص منهم جميعاً، فلقد رأيت أنت ذلك القذر الذي حاول التفضل علينا و إبقاء باب العبور مفتوحاً ليسمح لنا بالمرور خلفه، فمن يظن نفسه؟، و ما الذي يريده بالضبط من تصرفه هذا؟، أهو حس مجتمعي يفرض حاله على هؤلاء الناس؟، أهذا ما يفعله و يحتمه عليك الإنخراط الطويل الأمد في مثل هذه المجتمعات المنظمة؟، أفليس هذا ما يقال و ما يردد على الدوام؟، 'هذا واجبك المجتمعي أن تقوم بهكذا و كذا'، و تلك العبارة الأخرى التي تغلي دمي و تثوره كلما ألتقطتها أذناي 'عامل غيرك كما تريد أن تعامل'، لكن ما هذه الترهات؟، أليست هذه في النهاية، لو أتبعت الأساس التي تصدر منه هذه التوجيهات،

ما هي إلا إنعكاس للدواخل الأنانية لكل فرد؟، فأنا لا أعامل الناس كما أريد أن أعامل لكوني لا أتوقع أي شيئ منهم من الأساس!، و ما دمت أرى الأمور هكذا، فعند ذلك أفلن يكون من الواجب في حال أتبعت سننهم بأن لا أعامل الناس بأي إحساس مسبق؟، أم أن هذا مجرد توجه شاذ آخر في تفكيري يجب تصحيحه، فهذا دائماً ما يقولونه كلما عثر أحداً منا نحن الأحرار في التفكير على ثغرة و ثقب في أحكام هذه اللوائح الإجتماعية التي يضعونها بكل إعتباطية و بعدم تفكر، فالأمر واضح بإنها ليست شرائع سماوية منزلة، و لا تستحق كل هذا الإحترام و التقديس الذي يظهره و يمارسه هؤلاء الغوغائيين، ففقط أنظر لذلك السافل ».

رفع رومان ذراعه و أخذ يتتبع بأصبعه أحد المارة على الجسر، و يحدجه بكل كراهية و بغض، و أكمل كلامه.

« أنظر إليه كيف يمشي رافعاً رأسه، يظن نفسه مستحقاً و موفياً لمكانته هذه في هذا المجتمع، فلا بد و أنه يحسن لوالديه و يبرهما، و يعامل جيرانه بأحسن وجه و لا يشاكسهم و لا يتمنى لهم إلا الخير كما يتمناه لنفسه، و إن كان له أولاد فهو بالطبع سيعاملهم بالطيب و بالتفهم، فهو حتماً يريد أن ينتهي به الحال بأن يهتموا به عند الكبر كما حال إليه والديه تحت عنايته، و لكن أنتبه جيداً يا سيرغي لما سأقول، فعندما تدقق فعلاً و تمحيصاً في سبب كل ما يفعله هذا الشخص، و في حال أن تتبعته لمسيرة أسبوع واحد يقضيه في حياته البائسة هذه، لرأيت بأن كل ما يفعله و يقضيه من خدمات للآخرين هو في حقيقة الأمر راجع لنفسه فقط و عائد له وحده، كإرضاء لرغباته هو و لا غير، و ليس من المبالغة القول بأن الجميع كذلك، و لا يتوقف الأمر عند هذا، فالمجتمع بأكمله مبني على الأنانية الفردية، و لكن ليست المباشرة طبعاً، بل المتوارية و المختبئة تحت طبقات من الإدعاءات و الزيف، فإن كان الأمر هكذا، فما الفرق بين شخص يعلن صراحية عن رغباته الأنانية و الغير مبالية للغير و شخص من أمثال

هؤلاء الحمقى اللذين لا يدركون حتى مكانتهم في المجتمع الذي يعيشون و يقضون جل حياتهم فيه، نعم!، تخمينك موفق يا سيرغي، فلا فرق بين الأثنين، بل الأحرى القول بأن الصنو الأول أفضل لكونه على الأقل صريح مع نفسه و مع غيره في توجهاته، ألا تظن كذلك أيضاً يا سيرغي؟ ».

ألتفت رومان للخلف ليتفقد ردة فعل سيرغي، ناسياً في ذاك الوقت بإن لا كلمة مما قالها قد سبرت أذنيه، و في الحقيقة هو لم يتناسى بقدر ما هو تجاهل و تخطى هذه العقبة التي وضعت أمامه كحائل بينه و بين سيرغي، فهو كان مؤمناً بشدة و مقتنعاً بحدة بأن هنالك رابطة تواصل بعدي تامة بينه و بين سيرغي، و لم تكن هذه مجرد تكهنات، فهو يملك الأدلة على ذلك، فكم من مرة قام فيها سيرغي بالتصرف مباشرة أزاء أمرٍ ما بدون أن يحتاج رومان أن ينبهه إليه، و كم من مرة خاطبه رومان بكلمات معقدة و متداخلة لم تجفل لها عيني سيرغي زهاء رهطها و لكن حدقتا بفهم و إدراك لما يقال، فلم يرى رومان المانع بأن يخرص بأن كل ما يخصه من أفكار و خواطر هي متبادلة مع سيرغي و ما يتصرف هو إلا من منبعثاتها، و كأنه قطعةً منه، لا يختلف عن كونه يداً ثالثة، أو عيناً ثالثة، و هذا ما جعله بسترسل بحديثه هذا و فلسفاته هذه، و لكن لصدمته عندما ألتفت للخلف إنه لم يرى سيرغي في أي مكان في أرجاء هذه الضفة، مهما أجال بناظره على مداها و عرضها الطويل، و خمن آن ذاك بإنه من المحتم بأنه قد غادره و رجع إلى منزله لكي لا يقلق والديه عن أي تأخر قد يحسانه، فمن حركة المارة التي تزايدت و تضاعفت على الجسر تستطيع أن تحزر بأن اليوم المدرسي قد أنتهى، و ها هم التلامذة بقاماتهم القصيرة يتراكضون و يثيرون الصخب و الإزعاج الذي يبغضه رومان و يمحقه، مما حداه لأن يساير في ما فعل سيرغي و قرر هو الآخر المضي من هذا المكان، لكن شيئاً ما أستوقفه و جلب إنتباهه عندما كان ماراً على إحدى المطاعم الباذخة التي تملئ أسواق

وسط المدينة و رأى من خلف زجاج الواجهة عمه إيفان جالساً على إحدى الطاولات القريبات من المدخل، و على الطرف الآخر لم يكن سوى أندريه، نعم، ذلك الرجل السمين الذي كان رفيقاً له في رحلة القدوم لهذه المدينة على متن القطار، فوقف رومان يحدق فيهما مختبئاً خلف أحد أطراف الزجاج، و لم يعلم ما الحكمة هنا من فعل هذا، فهو لن يلتقط أية كلمة و لن يفهم أية إشارة تصدر من يد إحداهما، و لكن في المقابل فلو هو مضى من هنا بعد رؤيته لهذا المشهد فلن يكون ذلك تصرفاً سليماً، فمن منا يشهد شيئاً غريباً و صادماً و لا يرغب برؤية كل تتبعاته مهما كانت صغيرة و تافهة، فالتافه و الصغير هو ما نبدأ عليه بناء الكبير و المهم، فأستمر رومان على وقفته الا طائل منها هذه، حتى تعبتا و كلتا رجلاه و تقرحت أصابع قدميه، و طوال ذلك الوقت لم يبدوا له بأن أي من هذين الرجلين قد يرحلا في أي وقت قريب، فلم يجد بداً إلا أن يدخل المطعم مدعياً كونه زبوناً ما و أن يجلس على إحدى الطاولات الخاويات القريبات، و لسوء حظه فكل الطاولات كانوا مشغولات و مترعات و الطاولة الوحيدة الشبه خاوية كانت لا تزال تجلس عليها إمرأة شابة، جالسة لوحدها تحدق في كتاباً تغطي به وجهها، تقدم رومان منها و جلس على الطرف الآخر من الطاولة غير ملقياً على المرأة كلمة واحدة و لا طالباً أي أذن منها لفعله هذا، و كان كل هذا بتعمد، حيث إن معظم الناس في حال لو قمت بتخطي خط حدودهم و منطقة راحتهم و أمانهم فأنهم في الغالب سيتراجعون و ينسحبون عن ساحة العراك معلنين الهزيمة بصمت، و أخذ رومان ينتظر إنتباه هذه المرأة إلى جلوسه الفاج و المتعدي هذا لتهم بالقيام من على الطاولة و تركها ليجلس عليها لوحده، و هي فعلاً إنتبهت لجلوسه و أغلقت كتابها، و لكنها لم تنهض من مكانها، و لِما تنهض و هي قد تعرفت عليه و أدركت من يكون، فلم تكن هذه المرأة الشابة سوى تلك نفسها التي قابلها في ذلك البيت الفاحش الثراء الذي زاره برفقة زوجة عمه، مما قلب الأمور رأساً على عقب و بدا رومان و كأنه هو الذي على إستعداد للنهوض و الهروب من هذا الموقف و من

هذه المواحهة، لكن عينا هذه الشابة كان لهما ثقلهما الذي يرزح على هامة المرء و يثبته في مكانه، تلك النظرات التي لا يتمكن بأن يفرضها سوى من قضى جل حياته في التمكن و الحوز على كل شيئ يريد و الذي يُنفذ كل طلب يأمره بدون مراددة و جدل، فتسمر رومان مكانه متصلباً كالتمثال مموضعاً بدنه فيما بين الجلوس و النهوض، فأراحته الشابة من حيرته هذه.

« ما بالك هكذا؟، فقط أجلس و أعفني من هذا المنظر البائس ».

عاد رومان للجلوس بكل خنوع و خضوع، منكساً رأسه، لا يعرف أيبدأ الحديث هو أم يتركها لوحدها تخرص ما تريد من هذا الموقف، و في تلك اللحظة أقبل النادل بعدما لحظ قدوم زبون إضافي لم يلحظه عند قيامه بدورته التفقدية السابقة، فوقف ينظر إليه بإبتسامة هادئة، و دائماً ما تكون هذه الإبتسامة نفسها لا غير، و كأن من مقتضيات هذه الوظيفة بأن تغرس أسياخ حديدية مرتفعة في وجنات المتقدمين إن أرادوا الظفر بها.

« مرحباً سيدي، هل تفقدت لائحتنا و أرسيت على ما تريد من أطعمتنا الشهية؟ ».

أمتعض رومان من هذه الكلمات و التي كانت برأيه مهينة و قاسية، فمن أين له النقود لكي يستطيع أن يبذّرها هنا من بين كل الأماكن، فهو لا يستطيع حتى الدخول إلى إحدى المطاعم القذرة و طلب فطيرة واحدة بدون أن يحس بخفة في جيبه، فنفض رومان رأسه معلماً النادل عن عدم رغبته بأي شيئ، و كان سيهم بالإبتعاد عن الطاولة لو لا تدخل الشابة التي أمرته بالتوقف و الإنتظار، و أرجعت عينيها إلى رومان.

« أطلب ما تريد، فأنت ضيفي ما دمت جالساً معي على نفس الطاولة، و أياً كانت هوية الجالس فهذا لا يهم، فهذا مبدأ من مبادئي التي لا أتراجع عنها، فهلم و أخبره بما تريد ».

تردد رومان قليلاً، و أستغرب من هذا السخاء و اللطافة و أحتذر منها غير راغباً في قبول أي منها إلا بعد تقصي أسبابها و بواعثها، فأشار إلى النادل بأن يرحل و لا يجلب أي شيئ له، و مرة أخرى ما أن حاول النادل المغادرة حتى أستوقفته الشابة آمرةً إياه بنبرة حادة و شرسة بأن لا يغادرهما حتى تخبره هي بفعل ذلك، فوقف النادل مكانه و حلت مكان الإبتسامة ملامح الإرتباك و الحيرة فيما يفعل، فهو لا يملك في جعبته أية حيلة للتخلص من هذه المواقف التي يضعه فيها بعضاً من هؤلاء الزبائن المتعنتين و الصلفين، فرابط يديه أمامه و أخذ يحدق فيما بينهما مجيلاً عينيه من إحداهما إلى الآخر، و كان رومان على الجانب الآخر قد بدأ يستجمع بعضاً من ثقته و شجاعته مدركاً بأنه لم يعد طفيلياً و غريباً على هذا المطعم، فها هو جالساً قبال زبوناً فعلي و في نفس الوقت قد تمكن في أن يصد توجهات النادل و يرفض خدماته بدون أن يشكك في وجوده هنا.

« و لماذا أقبل تبرعاتك؟، أترينني معوزاً و محتاجاً لمثل هذه الشفقات؟، فلا تنسي بإنني قد أخبرتك مسبقاً عن ورثتي الفاحشة التي أنتظر إنتهاء بعض الإجراءات القانونية البسيطة للحصول عليها، و لن يكون ذلك إنتظاراً طويلاً، فقط بضعة أشهر و سترينني على المقعد الآخر أخبرك بأن تطلبي ما تشائين، ألا تصدقين ذلك؟، حسناً، و ما يهمني إن صدقتيني أم كذبتيني، فأنا لا أعرفك و لا أعرف حتى ما هو إسمك، أهذه أيضاً إحدى مبادئك؟، أن تجعلي الآخرين يتوسلون و يتضرعون لك للحصول على إسمك؟، أرأيت كم يجعلك هذا تبدين و كأنك محتاجة لكل هذا الإهتمام و المحاباة مِن مَن هم مِن حواليك، فأصرفي هذا النادل ليغرب عن وجهي قبل أن أقلب هذا المكان رأساً على عقب، أفهمتِ؟ ».

لم تبدوا الشابة متأثرة بأي مما قاله رومان، و بل هي كانت تبالغ في إظهارها لإحساسها بالضجر و الملل، و لم تغب عن ناظر رومان المرات العدة التي قامت فيها بقلب

عينيها في محجريهما، و أستمرت تصر على النادل بأن يسأل رومان مرة أخرى عن ما يريد، فتردد النادل في فعل ذلك حيث أنه كان قد سمع كل كلمة قد قالها هذا الشاب المضطرب، و لم يرد أن يخترق لائحة قوانين المطعم التي تقضي بعدم تأجيج الزبون في حال لو أنه أظهر غضبه بشأنٍ ما، فحاول إظهار التوسل تجاه الشابة لإعفاءه من أن يضطر لفعل أي أمرٍ قد يلطخ قدرته في التمكن من هذه الوظيفة، و لسوء حظه لم ينل هذا الإعفاء حيث ألحت و أصرت هي بأن يسأله مرة أخرى عن ما يريد، و لكن و في هذه اللحظة ظهر أمامهم فجأة الرجلان اللذان كان رومان متواجداً هنا من الأساس لأجليهما، إيفان و أندريه، و كان الأول متفاجئاً و مرتعداً لمصادفته لرومان خارج نطاق و حيز منزله، فيما كانت دهشة أندريه من باعث السعادة و الظفر بالحظ الجيد الذي جعله يلاقي رومان هنا من بين جميع قطاعات هذه المدينة الواسعة، فلم يتوانى عن مد يده إليه لمصافحته، و لم يكتفي بهذا، بل أنه قد سحبه تجاهه ليحتضنه و كأنه صديقاً قديماً لم يره منذ عقود قد خلت، و أخذ يساءله عن أحواله و عن ماذا كان يفعل في كل هذا الوقت، و جراء هذه الأسئلة الكثيرة و المتعددة إضطر الرجلين للإنضمام للشابين على طاولتهما، و كانت الشابة قد تعرفت على السيد غيرسكفيسكي من قبل، و هو بالمثل قد تعرف عليها، و أتضح لرومان جراء ذلك التعارف بأن هذه الشابة الوقحة كانت تدعى بأليس، و بالدور تبادلت مع أندريه التحية الموجزة و المكايسة التي يمارسها الغرباء عادةً مع بعضهم البعض، و أنطلق أندريه بثرثرته كما أعتاده رومان و عرفه بذلك، و لم يترك شيئاً من ما تحادثه مع إيفان للسرية و الخصوصية، مما جعل علامات الإرتباك و عدم الطمأنينة تبان على وجه إيفان بشكل واضح لرومان حيث كان إيفان قد أتخذ مقعده بجانب أليس و قبال رومان، و علم رومان من كلام أندريه عن سبب جلوس هذين الأثنين معاً، و ما علاقتهما مع بعضهما البعض، فهو يعرف مسبقاً بكون عمه يعمل كمستشار لشؤون التجارة، و علم للتو بأن أندريه هو رجل أعمال غريب عن هذه المدينة، أو بالأحرى وصفه بإنه ليس

معتاداً عليها و لا يملك الكثير من المعارف فيها، و لذلك قرر إيفان ملئ هذه المكانات الشاغرة في حيز معارف أندريه، بأن يكون ناصحاً و موكلاً لتجاراته، و في نفس الوقت بأن يكون صاحبه و واسطة بينه و بين من يعرفهم هو من كبار هذه المدينة بحكم خبرته الواسعة و المديدة في حيثيات التجارة في قطاعات هذه المدينة، و كانت خاتمة هذا العقد و الدفعة الأخيرة التي جعلت أندريه يتطمأن و يرتاح لهذه الصفقة العملية و الشخصية في نفس الوقت هو لقاءه هذا مع رومان الذي أيضح الصلة التي تربطه مع إيفان.

خرج الحشد من المطعم مودعين بعضهم البعض، و أدار كُلاً منهم رجليه موجهاً إياها إلى وجهته التالية، فكانت الطريق واحدة كما قررتها الصدفة أن تكون بين رومان و أندريه، الذي أسرع من حركة وطئ قدميه ليلحق برومان و يسايره في مشيه، ينظر إليه بتلك العيون الباشة و المرحبة، فكان ذلك أمراً غريباً قد لحظه رومان منذ أن تعرف على أندريه في ذلك اليوم، ألا و هو أنه في العادة و عندما يلحظ إن أحداً ما يعامله بكياسة و بلطافة زائدة عن الحد، أو حتى أحياناً متوسطة الحد، فهو في الحال يحس بإنفعال غاضب و بحنق متصاعد لا يخمد إلا بمناوشة الشخص و إرغامه على محو تلك التعابير من وجهه، أو التهجم و التذمر عليه في دواخله، و إحتقاره بإنزاله لمنزلة الحمقى و السذج اللذين لا يستحقون من وقته و لو بالقليل، لكن يبدوا بأن أندريه كان حالة مستثنية من توجهاته الإنفعالية هذه، فهو لا يشعر تجاهه بأية ضغينة و لا يضمر له بأي سوء أو كراهية، مهما ثرثر و أكثر من كلامه حتى الملل و الضجر، فهو يظل ينظر إليه من على بعد و لا يحاول المشاركة معه في الكلام و الحوار لا بالجيد و لا بالسيئ، فأندريه كان كالحيوان النادر المحبوس في صندوق زجاجي، لا تعرف خواصه و لا قدراته و لا ما يحب و لا ما يكره، فتمتنع عن محاولة إرضاءه أو تأجيجه لكونك لا تدرك مسبب هذا من ذاك، فتحدق فيه من خلف الزجاج آملاً بأن تكون حركته التالية

تخبر و لو بالقليل عن ما يكونه و ماهيته، و لكنه يستمر بتخييب أملك كونه لا يقوم إلا بالمماوهة و قولبة نفسه بما يظن بأنه الأفضل لإبعاد أياً من يكون يراقبه عن التعرف على ما يكون عليه حقاً.

« بالمناسبة، هل صادفت روتفا في إحدى أرجاء هذه المدينة؟، أنا أعلم بأن هذا سؤال ذو آمال لا تبشر إلا بالنفي و السلبية، لكني خمنت، لما لا أسألك و حسب، فمن يدري ما هي نسب هذه الصدف التي تتلاعب بنا بين أناملها، فها نحن الأثنان نمشي بجنب بعض متغلبين على كل الإحتمالات، مما يجعلني أظن، و بل أقول متأكد، بأن هذه الملاقاة بيننا ليست مجرد صدفة و ضربة حظ، بل هي جزء من مخطط أكبر و أعظم منا، و إن كان الأمر كذلك، فما المانع بأن نلاقي نحن الأثنان روتفا مجدداً، و تكون بذلك أمنيتي قد تحققت ».

تلعثم رومان بعد أن زاد أندريه الطين بلة، و أحتار إن كان يجب عليه إخباره بأن معجزته هذه قد تحققت فعلاً، أو أن ينفي حدوث أي مما حدث و بأنه لم يلاقيها و لم يسمع منها منذ أن أرتجلوا من على متن القطار، و يكون بذلك مثله كمثل المكذبين بالأنبياء و الرسل، اللذين إن حلت عليهم المعاجز أنكروها و تصنعوا العمى، و في حال لو قرر إتخاذ السبيل الأول، فألن يكون عليه أبان ذلك أن ينبئه بكراهيتهما لبعضهما البعض و عدم رغبتهما بمصاحبة بعض حتى لو من داعي الملاطفة في حال قرر أندريه لم الجمع بينهم هم الثلاثة.

« كلا، أكره أن أخبرك بهذا، لكني لم أرها مطلقاً و أبداً بعد تلك الصبحية عند محطة القطار، و في الحقيقة، حتى و لو إني قد صادفتها فلا أعتقد إن بمقدوري التعرف عليها من بين كل الناس، فأنا لا أذكرها جيداً، و لا أتبين ملامحها في ذاكرتي، ففي حال لو كنت قد لقيتها فعلاً، فلا بد و أني قد فرطت تلك الفرصة الإعجازية، و لن تمر علي مطلقاً بعد ذلك، للأبد!،

فدعنا منها، و لنتركها في طي الذكريات أو حتى النسيان إن شئت، فلا مشكلة لو حدث ذلك أيضاً، نعم، نعم!، فلا أعلم لماذا أنت مهووساً لهذه الدرجة بأن نتلاقى مع أشخاص بالكاد تعرفهم و لا تعلم ما هي شخصياتهم الحقيقية، فما يدريك إن كانت كما ظننتها حقاً، فقد تكون شخصاً متعنت، و قبيح الأخلاق و المحاسن، و لأقول لك الصراحة يا أندريه، لكوننا الآن أقرب من أن نجامل بعضنا البعض و نخفي ما نظن حقاً، و ما أريده أنا هنا هو مصلحتك، صدقني، فالحقيقة هي أنني قد لاحظت، و لو بشكل متواري، علامات الصلف و الأفون على تلك الشابة روتفا عندما كنا على متن القطار، فهي تبدوا من ذلك الصنو من الناس اللذين لا يدعون الأمور تقضى بمسارها الطبيعي، بل يجب أن يكون كل شيئ تحت سيطرتهم و سلطتهم، و أن لم تشئ الأمور بذلك، قاموا بقطع الصلة و أقاموا العداوة مع الطرف الآخر، فمن منا يقوم بعقد إتفاقيات مخصصة و مطرزة على أهواءه و بما يريده بالضبط كلما مرت عليه حالة أو وضع لا يحبه و لا يستسيغه؟، لا أحد!، لا بد و أنك تظن كذلك أيضاً، لكن ليست تلك الشابة روتفا، فهي لا تعقد علاقاتها إلا بعقود و إتفاقيات، و ضف على ذلك جلبها لأمور قديمة و لا دخل لها للموضوع الذي بين اليدين فقط لتحصل بذلك على النقاط التي تخولها للفوز في تلك المناوشة، فمن يفعل ذلك غير المتعنت و الصلف؟، فأقول سحقاً لها من إمرأة، هذا لو طلبت مشورتي و رأيي ».

ضحك أندريه جراء هذا الإسترسال في التذمر و التنفيذ عما بالدواخل الذي أستعرض رومان قدرته عليه في حال إضطراره لذلك، و أخرج نفساً عميقاً يسخر به من كل هذا الذي حدث للتو.

« لقد قابلتها، أليس كذلك؟، فذلك واضح كوضوح هذه الشمس التي تسطع بوهجها المشع أمام أعيننا، و لا يبدوا بأنها كانت مصادفة واحدة منفردة، فما سردته للتو يتضمن في ثنياته

العمق و الشدة في هذه المشاعر التي لا تتكون من حادثة واحدة، . . . ، لا تقلق، فأنا لن أطلب منك أن تُنظّم لنا مائدة عشاء لنتم تجمعنا بذلك، و لن أسألك حتى بأن تدلني إليها، و لو حتى بإشارة أصبع، فكما قد قلت لك منذ قليل، إن شاءت الصدفة أن تجمعنا فسيكون ذلك مقبولاً، و هذا ما أردته منذ البداية، فعلى كل حال، لقد سررت حقاً بمقابلتك مرة أخرى يا رومان، و للأسف يجب علي أن أمضي في طريق مختلف و أن أودعك، و من يدري يمكن أن تجمعنا الصدفة مرة أخرى، و لندعها تفعل ذلك، هئ هئ، فيا لحظنا!، أن نجعل القدر يتكفل بتنظيم إجتماعاتنا و لقاءاتنا، فوداعاً يا رومان، بل يجب أن أقول إلى اللقاء، و أعتن بنفسك ».

مضى أندريه بحال سبيله مبتعداً عن رومان الذي وقف يحدق في ظله الطويل حتى غاب عن مجال رؤيته، و من بعد ذلك أكمل طريقه عائداً لمنزل السيد غوربوف لإتمام فترته الثانية من عمله، حيث أقتربت الساعة من أن تكون الثالثة.

ألتف رومان حول منزل السيد غوربوف مريداً التوجه إلى الحديقة و هو يتمتم و يهذرم تحت أنفاسه جل اللعنات و الشتائم بحق سيرغي الذي تركه وحيداً هنا ليعمل، ممتعض الوجه مسدل الأهداب و يبصق لعابه مع كل كلمة بذيئة كان يطلقها من فمه، مسائلاً نفسه أيجب عليه حقاً أن يقضي ثلاث ساعات متواصلة أخرى في هذه الحديقة اللعينة، و الأسوء هو عدم السماح له بتجزية هذا الوقت بأخذ قيلولة قصيرة كما فعل هذا الصباح، فإن أراد التهرب من هذه المسؤولية فيجب عليه على الأقل أن يتم حقاً مقدار من العمل في حال لو كان أحداً ما سيتفقد أمر الحديقة بعد إتمامه العمل فيها، و ما أن يفعل ذلك فسيستطيع بعدها التسكع و التبطل كما يريد، لكن لسوء حظه و لدهشته عند دخوله الحديقة هو رؤيته إبنة السيد غوربوف الصغرى، فيولا، جالسة على كرسي قد نُصِب تحت ظلال شجرة الصفصاف، و في

يدها كتاباً مدرسي تقرأه بخمول و كسل، و ما أن سمعت قدوم شخصاً ما من خلال المدخل حتى قفزت من على كرسيها و على وجهها إبتسامة عريضة، و أخذت تعدوا قادمة تجاه رومان قبل أن تلحظ بكونه غير الذي كانت متوقعة قدومه، فأدرك رومان حالاً هوية ذلك الشخص الذي كانت ترغب بدخوله عليها ألا و هو ذلك العجوز الأدرد، فلم يساءلها و لم يستعلم منها ما سبب تراجعها و تخاذلها تجاه كرسيها بعد كل هذه الإنطلاقة التي قامت به.

أنقضت ساعة منذ أن قدم رومان، و لم يتبادل كلمة واحدة فيما بينه و بين فيولا التي ظلت جالسة على كرسيها تراجع في كراستها التي غطت وجهها بها، و كان رومان على أحر من جمر لأن تغادره بأسرع وقت، و كان محتاراً من ما تريده بجلوسها هذا الغير مراد به هنا، فهي ليست من الصغر لأن لا تدرك بأن أمر ذلك العجوز قد أنقضى، و بأنه لن يعود مرة أخرى هنا، إلا في حال لو تبرع برفاته كسماد لتربة الحديقة مثلاً، أبتسم رومان لهذه النكتة التي أسرته و رفهت عنه، و أخذ يقهقه و يلطم نخذه بيده و هو يردد النكتة تحت أنفاسه.

« ما المضحك؟ ».

كاد رومان أن يكسر رقبته عندما لواها للخلف جراء تلك الكلمات التي لم يتوقعها، و أخذت دقات قلبه ترتجف و كأنه قد أرتكب جرماً ما، و لكنه تمالك نفسه و واجه الورود التي كان يعتني بها و حاول إكمال عمله و تجاهل سؤالها لربما ستنقضي الأمور على خير و تحس أثر هذا بكونها غير مرحب بها هنا أثناء مداومته لعمله، لكن ما لم يعمل له رومان حساب في هذه المعادلة هو تجاهله لعناد و إلحاح الأطفال مِن مَن هم في مثل سنها، و كيف أنهم لا يوتعبون للإشارات الخفية التي يستعملها البالغين تجاه بعضهم البعض لإيضاح الأمور التي يرونها

في غاية الإزعاج و الإحراج بأن يعلنونها صراحة، فنهضت فيولا من على كرسيها و أغلقت كراستها التي خبئتها خلف ظهرها ممسكةً إياها بين يديها، و أخذت تقترب بحذر و بفضول تجاه رومان الذي شعر بخطواتها تقترب، و حاول الإدعاء بكونه قد أنتهى من هذه الناحية من الحديقة، و عن كون المنطقة التالية في مخططه للعمل عليها لم تكن إلا على الطرف الآخر من الحديقة!، لكن فيولا تجاهلت هذه البادرة الواضحة المغزى من رومان، و لم تعفه من سؤالها الذي أعادته بإلحاح.

« لم تخبرني بعد بما هو المضحك ».

و لم يعد في جعبة رومان أية حيلة أخرى ليتجاهلها بها، حيث غدا واضحاً بإنه و في حال ظل على صموته هذا فهي ستدرك تعمده لذلك، و من يعلم ما ستقوم به بعد ذلك، و خصوصاً كونها الأخت الصغرى لروتفا، مما يجعلها تلقائياً معتلية لمكانة سيئة في تراتيب رومان في تفضيلاته لمعارفه.

« لا شيئ، لقد كنت أتذكر شيئاً ما فعله ذلك الساذج سيرغي، لقد رأيتيه بالأمس، أليس كذلك؟، ذلك الطفل ذو الشعر الأسود و التي تعتلي وجهه بشكل دائم تلك النظرات التي توحي بأنه يعوم في عالم آخر، ذلك كل ما حدث، فلا تقلقي بأي شأن أو شيئ مما يصدر مني و عودي إلى دراستك ».

تظاهر رومان بالعمل مجدداً فيما كان ينتظر حراك فيولا و رجوعها إلى من حيث أتت، و لكنها خيبت آماله و ظلت مكانها تتفحص ما كان يقوم به من جهة و من ثم تنتقل لزاوية أخرى لتتفقدها من تلك الناحية، و كأنها تقيم جودة عمله، حتى أقتربت منه فجأة و سحبت المشذب من بين يديه دافعةً إياه برفق جانباً لتتخذ هي مكانه و لتتم عمله بدلاً عنه،

فتراجع رومان من حيث وقف لتطئ قدمه كراستها التي وضعتها أرضاً، و ألتقطها بين يديه ليفتح صفحاتها، و بدا له بأن ما يحدث في تلك السطور التي لم يفهم منها شيئاً أكثر إثارة للإهتمام من مجرد مراقبتها تقضي عنه عمله، فأنقلبت الآية في ما بينهما، و أتخذ رومان كرسيها الخاوي مركزاً له ليريح جسده، و أعتلت إبتسامة ظافرة على شفتيه لكونه قد حصل أخيراً على بديلاً مناسب لسيرغي.

(الفصل الثاني عشر)

لم يصدق رومان عيناه عندما دخل غرفة الضيوف و رأى حشد الناس اللذين ملؤا كل زاوية منها، يتضاحكون بتلك الضحكات المبتذلة التي تصدر من مؤخرة حلوقهم، و كُلاً مستحلي بأحسن لباسه من بذلات و فساتين خلابة و أنيقة، فيما وقف هو عند المدخل بلباسه المدني المتسخ و ذو الرائحة النتنة بعد قضاءه ست ساعات في هذا اليوم خائضاً في الأتربة و الأسمدة، و لم يدرك و لم يستوعب رومان كلام السيد غوربوف عندما قال له بأنه مدعوٌ اليوم للإنضمام معهم بأنه كان يعني من هذا الكلام هذا النوع من الإنضمام، أي الحفلات الباذخة التي يتجمع فيها الأثرياء و التي يقضون وقتهم خلالها يتغمازون فيما بينهم عن ثروتهم و غنيهم، و كاد رومان أن يستدير عائداً من حيث أتى و خصوصاً بعد تلقيه بعض النظرات المخزية و المشمئزة تجاهه من بعض الضيوف مِن مَن حواليه، لكن يد السيد غوربوف من آخر الصالة كانت تشير ناحيته آمرةً إياه بالمجيئ، مما حداه للقفول عن الهروب و أخذَ عوضاً عن ذلك بشق صفوف الضيوف متجهاً إليه، فلقاه واقفاً بصحبة بعض الرجال الكبار في السن و ممن تبدوا على وجوههم علامات الجد و الحزم، و من بعد أن ألقى رومان التحية عليهم، عرفه السيد غوربوف بضيوفه، و لم يبدوا مهتمين و لا معيرين أي إهتمام لهذا التعريف و لم يبتغوا سوى العودة إلى مجرى أحاديثهم السابقة، فأنسل رومان من صفوفهم تاركاً إياهم يتناقشون في شؤون التجارة و إدارة الأعمال التي لا يفهم منها شيئاً، و أخذ يتفسح في أرجاء الصالة متنقلاً من زاوية إلى زاوية أخرى منزلقاً من بين حشود الناس، فكانت إحدى هذه الزوايا قد خصصت للشبان مِن مَن هم في قرابة عمره، و كانت ضحكاتهم الساخرة و اللاهية تتفتق مع كل نكتة يلقيها إحداهم، ومن بين وسطهم سطع ذلك الشاب ذو الحضور البارز، متأنق بأبهى بدلاته و مصففاً شعراته للخلف، و على شفتيه تلك الأبتسامة الوقحة و التي تفرض حس

الإعتداد بالذات، فأخذ رومان يحدق في وجوه هؤلاء الشبان متخذاً بينه و بينهم جداراً من الأجساد التي حالت في ما بينهم، و بدأت تلك الأفكار تغزوا ذهنه من جديد، تلك الخواطر المتهجمة و الحاقدة التي لا تبغي لأحد الخير و لا السعادة، مكوراً يديه ككقبضات، و كلما رأى ثيابهم الباذخة و أقمصتهم الناصعة البياض و ضحكاتهم المترفة و المشبعة كلما تزايدت حدة تلك التهجمات و الشتائم يلقيها عليهم جميعاً غير تاركاً أي أحداً منهم ليسلم منها، تلاقت عيناه مع عيني ذلك الشاب الذي توسط الجماعة، و الذي لم تمنعه نظرات رومان الكارهة من توجيه إحدى إبتساماته تجاهه، مما زاد من غيظ رومان مزيداً، و زاد غليان دماءه حتى بدا و كأنها ستنفجر مترعة من جميع مخارج جسده، فأنعطف بوجهه بعيداً عنهم و أتجه لزاوية أخرى من هذه الصالة الواسعة، فكانت هذه الزاوية هي زاوية النساء الاتي فضلن الجلوس على الأرائك و الكراسي ليتخذن لهن مجلساً أريح يسمح بحرية الإسترسال في أحاديثهن، فجلست النساء الأكبر سُناً على الكنبات من باب إستعطاف الإحترام و الوقار الذي توجهنه الأصغر منهن تجاههن، فيما ظلت هؤلات الشابات الأصغر سناً مشكلات تجمعات من مثنى و ثلاث و تفرقن حواليهن، و حازت إحدى الأحاديث المتبادلة بين شابتين إهتمام رومان الذي وقف مجدداً من على بعد يسترق حديثهن.

« أهذا حقاً ما تظنين؟، . . . ، لا أعلم عن ذلك، فيبدوا لي من المستحيل بأن لا ينال أياً منهم على إهتمامك و إعجابك، فنحن لا نتكلم هنا عن أولائك المتسكعين اللذين تريهم يعبرون و يقطعون الطرق من جهة إلى جهة متخذين المتاجر كمزارات لهم يقضون جل أوقاتهم فيها و لا يجدون هدف أسمى لهم من تبديد وقتهم سوى في تلك التفاهات، فمن يقفون أمامنا هنا هم النخبة، الأفضل من بين الأفضل من خيرة شبان هذه المدينة، صدقيني، لن تري أحسن و أجود من هؤلاء الشبان مهما بحثتي ».

أبتسمت روتفا مدركة لكلام جورين، و لم تحاول تفنيد كلامها بأية حجة أو عذر، فما الذي تعرفه هي عن مثل هذه الأمور لكي تكون حاكمة و واعية للفروقات و الخواص التي تفرق بين هذه الخانة من الشبان و الأخرى، و حاولت أن تغير مسار الحديث إلى موضوع آخر، لكن بدا إصرار جورين ملحاً بصورة قصوة لا يمكن إعواج طريقه، فما دام هؤلاء الشبان متواجدين على الطرف الآخر من الصالة فهم سيظلون محور حديثها، و أستمرت بمدحها لهم و التعزيز من شأنهم، و عن كون روتفا غير مهتمة بأي من هذا هو أمراً لا يجب التغاضي عنه و يجب العمل على إصلاحه و تقويمه، فأخذت تحذرها من إنَ في حال إن إستمرت على هذا التخاذل و الا مبالاة فلا يجب أن تلومن إلا نفسها لو إنتهى بها الحال مع شاب لا يستساغ شكله و لا تطاق طبيعته و شخصيته، و بدأت تعدد لها الأمثلة عن بعض الفتيات و الشابات الاتي تعرفهن مِن مَن إنتهى بهن تغافلهن و جهلهن على ذلك الحال المشؤوم، و لم يكن صموت روتفا و إمتناعها عن الرد بالإيجاب أو النفي إلا إشارة لجورين فسرتها كجواز و سماح لها لكي تستمر في الطعن في أمور الناس فقط لتثبت صحة نظرياتها و ما تقوله، حتى بدا لها من المحبب و من المتطلب لكي ترسخ جدية ما تقول بأن تذكرها بذلك الشاب الذي لاقوه منذ عدة أيام أثناء تسوقهم كملاذها الأخير لإعلامها عن مخاطر الإستهانة بأصول إختيار الشريك المناسب.

« أنت لا تريدين بأن ينتهي بك الحال مع شرذمي وسخ كمثل ذلك الشاب، أليس كذلك؟، أرأيتي كيف كان يلتهم قطع الحلوى تلك بيديه الأثنتين، يلقي الواحدة تلو الأخرى بإندفاع مغثي، و أقسم لك بإني كدت أتقيئ فقط من رؤيته يقوم بعصر الحشوة من باطن الكعكة في فمه، و رؤيتها تسيل من جانب فمه، آه، يا للقرف! ».

حضنت جورين نفسها لتبعد رجفة و موجة القشعريرات التي قد تقمصت بدنها، و هي تدلي بلسانها ملمحة بأن ما قالته مسبقاً عن رغبتها في التقيئ لم تكن مجرد مبالغة منها، فيما

قلبت روتفا عينيها تجاهها جراء هذا الإرصان في وجهة نظرها التي تحاول إجبارها و إراغمها على تقبلها.

« أتعلمين ماذا؟، هذه المرة الأولى التي سأتفق فيها معك في جانب من هذا الموضوع، فإن كان هناك شخصاً واحداً يجب علي تجنبه بكل ما أستطيع، فهو سيكون ذلك الشاب، فلن تجدي أي إعتراض أو ممانعة مني لو كانت هذه نقطتك الوحيدة، فلذا دعينا ننهي هذا الموضوع يا جورين ما دمنا قد توافقنا أخيراً في رأي، فلقد مللت من هذا الحديث لأخبرك الحقيقة، إذاً، . . . ، لقد سمعت عن حصولك على الترتيب الأعلى في التقييم الجامعي، لك تهانيي، فلا أحد يستحق هذا أكثر منك ».

كادت جورين أن تطير فرحاً لتذكيرها بهذا الحدث الذي كانت في الحقيقة قد أخبرته لكل من لاقته و صادفته في الأيام القليلة الماضية، سواء أكانت معرفتها بهم وثيقة أم لا، و لكن هذه الفرحة لم تدم إلا لحظات حتى تذكرت سبب عدم إخبار رفيقة طفولتها عن هذا الخبر الهام، و أسدلت أهدابها و قالت بشفة مدلوعة.

« إعذريني يا روتفا على عدم إخبارك، فأنا لم أشئ أن أجعلك تشعرين بعدم الراحة و لا أن أضعك في موقف محرج، فأنا أعلم كم كنت دوماً متشوقة و لا تطيقين الإنتظار حتى تكملي الدراسة الأساسية حتى تنضمي للجامعة، و أعلمي أن لولا عدم تواجدك لما أستطعت تحقيق المركز الأول، فمن منا يستطيع تخطي و منافسة ذكاءك و حذقك، فلطالما كنت أنت الأولى من بيننا جميعاً ».

نفضت روتفا رأسها غير مريدة الخوض في غمار هذه الإعتذارات و التبريرات، فهي لم تقل ذلك الكلام إلا من داعي صدقها في تهنئة رفيقتها و إعلامها بسعادتها و غبطتها تجاهها لنجاحها هذا.

« لقد قلت لك مسبقاً ألا تقلقي بشأن ما ستكون عليه ردة فعلي، و إن كان كلامك سيهينني أو يجرحني أم لا، فأنا لست بهذا الضعف و الوهن، و لا أملك من الأنانية و الجشع ما يكفي لأحمل لك الضغينة و الكراهية نتاج ما تحقيقنه بجهودك بمفردك و تفانيك في كل ما تقومين به، و أيضاً، لو أخير ألف مرة بين الإنضمام إلى الجامعة أو الإعتناء بوالدي و الإهتمام بصحته، لأخترت الخيار الآخر في كل مرة، فلا يوجد هنا أية حسرة أو ندم في ما قد قررته و في ما قد فعلته ».

أسدلت جورين شفتيها في رقة و تعاطف، و أمسكت يدي روتفا بين يديها في ملاطفة و تآخي، و لم تدم هذه اللحظة سوى ثواني حتى هب عليهم رومان من حيث لا يدرون، لابساً قناع الغضب و الأزورار على وجهه، ينظر إلى هذه مرة و إلى تلك مرة أخرى، و أخذ يزعق عليهن.

« أهذا ما تفعلنه دائماً؟، تختليان ببعضكن البعض، و تتهجموا بكل هذه الألفاظ البذيئة و اللاذعة و أقول المقززة أيضاً على من يعجبكن و من لا يعجبكن، أهكذا هي تربيتكن؟، و لماذا؟، فقط لكوني مختلفاً عنكن؟، و أسلوبي في التعاطي مع ما تلقيه الحياة تجاهي يختلف عنكن، و دعاني أخبركن، أن السبب لذلك ما هو إلا تبيان للفرق بينكن و بيني، في كلٍ من السبب و النتيجة، فما كان تصرفي المقزز في المتجر كما وصفتيه أنتِ يا صاحبة الشعر الأسود سوى لأني لست أحوز على ما تحوزنه من النصيب في هذه الحياة لكي أعامل ما أراه يمر من

تحت ناظري كمجرد حدث يمكن أن يتكرر بكثرة و بتعداد، فأنتن كمثل الأسد الحبيس في حديقة الحيوان الذي لا يتكلف عناء الجريان عندما يرى المربي يهم تجاهه حاملاً دلو قطع اللحم، فهو ضامن و معتاد لمرءى اللحم يلقى تحت رجليه، و لكني مختلف عن ذلك، فأنا الأسد المتوحش الطليق، الذي يجب أن ينقض على الفريسة في أول فرصة سانحة، فإن فوتها فهو غير مدرك و لا ضامن إن كانت الفريسة التالية ستمر تحت رقابة ناظره في وقت يكون فيه لا يزال يحتفظ بمخزون من الطاقة يسمح له بالإنقضاض عليها، فهل هذا مقزز و مقرف بالنسبة لكن؟، أهذا ما يجعلكن تحسسن برغبة في الإرجاع و التقيئ، لا عجب من ذلك و أنتن حبيستا التخم الجَشع، و لا تقلقن من لسعة غضبي و حنقي، فأنا رجلاً أكبر و أرفع من أتخذ طريق الإنتقام اللاتي تتخذنه أنتن بكلماتكن الموجعة التي تلقيانها بكل سهولة و أفون و كأنها لا تعنيكم بشيئ، و يمكنكن أن تعتبرن هذا التأنيب الوديع كعقاب بسيط لفعلكن الطائش هذا، هذا ما دمتم تعدون بعدم الرجوع في التعدي في القول و الكلام مرة أخرى على كل من يخطر في بالكن و تستلمه ألسنتكن، أاتفقنا؟ »،

تفرقع وجه جورين ضحكاً مزيحة بذلك حس الدهشة و الحيرة اللذان قد كانا الصفة الطاغية على وجهها طوال خطاب رومان، و لم يهدأ رومان و لم ينتظر إنتهاءها من هذا الضحك المهين الذي صفعه على خده و أفاقه من هذه الغفلة التي كان فيها و التي جرجرته و أجبرته لينطق بذلك الكلام الذي لا يقال و لا ينطق إلا في الخلاء و من خلف جدران الذهن الكاتمة، و أخذ ينظر بحرقة و لوعة حواليه نائحاً على ما يحدث له و على ما أقتضاه له حس بديهيته و سرعته في إطلاق كلماته دون تفكر و تروي، هذه العادة الشائنة التي لا تنوء عن توريطه و إيقاعه في هذه المشاكل و الإشكالات المحرجة التي لا تنتهي و لا تنقضي، حتى تساقطت قطرات العرق من على جبينه و أنساحت على طول وجهه المحمر، ينظر يميناً فإذا

برجلين بهندام أنيق يحدقان فيه بإستغراب و كأنهم ينظرون قطاً مشرد قد دخل أغوار المنزل و لم يعرف طريق خروجه، فأدار رومان رأسه يساراً، و إذا بالنساء الجالسات على الكنبات يتساسرن في ما بين بعضهن البعض بكلمات مهذرمة لا تسمع منها سوى بسبستها ولا يتطلب خبيراً أو عرافاً لتستبطن ما نوعية هذه الأحاديث التي كانت تتناقل فيما بينهن و ما هي طبيعتها، و عندما أرجع رومان رأسه للأمام تحت رضخ عضلات رقبته المنقبضة كان ما لاقاه هو وجه روتفا المتعاطف و المشفق الذي كان يوجه الضربة الموجعة و الفاصلة التي أخلدته أخيراً إلى مثوى الأرض حيث سقط مغشياً عليه تحت صرخات و تأوهات من الحشد الذي بدأ يدور حواليه و يتجمع ليستكشف ما خطب هذا الشاب الغريب الأطوار و المشعث الهيئة الذي أقتحم عليهم دار الترف و الرخاء هذا الذي لا يعم فيه سوى ضحكهم و أحاديثهم المتفاخرة.

رفع رومان يداً و لوح بها أمام وجهه و كأنه يتفحص يداً غريبةً عنه، كالطفل الرضيع الذي يفرج عينيه و يوسعهما عجباً لمرأى أصابعه الصغيرة تسبح و تماوج أمام ناظره، و ما شد إنتباه رومان لهذه اليد هو كونها مختلفة عن يده التي يعرفها و يعزها، فهذه يداً رقيقة و شاحبة البياض، طويلة الأنامل، و عندما أستطلعها رومان مزيداً أتضحت له بصورة ميقنة بأنها يد إمرأة!، و عند تلك اللحظة بالذات تجلى له حقيقة ما يجري له، فما هذا إلا سوى حلماً من أحلامه المضغثة، و ترقب إزاء هذا الإستظهار وقوع أمراً لِبك و مبهم لا يدرك كنهه و لا غايته، و ما توقعه قد حدث، فها هم أصابع هذه اليد قد بدأوا بالتلوي و التقرفص و أخذوا بالإنتفاخ و الإزدياد في حدة بياضهم حتى تصدعت بنائنهم و تقشروا ملقين قشراتهم أرضاً لتخرج من داخلهم عثات سِواد اللون هائلات الحجم ليس من المعقول أن يتسعهم الحيز في هذه الأصابع الرفيعة، و غابت اليد المتقشرة عن تركيز رومان و أنمحت من ناظره و أخذ

تركيزه يتبع إحدى العثات التي أخذت تلمح له بإتباعها حتى وصلوا إلى نهاية ممراً مظلم، و ألصقت العثة بطنها على جدار هذا الحائط و أخذت ترفرف جناحيها و هي لا تزال متمسكة بالحائط، و أقترب رومان منها و أخذ ينظر إلى أسفلها ليرى ما الذي كان يمنعها عن الإقلاع مجدداً، و هل السبب هو كونها عالقة الأرجل، أم كونها متشابكة السيقان؟، و لم يكن أي من هذا و لا ذاك، فلم يجد رومان بداً سوى الجلوس أسفل هذا الجدار و إسناد ظهره عليه هو الآخر منتظراً أن تحل هذه العثة مشكلتها المحيرة هذه و من ثم يرافقها إلى وجهتها التالية أياً كانت، فأنتظر و أنتظر حتى بدأت أجنحة العثة بالذبلان و الذويان و جسمها بالهذلان و الهفهفة، و فيما هو ينظر إليها بإشفاق و حيرة لما يحدث لها لم ينتبه رومان إلى كونه هو الآخر أيضاً يمر جسده بما تمر به من تحولات ضامرة التي جعلته يحس بما تحس به العثة، فهذه الأحاسيس التي تصدع قلبه ليست نابعة من مكان شفقة و حنية، بل هي نتاج داخلي صرم، تجد كل أسبابه و مسبباته متواجدة في دواخل رومان، أقرب رومان يده من العثة محاولاً إستطلاع إن كانت حية أو ميتة، و إذا بها و فجأة تقفز على وجهه و تلتصق به ليطلق على أثرها صرخة مدوية و مصمة للآذان.

قفز رومان هلعاً من حيث كان راقداً، مزيحاً الغطاء المخملي الأسود الذي قد غطى وجهه في خضم تقلباته أثناء نومه و الذي شبه عليه و جعله يحلم بإنقضاض العثة على وجهه، بدأ رومان بتفقد محيطه مباشرة باحثاً عن تلك العثة اللعينة ليسحقها بعقب قدميه، و لم يجد شيئاً بالطبع، و علم مباشرة حال وقوفه بأنه كان مستلقياً على كنبة في صالة الضيوف، و أن الصالة قد خلت تماماً من الضيوف اللذين كانوا يعجونها صخباً، و كانت الأضواء فاترة لا تنبعث إلا من نار المدخنة التي تلتظي جذوة نيرانها بهدوء متماوج و تقرقع بفرقعات منعسة، تيقظ رومان و أستدرك كل ما قد جرى و ما أدى إلى وضعه هذا الذي هو فيه، و نفض

رأسه ليبعثر هذا التيقظ و يبدله بالحذر و التنبه، فهو يخطوا بخطوات متناقزة و يتحرك بخفة متناهية، فما العمل الآن سوى أن يخرج من هذا المنزل الشؤم و يغادره قبل أن يلحظه أحداً من قاطنيه، فخرج رومان إلى الممر و أتخذ الطريق المؤدي إلى ملحق الخدم ليكون مخرجه منه، فكانت الإشارات و العلامات تنبئ بكون الجميع غاطاً في النوم، فالوقت متأخر بلا شك كما ظن رومان، و بان له باب المخرج الخلفي المؤدي للشرفة أمامه، فأستلم المقبض و أداره ليصدر خشخشة مقاومة تعلن له عن كون الباب مقفل، و بعد أن حاول عدة مرات قد أيأسته من فتح الباب أتجه نحو النوافذ متفقداً إياهن واحدة تلوا الأخرة في حال قد تركت إحداهن بسهو مفتوحة، و لم يكن من نصيبه من هذا سوى الخيبة و الخذلان، فعاد طريقه متوجهاً للمنطقة الأمامية من المنزل لعل بابه لم يوصد، و إن كانت هذه أمنية بعيدة المنال و الترجي فهذا لم يمنعه من المحاولة، فأية نسبة من هذه الإحتمالية مهما كانت ضئيلة ستكون أفضل من أن يعود إلى تلك الكنبة و يتلحف تحت ذلك الغطاء المخملي الأسود المتهجم، فتخطى للمرة الأولى صالة الضيوف ماراً عليها، فهو لم يستكشف هذه المنطقة الأمامية من المنزل بعد، و لم تسنح له هذه الفرصة التي هو في خضمها أيضاً في القيام بذلك التفقد و الإستكشاف الآن لكون أرجاء المنزل كافة كانت غارقة في الظلام الذي لا يفسح المجال بين طرف رداءه الحالك و بين موضع قدميك إلا مسافة قصيرة، و لم يُكلِّف إيجاد الباب الأمامي من رومان أي عناء حيث كان الطريق إليه مستقيماً لا تعوجه إلتفافة أو حائط يصده عنه، و كانت صدفة الخير الأخرى هي إندفاع الباب عندما تلاقى مع يد رومان التي دفعته و فتحته برعونة لم يتوقع منها أن تجلب طائلاً، و لكن ها هو رومان خارج المنزل يستنشق هواء الليل العليل و الملفح، و لم يربض مكانه ليتمتع بهذه الحرية التي لم يسلبها منه أحد من الأساس، بل أطلق رجليه ليعود لمنزل عمه، لكن شيئاً ما دق في فؤاده و جعله يخفق في نبضاتٍ لها وقعٍ عجيب و فريد، و قد ظننه في البدء ذلك الشعور المرهب الذي يُعْلِم عن قدوم ذلك الألم

البغيض الذي يجتاحه كل وهلة و أخرى، و لكنه بعد المهلة و الترقب لم يلحظ أي ألمٍ قد أوغزه، فأدرك حينها عن إختلاف و مفارقة هذا الشعور عن ذاك، فإن كان ذلك الشعور يحدث ليعلمه عن حدث داخلي ألا و هو الألم في أحشاءه، فهذا الشعور يحاول أن يدله لحدث خارجي لا يعلم بعد إن كان سيودي به للألم و الوجع أم للفرحة و الغبطة، فأسلم رومان أمر حاله إلى هذا الشعور و جعله يتولى قيادته و توجيهه إلى المكان المراد، فدارت قدماه و أخذ يخطوا بهما خطوات سريعة و واسعة موجهةً إياه إلى خلف المنزل حيث يعلم بأن الحديقة تربض هناك، فما المطلوب منه بأن يفعله في هذه الأرجاء و في هذا الوقت المتأخر من الليل؟، أيمكن أن يكون كل هذا ما هو إلا شعور مغالط أو عبثي قد لخبط أوراقه و جعله يظن الليل صبحاً و إن وقت دوامه قد بدأ؟، و لم يكن من مجال للتخمين إن كان هذا صحيحاً أم لا حيث وقف رومان على الجسر الذي يوصل الحديقة إلى شرفة المنزل، و حيث كانت الحديقة نائمة و مظلمة فأن الشرفة كانت مستيقظة و منيرة، حيث كانت روتفا جالسة على أحد الكراسي تحدق في رومان حين إستدار تجاهها أثر سماعه لصوت حركتها، و لم تبدوا متفاجئة و لا مرتعبة، فهي حتماً قد أدركت أمر تجواله هذا في أرجاء المنزل، حيث أن قرقعته لمقبض الباب من الجانب الآخر لا بد و إنها قد أنبهتها لذلك.

كانت تقطعات أصوات أزيز الجنادب و الصراصير و إيقاعها المتزامن أشبه بطقات أتراس عقارب الساعة التي تعلمك بحركة الوقت و مضيه، و وميض القمر الذي بان قرصه من خلف أغصان أشجار الحديقة كأنوار المسرح الموجهة نحو أبطال المسرحية اللذين يحاولون تجاهل تطفله عليهم و عن محاولة كشفه لإصطناع حركاتهم و تفاعلهم المزيف مع بعضهم البعض، فكانت روتفا لازمة مكانها منسردة بإسترخاء على الكرسي و مرتدية لباس الليل الخفيف و فوقه سترة قطنية لتقيها من لفحات الهواء الباردة التي تتسلل عليها، فيما كان رومان

قد أتخذ مصطبة الشرفة كمجلس له، معطياً ظهره لروتفا، و يحدق في القمر الكبير و المهيمن و رأسه يزداد علواً متعقباً إرتفاع القمر، فإن كان للشمس عباد فإن للقمر عباده المخلصون أيضاً، و لم يدري أي من رومان أو روتفا ما الهدف من هذا الإجتماع الذي يخضعون أنفسهم له، فلماذا جلس رومان هنا و لم يمضي لمنزل عمه بعد أن رأى روتفا قد سبقته إلى هذا المكان، و لماذا لا تكسر روتفا سحر هذه التعويذة بالقيام من مكانها و المضي داخلاً لتفضي المكان لرومان للجلوس هنا بمفرده إن أراد، أمصدر كل هذا هو العناد و فرض حس المجابهة لنفسه علهما في هذا الموقف، أم هو العتاب و البغض الذي جعلهما عميان عن بعضهما البعض لدرجة لم يسمحا فيها لأنفسهما بأن يعترفا بكينونة الآخر، أم هل يكون هناك سبباً آخر لكل هذا؟، و لم تكن هذه الأسئلة بتلك الإلحاح أو بذلك الإصرار بطلب الأجوبة عليها، حيث أستمر كلاهما في هذا البرزخ الهادئ، و القمر يعتلوا أدراج السماء الخفية و الريح تمسد و تسبط أوراق الأشجار المنسية على أطراف الأغصان العلية، و النوم يكاد يغلبهما و يبسط سيطرته عليهما، و أحداث هذه المسرحية الصامتة توشك على الإنقضاء و سدل هذا الستار الثقيل على أبطالها.

« أتساءل عن ما يمكن أن يكون أندريه فاعلاً في هذه اللحظة، و إن كان هو بخير، و يعيش حياة هانئة، فأحداث تلك القصة التي رواها عندما كنا على متن القطار ما زالت تلعب و تُسرَد في أنحاء ذهني و التي تجعلني غير قادرة على تقبل بأن نهايتها يمكن أن تكون أي شيئ سوى وصفها بمأساوية، فعلى الرغم من كون أندريه رجلاً بشوش الوجه و مرح الهيئة، لكني أتساءل أهذا المرح و الغبط هو من نتاج مروره بتلك المأساة، و خوضه غمارها قد جعله أثر ذلك يقدر الحياة و يبهظ ثمنها، أم هل يمكن أن تكون بشاشته هذه مجرد محاولة النفس أن تواكب مسير الحياة و ما تفرضه علينا من مصاعب و مصائب و التي تجعل من المرء لا يستطيع

تحمل ثقلها و رزحها على ظهره و لا يكون أي خيار أمامه سوى رمي هذه الأثقال على جانب طريق الحياة الطويل مهما كانت معزتها و قدرها بالنسبة إليه، . . . ، يا لهذا الليل المكدر الذي يفرض هذه الأفكار بأبشع و أشنع صورها و يجبرنا على تفحصها و تمعنها، و دائماً ما تحضرنا مع حلول النعاس على أجفاننا و عندما نكون تحت تأثير تخدر حواسنا و وهن ملكة تفكيرنا، فحبذا لو تحضرني هذه الأفكار في أوج النهار، لأشبعتها تأنيباً و جردتها من غموضها و فضحت عبثيتها ».

أعتلت إبتسامة ضعيفة على شفتي روتفا التي أضحت تحت رحمة النوم، و أخذت أجفانها ترفرف محاولة نفض هذا التعب، فيما قام رومان من حيث جلس و تردد في ما تكون عليه وجهته التالية للجلوس، هذا قبل أن يستقر على تفضيله للوقوف مكانه متسمراً، و رافضاً الإستدارة نحو الشرفة ليقابل روتفا وجهاً لوجه، و أخذت يداه تمسحان عرقهما في بواطن مخبئي بنطاله حيث أختبئتا.

« و لما كل هذا الوعيد و كل هذه المماوهة، فما تقولينه لا يختلف عن لو كان هناك مثلاً صياداً لا يجيد إصطياد الكبائر من الأسماك عندما يخوض بقاربه في عرض البحر، فيقصَى عليه الأمر بتقبل هذا العجز و لا يجد بداً سوى أن يتوعد بإن بإمكانه التغلب على هذا السمك الكبير و إصطياده فقط في حال لو كان هذا السمك قريباً من الشاطئ و قليل الحركة و الحيلة، و لكن هل هذا يجعل منه صياداً ماهراً، خصوصاً كون أعظمية الجزء الصعب من العمل قد أنقضى في حال لو تحققت شروطه التي يفرضها، فالعمل الشجاع هو أن تواجهي المصاعب كما حالت أثناء حدوثها و تحت ضغط الظروف التي تكونها بدون تخفيف و من دون أي إختزال، نعم!، و أعتقد بإن هذه الشرْطية في الحياة هي بالضبط ما يطبقه أندريه في حياته، و هذا ما يجعله بهذه السعادة التي رأيتيه عليها، فالواجب علينا هو أن نواجه المعارك

التي نخوضها و نحسمها في حالها و لا نؤجلها لأوقاتٍ أخرى لا نعلم ما ستكون هي فيه خاضعة من ظروف و إشكاليات، فسواء كنا رابحين أم خاسرين، فلا يهم أي من هذا سوى إفراغ عقلنا من ما يشغله، و أن نجعله مهيئ لتقبل و إستيعاب ما سترميه علينا الحياة من جديد، هئ هئ، فالحياة ما هي إلا كلُقِم الفحم في غرفة محرك القطار، الذي لا يهمه سوى إشباع جذوة نار الموقد غير عابئاً إن تراكم الفحم فوق بعضه و لم يحترق في الحال، فكل ما يهمه هو أن تدور عجلات القطار و لا نتوقف أو نتباطئ مهما أقتضى الأمر ».

أستدار رومان أخيراً ليقابل روتفا متوقعاً رؤيتها منبهرة من هذه الحكم و الفلسفات المستنبطة التي أسترسل فيها، و لكن إبتسامته المتكلفة أنمحت من على شفتيه بمثل السرعة التي أرتسمت فيها، حيث كانت روتفا قد غطت في النوم و لم تسمع كلمة مما قد قال، فما كان من رومان سوى أن يلتقط صرصوراً ميتاً قد سحقه على العشب تحت حذائه عندما كان جالساً، و بكل بطئ و حذر تقدم من روتفا و وضع جثة الصرصور المهروسة في جيب سترتها كإنتقام على جرأتها في النوم أثناء خطابه.

(الفصل الثالث عشر)

مضت الدقائق و تلتها الساعات التي شكلت أياماٍ قد مرت بنمطية متكررة و معادة بكسل، فيما بين سهرات رومان و الأماسي التي يقضيها يجادل فيلبونا خلالها و هي التي لا تدع نقطة من النقط التي يطرحها إلا و حاولت تفنديها و دحضها عن بكرة أبيها، و من ثم كان هناك أيضاً خصومته مع عمه إيفان الذي لم يزل يبدوا مشتت الفكر و مضطرب الحركات و إن كان لا يلاقيه و لا يسمع منه إلا أثناء الصباح عند الفطور و عند المساء على مائدة العشاء، و كانت دانيا زوجة عمه قد أصبحت خلال هذه الأيام أكثر إهتماماً و فضولاً برومان و بما يفعله طوال يومه سواء أكان هذا أثناء عمله في منزل السيد غوربوف و الذي قد غدا مسموحاً له بالدخول و التفسح في أرجاءه كما يريد و بدون أن يُأنب من قبل إحدى الخادمات، أو في أوقات فراغه حيث قد غدت من عاداتها أن تتطفل عليه و تحاول الخوض في حوارات و أحاديث معه و خصوصاً بعد إنهاؤهم تناول العشاء، و حتى و إن حاول الهروب منها بالإختباء في غرفته فهي لا تدعه و حاله، و لا يحيق بها الخجل بأن تلحق وراءه طارقة عليه الباب بخفة و تناديه بصوت متهدرج يطالب بالإشفاق و الحنية تجاهها و بأن يواسيها في وحدتها هذه، حتى ينتهي به الحال بفتح الباب فقط ليرى تلك الإبتسامة البغيضة التي لم يطقها يوماً ما، و في جانب لا يمت أية صلة بعائلة غيرسكفيسكي كان سيرغي قد أعتاد الساعات الثلاث التي يقضيها في مساعدة رومان في الإعتناء بالحديقة، أو باللأحرى القول قيامه بالعمل بأكمله حيث هذا ما كان عليه الأمر الواقع، و في الفترة الثانية من العمل كانت فيولا إبنة السيد غوربوف الصغرى من تتكفل بشؤون الحديقة و تدير أمورها بكل حبور و غبطة و كأن السنوات التي قضتها مع العجوز نيكولاي تراقبه يجول و يصول في أرجاء الحديقة قد أتت بثمارها و منفعتها أخيراً، فهي بقيامها لذلك تنضج ذكراه في ذهنها، و على الجانب الآخر أستمرت

العلاقة بين رومان و روتفا على نفس فتورها و تضعضعها، فهما لا يتواجدان في نفس المكان إلا إذا أقتضى الأمر ذلك، ففي ما بين الضجر و الملل الذي يقضي فيه رومان وقته في منزل عمه و الرخاء و الدعة التي ينعم بهما أثناء عمله، لم يجد مانعاً من الإستمرار على هذه الشاكلة و بهذا النمط في الحياة و إن كان مبنياً على دعم و أسس واهية لا تنبئ إلا على قرب وقت تهدمها و أيولها.

دعا السيد غوربوف رومان إلى حفلةً أخرى من حفلاته الليلية الباهظة، و حيث أخذ رومان منذ تلك المرة المنحوسة التي لبى فيها الدعوة و أحرج نفسه أمام الجميع يحاول تجنب الحضور متذرعاً بكافة الأعذار الواهية و الغير مقنعة، و كان السيد غوربوف يزيد من إصراره على أهمية تواجده في الحفلة و على رغبته في تعريفه ببعض الأشخاص اللذين يظن بأنهم قد يبهرون رومان و يسعدونه بصحبتهم، فلم يجد رومان بداً سوى الموافقة على الحضور و هو على مضض و خيبة أمل لعدم قدرته على الإقناع بأن يعفى من ذلك، و لشعور السيد غوربوف بطبائع رومان في إظهار هذا التكاسل و الإمتعاض عن رغبته في الحضور أخذ يشرح له سبب رغبته الملحة هذه في طلب حضوره في هذه الحفلة خاصةً، فكان السبب هو إرادة بعض من ضيوفه و أصدقائه في رؤية ما حالت إليه حديقته التي لا ينوء عن ذكرها بإعتزاز و ترفيع حالها و عن كونها فخره و ورثته الثمينة التي سيخلفها بعد هذا العمر المديد، و هو بذلك يرغب بحضور رومان لتسنح له الفرصة أيضاً بالتفاخر في ما قضاه و ما أجتهد عليه ليلاً و نهاراً، أو قل صبحاً و عصراً، و أقتنع رومان بهذا السبب و قرر في أنه سيكون متواجداً في هذه الحفلة مهما أقتضى الأمر منه، و على أنه يجب أن يكون على أبهى حلته و بأن يتلبس بلباس يظهره أمام الجميع بكونه من ضمن نخبتهم و لا يقل عنهم بشيئ، فأكد للسيد غوربوف عن كونه سيكون متواجداً بلا شك لكي يدل و يشرح لزواره كل ما يريدون معرفته عن الحديقة، و بأنه سيكون بذلك

مضطراً لأن يعود إلى منزل عمه للإغتسال و التهندم بأفضل ملابس يستطيع الحوز عليها بعد فترة عمله أثناء هذا العصر، و هذا ما قد يجعله يتأخر قليلاً عن الحضور فلا يجب عليه أن يقلق إن لحظ ذلك، فأفترق الإثنان عن بعضهما البعض راضيان عن هذا الإتفاق، حيث توجه رومان برفقة سيرغي الذي كان ينتظره عند شرفة المنزل الخلفية إلى ضفة النهر الذي أصبح مكانهم المعتاد لقضاء ساعة أو ساعتين يبددانها في فعل لا شيئ سوى التهكم و التذمر الحاقد على كل شخص يخطر في ذهن رومان و الذي لا يتردد بإفصاح كل كلمة تجول في خاطره عن ذلك، و يكون سيرغي أثناء كل ذلك جالساً مكانه المعتاد يتبع إشارات يد رومان و إتجاهات نظراته تجاه من يحلى له بأن يكون نصب و محط إنتقاده من المارين على الجسر و ما يظن بأنه يجري في حيواتهم و كما يحلو له بأن يصفها بإتباعهم لعبثيات نواميس المجتمع، فهذه الفترة من اليوم هي ما بدأ رومان بدعوتها بساعة دروس سيرغي، و هو الذي ما زال متطمئناً بكونه — أي سيرغي — قادراً على سماع و فهم كل ما يقوله و بحتمية إحساسه بكل ما يريد أن يصله من مشاعر و نوايا له، و لم تكن حركات و ردود فعل سيرغي تساعد في تفنيد أي من هذه الإيمانات الإعتباطية أو حتى التشكيك في حقيقتها، فهو حقاً عندما يحدق في رومان بتلك العيون الثاقبة و ذلك الفم المزمت يبدوا و كأنه في وفاق و وئام مع ما يقال له و قادر على إلتقاط كل ما يلقى تجاهه، و ما أن تحل وقت الظهيرة حتى يختفي سيرغي فجأة متسللاً و غير مُعلماً رومان عن رحيله عائداً إلى منزله حيث لا يعلم أبويه عن أي مما يفعله في هذه الأوقات من الصباح حتى الظهيرة ظانين و مستريحين لفكرة تواجده في صفوف و أرجاء المدرسة التي يدفعون لها مبالغاً ضخمة ليتحملوا آفته من الصم و البكم، و يلقن فيها دروسه و يتلقى شروح معلميه، و أعتاد رومان على ذلك و لم يعد يتفاجئ لهذا الإختفاء و الهروب، بل ما يفهمه و يستوعبه من هذا الحدث هو إنه إشارة بأن الوقت قد تأخر و بأن الظهيرة قد حلت، و يبدأ هو الآخر بالرحيل أيضاً عن ضفة النهر، و تكون وجهته التالية هي وسط المدينة

و بالتحديد في رصيف المطاعم حيث يعقد آماله أثناء مروره بمطعم السيونيال برؤية أليس جالسة على إحدى الطاولات، حيث أنه لقد لحظ كثرة تواجدها في هذا المطعم و غالباً ما تكون لوحدها تقرأ كتاباً ما، و على الرغم من عدم إتفاقهما مع بعضهما البعض، و هذا أمر يمكن أن يقال عن معظم الناس من اللذين يعرفهم رومان، إلا أنه قد وجد راحة و ألفة قد نشأت بينهما منذ لقاءهم الأول، حيث كانت صراحتها و عجرفتها هي ما قد جذبت رومان إليها و رأى فيها شخصاً مماثلٍ لنفسه يستطيع أن يحادثه و يفاصحه ببعض الأمور التي تختجل في ذهنه من الصنو التي لا يخبرها لأحد و إلا أشمئز منها و نفر منه، و كان من حظه أثناء مروره هذه المرة أن رآها أيضاً جالسة على طاولتها المعتادة، و لم تبدوا حقاً مهتمة بكتابها الذي كان بين يديها حيث كانت تتفحص محيطها كل حين و آخر و كأنها تترقب شخصاً ما، فكان ذلك الشخص هو رومان بالطبع، الذي دخل المطعم و أنضم معها و أخذا يتحادثان لما يقارب الساعتين قد أفصحا فيها عن الكثير مما يختلج في أذهانهما الغير قويمة، فرومان يتذمر من جانبه على ما يجري بينه و بين زوجة عمه التي لا تنوء عن إزعاجه، و أليس تعيب و تشتم صاحبات أمها الثرثارات و الذي يتطلب منها دوماً في كل زيارة و تجمع يقومون به في منزلهم بأن تطل عليهن و لو للحظة لتجاملهن و تلاطفهن غصباً عنها، و يعاود رومان سلسلة تذمراته بإنتقاده لتعنت فيلبونا و حمقها في أصرارها على مواقفها و معتقداتها الطوبائية، و هذا كان أمراً لم تستوعبه أليس منذ أن أخبرها رومان به و عن شأن تلك الخادمة التي يسامرها و يحاججها في كل ليلة و أخرى، فكيف لخادمة أن تتجرأ في مرادتها لأحد مستخدميها، فهذا أمر غير معقول و لا مقبول من وجهة نظر أليس التي أعتادت منذ نعومة أظافرها على كون كل خادمي المنزل و عامليه تحت أمرتها في كل وقت و حين، و لا يرادونها و لا يعصون أوامرها في أي شأن، و كان رومان يطمئنها بأنه لو كان حقاً غير مستمتع بهذه الإحتدامات التي تقوم و تنشئ في ما بينه و بين تلك العاملة لكان قد تسبب بطردها منذ أول لحظة قد رادته فيها، فهو

على الرغم من كل ما تقوله و تصطنعه من كبرياء – أي فيلبونا – إلا أنه في نهاية الأمر يعلم و يدرك بأنه هو المتحكم و المسيطر في نتائج و نهاية هذه التحديات لو أراد وضع حداً لها، فما يجري بينه و بين فيلبونا ما هي إلا لعبة بين يديه تسليه في وحشة الليل، و حتى أليس التي لم تنكر يوماً قسوة و جفاء قلبها و تصلبه قد بدأت تشعر بالأسى و الشفقة تجاه تلك الخادمة المسكينة التي لا تدرك مكانتها الضئيلة في هذا الحيز الضيق من هذا المجتمع و في ذلك المنزل، و ما أن ينتهي رومان من جلسته هذه مع أليس حتى يعود مرةً أخرى إلى منزل السيد غوربوف حيث يقضي عادةً الثلاث ساعات من عمله في الإسترخاء تحت ظلال شجرة الصفصاف بينما تقوم إبنة السيد غوربوف الصغرى فيولا بعمله نيابةً عنه، لكن هذا اليوم كان شأوه مختلفاً حيث أنه قد أبتغى أن يظهر هذه الحديقة بأبهى حلة و أنصع صورة لها لضيوف و زوار السيد غوربوف اللذين سيحلون ضيوفاً في أرجاءها، فلم يجد بداً سوى بأن يقوم هو نفسه بجل الأعمال و الأشغال غير تاركاً لفيولا أي مجال لتساعده، و جعلها تكتفي بمراقبته من حيث ألزمها الجلوس على كرسي الإسترخاء، و لم تحلوا لفيولا هذه الشروط و هذا الإقصاء فأخذت تلح و تصر على رغبتها في المشاركة في عمل اليوم حيث هي الأخرى أرادت أن تشارك في الإفتخار بعملها أمام الزوار، و لم يكن هذا سوى عظماً لا يطاق بلعه بالنسبة لرومان الذي وجد بأنه من الصعب عليه و من المجهد أن يشرح لفيولا بأنه من المتطلب و من المحتم بأن يقدم نفسه كالحدائقي المقتدر الذي لم يجد صعوبة و لا مشقة في إكمال مسيرة العجوز نيكولاي و المشي على تبعة خطواته بدون عناء، و لكي يفعل هذا يجب عليه أن يقنع الضيوف بكونه الشخص الوحيد الذي يدير شؤون هذه الحديقة و بأنَ لا أحد غيره قد قام بمساعدته في الإعتناء بها، فما كان من فيولا سوى أن تسدل أهدابها و تمط شفتيها في خيبة أمل صادمة لم تجعل لها أية لزمة بأن تبقى هنا و ما كان منها سوى أن تخرج من أسوار الحديقة بدون أن ترد أو تنطق بكلمة واحدة، و لم يهتم رومان بتةً بهذا الحزن و الكدر الواضح الذي أبدته فيولا،

و لما يهتم؟، فهو قد تخلص منها للتو بسهولة و هو الذي قد توقع أن تجادله و تناوشه فيما يقول حتى يفلت زمام صبره معها، و من يعلم ما تبعات ذلك؟، فأكمل رومان العمل مرتاح البال و مختلي الضمير، و لم يجد من العمل أية مشقة أو صعوبة في إتمامه حيث لم يكن هو فاعلاً سوى وضع اللمسات الأخيرة لعملاً تم بجهد قد بذلاه كُلاً من فيولا و سيرغي اللذان لم يتخاذلا و لو للحظة واحدة طوال الأسابيع الماضية، حتى غرقت الشمس تحت خط الأفق غير تاركة سوى ومضاتها اللازوردية لتصبغ السماء، فخرج رومان من الحديقة مطمئناً و مجبوراً لما سيجده هذا المساء من مدح و إثناء من مختلف أنواع الناس من كبار الشخصيات و الأثرياء، و أخذ يخطوا بخطوات مختالة و متفاخرة طريق الرجوع إلى منزل عمه و الذي هو الآخر كان مخططاً لحضور أمسية هذا اليوم التي ستكون على ما يبدوا الأكبر من بين كل الأمسيات في هذه السنة لحد الآن.

تحلى رومان ببدلة أنيقة كحلية اللون و ضيقة البطن، و صفف شعره كما لم يصففه من قبل، محتذراً في تعامله مع كل خصلة من شعراته، و كان كالمهووس ملتصقاً بالمرآة يردد عبارات التواضع و رفض المدح الذي يتوقع إستقبال و تلقي الكثير منه، و وقف في الداخل أمام باب المنزل ينتظر قدوم عمه إيفان الذي أخبره بأن ينتظره ليذهبا معاً في نفس الوقت، و كان رومان ليرفض هذا العرض لو لم يكن حضوره للحفل مع عمه هو إعلان للجميع عن قرابته مع شخص ذو مكانة و جاه من ضمن مباذيخ المجتمع، و بأن لا يظهر لهم و كأنه مجرد حدائقي معوز و غريب، و كان رومان يتحدث بصوتاً مسموع و ذا نبرة متبجحة و هو يعلن مخاطباً لا أحد عن كون هذا اليوم هو يومه في البزوغ و النصوع للملئ على حقيقته العبقرية و النابغة، و لم يبتغي من هذا الكلام إلا بأن يصل لمسامع فيلبونا التي كانت تغسل الأواني و الصوان في المطبخ، و في الحقيقة لم تبدي فيلبونا أي إمتعاض و لم تشعر بأي حقد أو ضغينة

تجاه رومان، لكونها كانت تشعر في أعماق قلبها بأن كل هذا لن يؤول إلى أي شيئ، و منذ البدء و منذ أول يوم رجع فيه رومان من عمله كحدائقي كانت هناك رائحة تعبق بملابس رومان لا تشبه الروائح التي تعرفها مِن مَن يقضون وقتهم حقاً في العمل بجد و بحزم، و إن كان الأمر كما تظنه فلا بد و أن رومان قد وجد حيلةً ليستمر بالإحتفاظ بوظيفته طوال هذا الوقت و بدون أن يبذل أي مجهود من نفسه شخصياً في إتمام مقتضيات الوظيفة، و كما عرفت فيلبونا من خبرتها بأن لا حيلة تستمر للأبد، و بأن كل كذبة و لا بد أن تنكشف يوماً ما، سواء أكان ذلك في هذا اليوم أو في الغد.

خرج رومان برفقة إيفان متجهين لمنزل السيد غوربوف، و على الرغم من إنشغال رومان بالتفكير بكل سرحان في ما ستؤول عليه هذه الليلة و فيما ستغدق عليه من فرصاً جديدة قد تسمح له بالتحرر من سجن عمه، إلا أنه لم تفته غرابة تصرفات عمه و توجله البائن و توجسه الفاضح، حيث كان يتمتم و يهذرم تحت أنفاسه، و يتلفت يميناً و شمالاً بصورة جعلت رومان نفسه يتوجس من إن كان عمه يخطط للتخلص منه و قتله عند مرورهم عبر ذلك الطريق الوعر المؤدي إلى منزل السيد غوربوف، لكن هذه الفكرة قد فُنِدت بعد أن وصلوا إلى المنزل و أفترقا، حيث توجه إيفان مباشرة فيما بين تجمع من الناس و أختفى بينهم، بينما أخذ رومان يدور برأسه باحثاً عن السيد غوربوف ليعرّفه على أصحابه الأثرياء اللذين يرتجي منهم الكثير، و أثناء بحثه هذا ألتقت عيناه بعين الشاب ذاته الذي قد لمحه أثناء تلك الأمسية التي أغشي على رومان فيها، و على الرغم من كون رومان قد تهندم بأفضل لباس قد تمكن من إستعارته و صفف شعره بكل جهد، إلا أنه ما زال لا يضاهي ذلك الشاب في شيئ، و لا يجعله يبدوا إلا كشاب يانع قد سقط في خزانة والده و لم يعثر إلا على بدلته القديمة المتهدركة و المهترئة، و تفاجئ رومان بهذا الشاب يشير عليه بيده مريداً منه القدوم إليه لينضم مع الجماعة

من الشبان اللذين قد حوطوه و اللذين أخذت أعينهم في تلك اللحظة تنصب على رومان يحدقونه من أعلاه لأخمصه مريدين تخريص مكانته و من يكون، فتوجه رومان إليهم بدون تردد، فهو اليوم شخص مختلف لا يهاب أحداً و لا يرتعب من شيئ، و إن تجرأ أحداً منهم و أنتقص من مكانته فلن ينتهي به الحال إلا كصعلوك لم يقدر مكانة رومان الذي ستتجلى أبهته و جلالته للجميع مع نهاية هذه الأمسية، فأنضم رومان لحلقة الشبان و باشروه الواحد تلوا الآخر بتعريف أنفسهم، و دائماً ما كانوا يبدأون بذكر هوية أبويهم أولاً و يشددون عند ذلك بإيضاح إسم العائلة أكثر من أي شيئ آخر، و كأن هذا ما يريدونك بأن تتذكرهم به و بأن تكون تلك هي الصلة التي تستطيع بها إسترجاع من يكون هذا و من يكون ذاك، حتى أختتم الشاب ذو الحضور البديع دائرة التعارف هذه بطريقة تخالف جميع من سبقه.

« أنا كوستانتين، و يمكنك كالجميع هنا أن تدعوني فقط بكوستا، فهذا أفضل لي و أريح لك، لقد رأيناك هنا في إحدى المرات السابقة، و لأقول الحقيقة لقد خلفت أثراً مميزاً في عقولنا، و بالطبع أنت لم تقصد أي من ذلك، لكونك لم تختر طواعية بأن يغشى عليك فجأة، إلا إذا كنت من ذلك النوع من غريبي الأطوار من اللذين يتعمدون جلب الأنظار تجاههم بأية وسيلة، أكانت شائنة أم صائبة ».

تركز هذا الحديث فيما بين رومان و كوستانتين، فيما أنفرد بقية الشبان فيما بين بعضهم البعض و كأنهم قد أدركوا بأن لا مجال لهم هنا الآن في هذا الحوار، و كان رومان معجباً بلباقة هذا الشاب و حاسداً له على هذه الحضية، و لم يرد بأن يكون الشخص الأقل حنكة و مهارة في ما بينهما الأثنين، فأخذ يصطنع نبرة الوقار و الأهلية في حديثه محاولاً مجاراة محدثه، ناسياً بإن تخطي الخصم لا يأتي بإتباع خطواته بكل موطئ لها، بل بمجابهته بخصالك المتمكنة التي تعرفها و تختص بها.

« تشرفت بمعرفتك و لقاءك يا كوستا، أنا أنحدر من عائلة غيرسكفيسكي، و عمي هو إيفان، لا بد و أنك تعرفه أو على الأقل سمعت به، فشهرته واسعة، و هو ذو صيت كبير، و لا أجد بأنه من التجاوز من قِبَلي بأن أقول بأنه هو الحلقة الأهم من بين صفوف كل هؤلاء الأثرياء اللذين تجدهم هنا، و أنا بالطبع أسير على مثل طريقه، أو الأحرى القول بأني وصلت لنهاية ذلك الطريق و لكني أنتظر اللحظة المناسبة لملئ إحدى الحيزات في هذه الصفوف، . . . ، و ماذا عنك يا كوستا، فإلى أي طريق أنت ماضي؟ ».

طفقت إبتسامة ملغزة على شفتي كوستانتين، و أخذ يحدق في ما أحتواه كأسه من شراب و يراقب الموجات التي تتكون على سطحه جراء هزهزات يده، و كأنه لم يجد أي مما قد قاله رومان له للتو ذا أهمية، و لا هو جاذب لإنتباهه.

« لقد قلت بأن عمك هو السيد إيفان غيرسكفيسكي، أليس كذلك؟، و أعذرني إن خانتني الذاكرة هنا، لكني لم أسمعه يذكر في يوماً من الأيام بإن له إبن أخ، أو حتى بإن كان له أخاً من الأساس، فلذلك، و أعذرني مرة أخرى إذا رأيت بإن ما سأقوله متعدياً أو مهيناً، و ثق بأنه ليس صادراً من نوابع تبتغي تحقيق تلك المآرب، لكن ما قد قلته أنت منذ لحظات لم يعرف بك و لو بالقليل، فكل ما قد ذكرته و عددته هو خصائل و مكانة السيد غيرسكفيسكي، لا غير، و أنا لست بحاجة لمعرفة أي من ذلك، كوني قد قابلت السيد غيرسكفيسكي عدة مرات من قبل، و أنا أفهم قليلاً عن كيفية عمل طرائق الوصل و التعارف فيما بين حلقات الأثرياء لأخمن المكانة التي يحوز عليها، و لذلك، لو تتفضل بأن تعرف بنفسك مرة أخرى و لكن بدون ذكر شيئاً عن عمك، فأنا أحادثك أنت الآن، لا عمك و لا أي أحدٍ آخر ».

لمعت عينا رومان في حنق و كراهية واضحين، فهو قد فهم مقصد كوستانتين و مبغاه، و إن كان هو مصراً على أنه لا يقصد الإهانة بذلك، إلا إن هذا هو التوجه الوحيد الذي أخذه عليه رومان.

« من الغريب أن تطلب مني بأن أخبرك عن نفسي فيما لم تقم أنت سوى بإخباري بإسمك الأول و فقط، و هذا يجعلك تبدوا كالمتهرب و المتعذر الذي يحاول أن يخبئ ما يحرجه و ما يجد منه مذلة، و لا تحاول أن تصطنع الكياسة و الوقار أمامي، فما أنت عليه و ما تكون عليه شخصيتك واضحة بجلاء و لا يمكنك إخباؤها، و لذلك لنعقد إتفاقاً هنا، أو قل مساومة إن أردت، فإن أخبرتك أنا عن من أكون بدون أن أستند على هوية معارفي، فأنا أريدك أن تقوم بالعكس و أن تعرف بنفسك بدءاً بهوية من تعرف و من يكون من قد جلبك و أوصلك إلى هذه التجمعات الباذخة، و بالمناسبة، و لا تأخذ ما سأقول كمحاولة لإهانتك أو تقليص مكانتك، لكن إنكار من ساعَدكَ و من شدك من ساعِدكْ و أن تجعلهم مبهمين الهوية هو أشبه بالصفعة على وجوههم، و لذلك أريدك أن تخبرني من هم أولائك الناس اللذين يسندونك، و أنا بالمقابل سأخبرك من أنا بمفرد شأني و فقط ».

أنزل كوستانتين رأسه معاوداً النظر إلى كأسه، و ضحكات ساخرة تنبعث من شفتيه الباسمتين، و نافضاً رأسه في حسرة متمعنة، ليس على حال نفسه، بل على حال رومان، حيث كان كوستانتين مقتنعاً و واثقاً من قدرته على مجابهة و تحدي أيٍ كان، و لا نتيجة لتكون نهاية مثل هذه التحديات عليه سوى إنتصاره و فوزه الساحق، و هذا ما حدا تعابير وجهه إلى الإنخماد إلى راحة و إطمئنان بسرعة لم تقتضيها عجلة أو تكلف، و أنطلق منبعثاً في كلامه الذي لم تتغير نبرته أو حدته في درجة ما.

« لا بأس، فأنا لم أرى أية إهانة أو إساءة فيما قد قلت، و أنت لم تقل سوى كلاماً مقبولاً لكونه يطالب بالمساواة و العدالة فيما تريد أن يحقق من نتيجة، و أنا أعتذر إن كنت قد جعلتك تشعر بأن سؤالي قد حاصرك إلى زاوية ما قد تطلبت منك أن تظهر هذه الإنطلاقة في تشييد حصونك أمامي، و إن كان تحقيق ما تريده قد يجعلك تقفض هذا الحائط المنيع الذي شيدته و من خلفه نصبت المدافع، فما تريده محقق، أنا كوستانتين، و لا أجد بداً سوى أن أكرر قول ذلك، و تواجدي هنا محكم و مسبل من قبل والدي، و بالمثل كما أنني لم أتعرف عليك عندما قربت صلتك بالسيد غيرسكفيسكي، فأعتقد بإن المثل يطبق على هوية والدي، كونه غريب على هذه المدينة، و معظم المتواجدين هنا لا يعرفونه و لم يتعرفوا عليه بعد، على الأقل ليس قبل نهاية هذه الليلة، و هو لم يحل على هذه المدينة إلا منذ حوالي أسبوعين قد خلوا، و لقد سبقته أنا هنا قبله منذ فترة ليست بالقصيرة و لا بالطويلة، و على الرغم من إننا قد رجعنا للعيش معاً تحت سقفاً واحد، إلا إنني أقوم بأعمالي الخاصة التي لا شأن لوالدي بها خصاً، و لكن لحكم الظروف و أسفها لا يعني هذا إن أموره و علاقاته لا تخصني سواء أردت أن أكون من ضمنها أم لم أشئ، فهذه حكم تبعية تراتيب أفراد العائلة في مجتمعاتنا هذه كما تعلم، . . . ، آه، لقد ثرثرت بكل هذا الكلام و لم أذكر حتى إسم والدي، إسمه أندريه، أندريه تروسكيفيتش، و الآن لقد إنتهينا من جانبي، فما تبقى سوى أن تشرع البدء في الحديث من جانبك ».

لم يستطع رومان تصديق ما قد سمعه للتو، أحقاً والد هذا الشاب هو أندريه تروسكيفيتش، أندريه نفسه ذاك لا غير، الذي أرتحل معه على متن القطار القادم إلى هذه المدينة، و أندريه نفسه الذي قد فاجأه بتواجده على إحدى طاولات ذلك المطعم جالساً قبال عمه، فهل حقاً ما قد قاله و أخبره به أندريه عن مشيئة القدر سابقاً كان كل ذلك حقيقة؟،

و لكن ما الغريب في كل هذا الأمر؟، ما الذي يجعل رومان يختص أندريه لوحده و لمصادفته إياه بهذه الميزة؟، لم يجب رومان على هذه الأسئلة و التي بدأت تدور في أرجاء ذهنه، و فضل جعلها معلقة غير مجابة فيما يقوم هو بدوران رأسه على محيطه باحثاً عن أندريه و إن كان قد حضر فعلاً هذا التجمع، و بدت علامات الإستغراب على وجه كوستانتين لأول مرة، و فقد أثر ذلك اليد العليا في هذا العراك بينه و بين رومان، ليس من جهة عدم كفائته أو قدرته على تخليص هذه المواجهة، و إنما من محض الصدفة التي جعلته ولداً لأندريه من بد الناس كلهم، و أدرك رومان ذلك بكل بديهية و أستغل هذه الفرصة السانحة غير تاركاً لها المجال بالإنقضاء أو بالإضمحلال.

« آه، إذاً والدك هو أندريه تروسكيفيتش، لم أستطع تخمين ذلك، فأنتما الإثنان لا تتشابهان في شيئ، و ليس فقط في الهيئة، بل حتى في المضمون، فمن حديثي الموجز هذا معك و من معرفتي السابقة بأندريه فأنتما حقاً على شفة نقيض، . . . ، أين هو يا ترى من هذا الجمع؟، يا لعبثك و مزاحك يا أندريه، أفلا تخبرني حتى بأنك ستكون متواجداً في هذه الأمسية؟، . . . ، على كل حال يا تيكو، هذا ما قلت بإنه هو أسمك، أليس كذلك؟، أو على الأقل ما تحب أن تدعى به، لقد تشرفت بلقاءك و سعدت بتعرفي أخيراً بإبن أندريه، و لو إنه لم يذكرك أمامي بالكثير، لكن هذه المصادفة قد ملئت الفراغات التي لم يسدها هو، و الآن لو تعذرني، فأنا مشغول في التحضير لأمورٍ كبيرة تنتظرني لهذه الليلة، فوداعاً يا توكو ».

أبتعد رومان عن حضرة كوستانتين مائس المشية و متبختر الخطو، فيما قد ملئ الشبان حيزهم السابق محيطين بكوستانتين الذي بدا إرتباكه و تبعثره واضحاً للجميع اللذين أخذوا يحاولون جرجرة محتوى الحديث الذي دار بينه و بين رومان، رومان نفسه الذي لم يستطع كوستانتين حتى أن يستخلص إسمه الأول و لم يتركه إلا مبهماً كإبن أخ السيد غيرسكفيسكي،

و في هذه الأثناء كان رومان يتواثب من زاوية لأخرى مجيلاً بعينيه على كل من يقع أمام ناظره، باحثاً عن أندريه، هذا لو صدق كلام كوستانتين، و ليس الهدف من هذا البحث سوى أن يستعلم مكانه ليقوم هو بالإبتعاد قدر المستطاع عنه و تجنب لقاءه، و ليس هذا فقط، فهو قد أضاف مهمة البحث عن روتفا أيضاً على هذا البحث المستجد، و ما أن لقاها في الزاوية الذي ظن بأنها ستكون فيها، ألا وهي زاوية النساء التي يتخذنها مربضاً لهن، حتى حاول تخريص طريقة أو حيلة ما تحول فيما بينها و بين أندريه و تمنع لقاءهما، و لكونه ليس على وفاق معها و ليسا على علاقة جيدة تسمح له بالخوض في حديثاً إرتجالي معها فجأة و بدون عذر مقبول، فلم يكن لرومان أي خيار سوى أن يستعين بفيولا التي كانت مستندة على حائطاً ما لا تجد بين يديها شيئاً لتفعله أو شخصاً من قرابة سنها لتقضي الوقت معه، و لكن حتى هذه المحاولة لم يكتب لها بالنجاح، لكون فيولا ما زالت غاضبة و في نفور من رومان بعد معاملته القاسية و المغتربة لها عند العصرية، فلم تعطه من إهتمامها شيئاً و أدارت وجهها لأية جهة لم يكن هو متواجداً فيها، و مهما حاول إصلاح ما بينهما و مهما وعدها بالهدايا و المكافئات فهي لم تتراجع عن موقفها، على الأقل ليس في هذا اليوم حيث قضيتها التي تدافع عنها ما زالت ساخنة تلتهب في ذهنها.

« ماذا تريد من أختي يا رومان؟، لقد كنت أراقبك من بعيد عندما شخطت أمام ناظري، و أرى بأنك لا تكتفي فقط بإزعاج من هم في مثل سنك، بل حتى الصغار لم يسلموا من تعسفاتك و من تعنتك، و الآن لو سمحت، أبتعد عن أختي و كف عن إزعاجها، ففقط لكونها تقضي وقت العصرية تتسكع في أرجاء الحديقة بالقرب منك لا يجعل منها حقاً بمقربة أو معرفة فعلية بك ».

أستنكر رومان هذا الكلام، و لكنه لم يمانعه في هذه الحالة، لكون روتفا هي من تقدمت تجاهه و بدأت تحادثه و ليس العكس، و رأى إنه بقدرته الآن إلهاءها و إطالة الحديث معها حتى يطمئن و يكون في تحكم تام بنطاق حركتها.

« لا أعلم عن ماذا تتكلمين، فأنا لم أضايقها قط، و لو لمرة واحدة، فهي فقط تشعر ببعض التعب و النعاس من هذه الأمسية المملة، و لقد كنت أحاول أن أسليها و أبعد عنها هذا الإهمال الذي تحلونه و تفرضونه عليها، و بالمناسبة، فيولا و أنا على قرابة و صداقة بشكل أكبر من ما تتصورين، و بالطبع أنتي لن تعلمي عن أي من هذا لكونك غير مهتمة و لا مبالية بالشؤون التي تخص فيولا، و لكن تفضلي و أحكمي علي كما تريدين، و منذ متى كان هذا أمراً غريباً يصدر منك؟ ».

نظرت روتفا بإستعلام يطالب بالأجوبة إلى فيولا التي ظلت على صمتها و رافضة الخوض في هذه المناوشة، و بعد أن أنضم رومان هو الآخر بالتحديق في فيولا في تحذير لها عن ما أخبرها به مسبقاً بعدم الحديث عن ما يجري من إتفاق بينهما في الحديقة لأي أحدٍ كان، أطلقت فيولا رجليها للريح هاربة من هذا الموقف، و دافعة رهط الأجساد جانباً مسبلة طريقاً للخروج من هذه الصالة، و تاركة روتفا و رومان ليتكفلا بإنهاء مناوشتهما كما يريدان، كُلاً يبدع و يفترض من عنده بما تريده و ما تشعره فيولا، حتى أستيقظا من هذه الغفلة أثر صوت السيد غوربوف الذي قد أخذ يطالب بإهتمام و تركيز الناس لما يريد أن يعلنه لهم، متخذاً ربوة السلالم التي تتوسط الصالة كمنصة يعلي بها صوته و يوزعه على كل أقطاعها.

« و الآن لو سمحتم يا ضيوفي الأعزاء بالإصغاء لما أريد أن أقول، . . . ، فأنتم تعلمون، أو معضمكم يعلم بأن أعز ما أملك في حياتي كلها من بعد بنتي الأثنتين طبعاً، هي حديقتي التي

أعتز و أفتخر بها، و دائماً ما أزعجكم بالحديث عنها كما يعلم بعضكم، و كما تعلمون فطوال العقود الماضية كان المعني بالإعتناء بالحديقة هو نيكولاي، الذي أبهرنا بعمله البارع و أذهلنا بما فعله للحديقة من تنسيق و توزيع للأشجار و الورود و الأزهار فيها كما شهدتموها سابقاً، و لكن نيكولاي للأسف و لكبر السن الذي لحقه قد أحيل للتقاعد، و نيابةً عنه قد حل شخصاً آخر كحدائقي يقوم بمثل عمله غير متخلفاً و لو بتفصيل أو بلمحة عن من سبقه، و لهذا بعد أن أستقر في هذا العمل لفترة أظنها مناسبة ليرينا عمله و يبهرنا به كما كان يفعل نيكولاي دائماً، أريد أن أعرفكم جميعاً بحدائقي الجديد، . . . ، رومان ».

أنتصب إنتباه جميع الحاضرين تجاه رومان بعد أن أبرزه السيد غوربوف مشيراً تجاهه بيده، و أخذ من حواليه يلقون عليه التحية و مبدين شرفهم بالتعرف عليه تحت فروض الكياسة، حتى نزل السيد غوربوف و أتخذ مكانه جنب رومان، و أشار عليه بأن يتقدم الطريق تجاه الحديقة، متخذاً المخرج الأمامي للمنزل، و من ثم الإلتفاف حوله حيث تكون الحديقة، و من خلفه تبعه جمعاً من الناس من اللذين كانوا معتادين على مثل هذه المناسبات و الأحداث، و أنيرت الأضواء الباهرة و المخصصة لمثل هذه الليالي، حيث قد وقف الجميع أمام الحديقة كُلاً متخذاً مكاناً يسمح له بالنظر و التمعن في أرجاء الحديقة و ما تحويه دون تكلف، و لكن لصدمتهم و لصدمة رومان و لصدمة السيد غوربوف بالأخص، بأن كان ما لقوه أمامهم ليست الحديقة الخضراء التي كانوا يترقبون رؤيتها، و لا الأزهار الفاقعة و الخلابة التي أرادوا ملئ أعينهم بها، و لكن ما وجدوه هو دمارٍ و فساد قد لم بأرجاء الحديقة بالكامل، فالورود قد سحقت و قطعت، و التربة قد حفرت و أفسدت و قلبت من كل ما تحويه تحتها من جذور، و الأشجار قد قطعت أغصانها و ألويت، و لم يُرى سوى الحطام المجزوز المتراكم على بعضه البعض، و لم تسمع سوى الشهقات المتساسرة و المصعوقة التي ملئت صفوف الجمع، و

فيما كان رومان مذهولاً و أغتم الكلام، كان السيد غوربوف في غضب لم يكن له مثيلاً أو صنو.

(الفصل الرابع عشر)

تداخلت و تعاركت الذكريات مريدةً الحوز على الأسبقية في أهميتها في ذهن رومان، ليستطلعها و يتفحصها و يستكشف عن خلل ما أو شائبة تدله لمكان الخطأ و العقدة التي قد أثقلت رزح هذه المصيبة على هامته، فلا شيئ مما حدث في هذه الأمسية تستطيع أن تشير إليه بأريحية واثقة و تعلن بأن العطب قد نتج منه، فعندما تطرح كل الخيارات و المسارات أمامك لتقارن بينها و تريد أن تقصي منها الأبعد شبهةً، فأنت ينتهي بك الحال إما بأن تقصيها كلها، أو بأن تبقيها كلها، فجميعها متساوية في شبهاتها، لا تستطيع أن تحكم بإن إحداها تثير حس الإرتياب إلا إذا عممت هذا الحكم على أجمعها، فما الذي قد جعل من تلك الحديقة الناضرة المفعمة بالحيوية و بحس الترحاب على تلك الصورة البشعة و الشنيعة؟، و بالأحرى القول 'من' الذي؟، فهذا بالتأكيد تعدي متعمد مخطط له مع سبق الترصد، و بالإمكان إستبعاد إحتمالية هجوم صنواً من الحيوانات الضارة و غزيها لأرجاء الحديقة عابثةً بها و محطمةً إياها، حيث إن آثار الأدوات المستخدمة للقطع و الجز في مختلف الأشجار و الزهور و الورود بادية و واضحة و لا إلتباس فيها، فشخصاً ما فيما بين الساعة السادسة عندما أرتحل رومان عن الحديقة و بين الساعة التاسعة و النصف حيث تدفق الجمع على محيا الحديقة، قد دمر و كسر و أفسد الحديقة متعمداً إظهار رومان بصورة سيئة ليس فقط أمام أفراد عائلة منزل السيد غوربوف بل أمام الجميع كافة، فلو أراد المتجني أن يختار السبيل الأول لما تعنّى القيام بعملته هذه في تلك الفترة المحدودة بالتحديد، و لأختار فترة الصباح قبل إنقشاع قرص القمر حيث الجميع نائم ليخلوا له المكان و الزمان ليعبث و يقوم بفعلته الشنيعة كما يحلوا له و بكل أريحية، لكنه أبى ذلك و قرر إتخاذ الطريق الذي سلكه، فهذا الشخص لا بد و أنه يحمل حقداً بغيضاً و يبطن كراهيةً صريحة ليستهدف رومان بهذه الطريقة، و هذه هي الحقيقة التي توصل إليها رومان، و هي أن

الضحية الفعلية و الحقيقية لما حدث ليست الحديقة نفسها، و أنما هو شخصياً!، و لم تسنح له الفرصة للإفصاح عن هذه الخواطر عندما جُرجر من إبطيه من قبل ضيفين من ضيوف السيد غوربوف و اللذان تفضلا بإلتقاطه قبل أن يصطدم رأسه بالأرضية بعد دوران رأسه و هموا بإدخاله إلى المنزل قافلين إلى الصالة حيث رجع إليها معظم الحشد من اللذين كانوا متجمعين عند الحديقة، فيما ظل السيد غوربوف ملازماً مكانه برفقة بعض من ضيوفه الأقارب منه يواسونه في مصيبته هذه و يعاضدون ساعده بساعدهم، و في الداخل حيث أستلقى رومان على إحدى الكنبات و شاع خبر ما حدث و أذيع بين كافة الحضور، بدأ جمع الناس بالإنسحاب من هذا الجو الخانق و المزعج و العودة إلى منازلهم غير عابئين حتى بتوديع سيد المنزل و لا حتى أحد من قاطنيه، حيث كانت روتفا و أختها فيولا التي عادت لجنبها واقفتان على رأس رومان تنتظران إستيقاظه ليخلصوا منه حقيقة ما جرى ظانين بأن مفتاح هذه الأحجية يقع بين قبضتي يديه، و ما أن رجع رومان لصحوته حتى بدا واضحاً بأن الحديث معه عديم الفائدة و لا يجدي بشيئ غير إضاعة الوقت، فرأسه لا زال يدور به، و فكره مشتت، و بصره يغشيه فلا يكاد يتعرف ملامح الناس مهما حدقوا فيه، و هو بالكاد يمكن إحتسابه حقاً من المتواجدين أبان تلك اللحظة.

عادت تلك الذكريات المضمحلة لرومان و هو مستلقي على فراشه في منزل عمه، حيث أن الأمسية قد أنقضت، و الجمع قد غادر منزل السيد غوربوف منذ عدة ساعات، و لا بد و أن الوقت قد داهم الساعة الثانية صباحاً، و النوم لن يغشى عيني رومان حتى طلوع الصباح على أقل تقدير، ليس بعد كل هذه الأحداث، و لكنه قبل أن ينتقل من هذه الأحداث و يكتفي منها، أسترجعها مرة أخرى، و تحديداً تلك اللحظة بعد خلو صالة الضيوف في منزل السيد غوربوف من الناس، عندما كان رومان لا زال على حاله المشدوه لا يعي و

لا يوتعي لشيئ مما يقال له، و لكن في هذه اللحظة و هو مستلقي على فراشه قد أدرك و أنه في الحالة التي كان عليها في ذلك الوقت، قد سمع روتفا تحاور رجلاً ما، لم يتعرف على صوته لكون أذنيه قد كانتا غارقتان في صدح و ردح أفكاره المتصادمة، و في الحقيقة هو لم يستطع حتى أن يدرك بإن روتفا كانت من تجاوره آن ذاك إلا لكونها الوحيدة مِن مَن يعرفهم من كل ذلك الحشد، فمن غيرها قد يقترب منه و يحادثه بذلك الكلام الذي بدت نبرته معاتبة، و أما عن هوية ذلك الرجل، فهو قد أدرك من يكون هو أيضاً بنفس الطريقة، فَمَن مِن جميع الحضور قد يساءل روتفا و يحادثها كصديقاً قديم و في نفس الوقت يشير و يتحدث عن رومان بنفس المثل، فما هنا إلا خياران، فإما أن يكون السيد غوربوف، و هذا مستبعد لكونه لا زال و ربما لحد هذه اللحظة في عاصفة غضب لا ترحم من يجرئ على نصب نفسه في طريقها، و الإحتمال الآخر هو أندريه، نعم أندريه، فكوستانتين قد أخبره و أكد له عن كون والده كان متواجداً في مكانٍ ما في أرجاء الصالة، فلا بد و أنه كان هو، و ما يدل على ذلك و يقطع أي شك، هي الكلمات التي سمعه ينثرها و يلقيها على روتفا، طالباً و مريداً ميثاقاً منها بأن تقاتل و لا تقبل من والدها بأن يقسوا أو حتى بأن يصدر أي عقاب على رأس رومان، و بأن تظل بجانبه و تساعده في سبيل أن تعاد تلك الحديقة كما كانت، و ألا تزيح ناظرها عنه ما داما في نفس الحيز و المكان، فمن يدري ما قد يقوم به رومان لنفسه بعد هذه المصيبة، فخيبة الرجاء هذه قد تلوي عزيمته في الإستمرار في هذه الوظيفة، و حاولت روتفا إثناؤه عن وضعها في هذا الموقف الصعب و الغير محبب لها، فهي أن قامت بما يطلبه منها و نفذته، فهي بذلك ستصبح خائنة لوالدها و طاعنة لظهره، و متخاذلة مع نفسها في حال إتخاذها جانب من لا تطيق و لا تقدّر، ففي ما بين أن يعاقِب والدها رومان و يفصله عن عمله و يجلب مكانه شخصاً آخر لا تملك هي أية مشكلة شخصية معه، و ما بين أن تصبر و تحتمل جعلها ليس أن تكون محامية لرومان فقط، و إنما مشافيته و مواسيته أيضاً، فلا يبدوا أنه من الصعب و المجهد عليها

أن تختار أي الخيارين الأمثل و الأنسب لها، و لكن أندريه أصر على ما قاله، و أكد لها بأن الناتج الذي سيظهر من إقتيادها لما يوصيها به سيكون أكبر و أشمل مما تظن و ترجوا، أستفاق رومان من ذاكرته هذه لعدم علمه عما كانت هذه المحادثة قد آلت إليه، و لا يعرف ما أختارت روتفا، و لا ما سيكون مصيره من هذا كله، فقادته هذه الحيرة ليهبط السلالم و الدؤوب إلى المطبخ حيث تمنى بأن يلقاه أياً كان، سواء أكان ذلك الشخص هو فيلبونا أو حتى زوجة عمه التي لا يطيقها، فلا يهم أياً مما قد درج فيما بينهما سابقاً، و لا يهم ما قد يحدث بينهما لاحقاً، فكل ما يريده الآن هو شخصاً يواسيه و يستعطف على حاله و يخفف عليه محنته، و كان الظلام الذي وشح الممر و أستمر حتى داخل المطبخ ليملئ أقصى زواياه هو الحصى الصغيرة التي شجت رأسه و أدمته، من بعد تلك الحجارة التي قد أنهالت على رأسه هذه الليلة و التي لم تحدث سوى شروخاً بسيطة، و لم يريد رومان بأن يعود خائباً إلى غرفته و يستسلم لهذا الوضع البائس و الشائب، و لا أن ينتظر حتى ولوج الصباح على محيا المدينة حتى يتيقن من ما هو نصيبه و مقداره من هذا كله، ففتح قفل باب مخرج المنزل، و أعطى قدميه الحافيتان المنطلق لتوجهانه إلى حيث يريد نجواه.

الليل بـ 'ـأل' التعريف يختلف عن ليلٍ مُجرّد، و الظلام بـ'ـأل' التعريف يختلف عن ظلامٌ مُجرّد، فإحداهما تعرفه و قد تم لك أن تختبره، و الآخر مجهول و غير معهود، فعندما تسوح في الشوارع في أوائل الليل، فأنت تشعر بلذة الخوف و الرهبة إذا كانا متواجدان، لكونك تدرك بُعد إحتمالية أن تصدر أية مشكلة جدية أثناء ليلاً معهود كهذا، و بُعد لزومية و وجوبية أن تستعد لمجابهتها لكونها غير واردة الحدوث، فالأرصفة لا تزال مشخوطة بآثار الأحذية التي قد وطَئتها، و المصابيح لا تزال تحتفظ بذلك اللمعان الأبيض البارد الذي ينبؤك عن عهادة وقت إشعالها، و الأبنية و المنازل لا تزال في خضم مضغ حركات قاطنيها و لم

تجترئهم بعد، فالمدينة حية و حتى و أن بدت عكس ذلك في ظاهرها، و لكن رومان بقدميه المتقرحتين و الداميتين أخذ يصبغ الطُرق التي يمشي عليها بأقدام متوحشة و غريزية لا تخرج من مخابئها إلا في ليلاً مظلم و موحش كهذا، يجرجر قدميه غصباً عن ملكة عقله، فلا تبرير و لا منطقية قد تَعطُف طريقه لتعود به قافلاً إلى من حيث أتى، و منذ متى كان رومان لهته الخصلة صاغياً؟، فرغبته و رغبته وحدها فقط هي من تحدد ما قد يُجترى عليه و ما يجترئ هو أن يفعل، يمشي مبدداً الظلام خلفه ليحل ظلام أعمق و أفحم منه، لا يتعرف على ملامح طريقه و لا يدل مبتغاها، و لا قمر يهديه و يحدد مساره، فهو الآن مجرد حشرة عمياء قد نُهشت ساقها و لم يتبقى منها سوى حواسها الدفينة التي ترتجي منها عدم تضليلها، لكن هذه الحواس تقودها لنهاية حتفها و تلقي بها في قعر كتلةٍ من الماء لم تعرف السبيل إلى تخطيها، وقف رومان على ضفة النهر الهادئ، و من شدة سكونه لا يمكن أن تفند إمكانية بإن ما هو أمامك ما هو إلا سوى أرضٍ جرداءٍ فسيحة، لكن هواء الماء اللافح بدد أي شك في كونه إلا هذا هو النهر نفسه الذي يقضي فيه رومان وقت الظهيرة كل يوم، حيث يفصح عن خواطره و فلسفاته في الحياة و إعتقاداته عن المجتمع، و عن ما يظنه بأولائك المارين على الجسر من فوقه و عن إحتقاره لمسلك حيواتهم، و تعريضه لهم بأشنع الشتائم و أبذئها، لكن نظرة واحدة في هذه اللحظة يقلب فيها عينيه تجاه محيطه قد فندت كل ما قد أعتقد و آمن بأنه حقٍ و صحيحٍ من قبل، فلا مارة هنا ليقارن حياته بحياتهم، و لا صفيحة نهر واضحة لكي يُقَفِّز الحصي و الحجارة التي يحلوا له أن يرميها على سطحه و يحاول إيصالها للضفة المقابلة، و لا سيرغي هنا ليصغي له و هو يثرثر عن كل هذا، لا أحد هنا، و لا شيئ هنا، فقط رومان لوحده، و ثقل مصيبته مربوط بقدميه، و هذا الثقل هو نفسه الذي جرجر هذه الأقدام إلى هنا على هذه الضفة، و ها هو الثقل ينجرف سابحاً على شاطئ النهر قبل أن يغوص ببطئ لأعماقه، و يبدأ طول الحبل بالقصور، فيستعير طولاً من رومان و يجرجره على رمال الضف كما جرجر الثقل

نفسه، و رومان مقتنع بحال الموقف و لا يرى سبيلاً للمقاومة أو المناهضة، فما الفرق بين ظلام الليل الذي يراه و يشعر به حيث يقف هنا على جانب النهر، و بين ظلام قاع النهر الذي ينتظره؟، لا يوجد أي فرق سوى إن الآخر سيجعلك تختبر لوهلة شعور الخفة و الراحة في بدنك و أنت تغوص بإنسياب لقاعه، فعلى الأقل لا يوجد مجهوداً هناك ليُبذل، و لا عناءاً هناك ليُشقى، و لم ينطق رومان حتى بكلمات مودعة و راثية و هو في هذا الخلاء الغير الفاضح، فمن هنا قد يشهده و هو يذل و ينهك نفسه؟، و من الذي سيعاتبه و يلومه أصلاً لو شهد ذلك؟، طفق رأس رومان على صفيحة النهر و رجلاه تنزلقان على رمله في قاع الضف و تتدافعان في إنخفاضهما في مستوى إرتفاع الماء، فغاب فمه تحت الصفيحة و تلاه أنفه الذي أصدر فقاعات مختنقة، و كانت عيناه و شعره آخر ما ودع هذا العالم حتى غاص جسده كاملاً في النهر المظلم تحت وشاح هذة الليلة المعتمة.

حل الصباح و أنقشعت الظلمة، غير تاركة أي من آثارها و لا حتى غيمة لتطغي بعض من دكانتها الكادرة، الناس تخرج لمسعاها و لحصد أرزاقها، و الهوام و الدابات لنفس الغاية قد سبقت البشر في الإستيقاظ، و الشوارع أمتلأت و أكتظت حركة و جعجعة، و ثرثرات و تمتمات الناس لا تنقضي و لا يبدوا بأنهم يملون منها، و في الطابق السفلي لمنزل السيد غيرسكفيسكي، تجمع أفراد العائلة على مائدة الفطور، كُلاً مهتم بطعامه و بما يملئ معدته به قبل مواجهة هذا اليوم الطويل الذي أمامهم، جوٌ نقي و صافي لا تشوبه شائبة، و لا تعكره شذرة من الإزعاج، و فيلبونا التي أتت من المطبخ لتتفقد سير و سلاسة مضي هذه المائدة كما تفعل عادةً، قد أطلت عليهم بوجهها المتجمد تسألهم إن كان ينقصهم شيئاً ما، أو إن كانوا يريدون طعاماً إضافي زيادة على ما هو موضوع على المائدة، و هي تقول كل هذا و هي تعلم

بأن الجواب سيقابل بالنفي، و تدرك أيضاً عن ما سيكون طلب السيد غيرسكفيسكي عوضاً عن طلبه طعاماً للمائدة.

توجهت فيلبونا للطابق العلوي، و وقفت على باب غرفة رومان مكاتفة اليدين معتكفة عن طرق الباب، فما حدث بالأمس هو تحديداً ما توقعت و خمنت، و لسببٍ ما جعل هذا التنبؤ و التفطن الذي هي قادرة عليه كمشارك للجريمة و الواقعة التي حلت بحق رومان، و كان شعورها بهذا الذنب و الأثم قد شابه لها شعور الأم الحنون التي أبتليت بولداً عاق لا يسمع نصحها و إرشادها، و لا تتمكن من سوى رؤيته يتعثر و يتحير أمام العقبات التي يتعمد السير على طريقها، و لكنها شدت أزرها و عاضدت من جأشها و رفعت قبضة يدها طارقة الباب بطرقتها المعتادة، ثلاث طرقات و من ثم تنتظر عشر ثواني، و كان تأخر رومان في فتح الباب لها قد أرجع ذكريات من الأسابيع الماضية حين تأخر أيضاً في فتح الباب لها فقط ليتهجم و يعتدي عليها في آخر الأمر عندما فتحه، فتجرأت فيلبونا أن تتخذ الوضع الهجومي هذه المرة لكي تجنب وقوع تلك الواقعة مرة أخرى، فقامت بفتح الباب عنوة و بدون تحذير، لتنصدم برائحة عطنة و بشعة، أشبه برائحة التخمر و التحلل، و برائحة تشابه بلل الثياب المغططة بماء البحر الآسن، فتقدمت في نطاق الغرفة و توجهت للسرير، و كانت صدمتها التالية بأن ترى رومان و قد أغرق نفسه و السرير بأكمله بالماء، فكانت القطرات تنقط من ألواح السرير و تتجمع أسفله، و رومان نفسه كان منخمجاً بغطاء مغطط بالبلل حتى ألتصق ببدنه، و لم تعلم فيلبونا ما الذي يحدث هنا أمامها، أو ما قد حدث هنا قبل دخولها، و ما هو السبب لكل هذا، و لم تجد أمامها أي خيار سوى أن تقفل الدبر عائدة من حيث أتت، تاركة رومان لحاله غير عابئة به، و تعذرت له عند إيفان بأنه غير قادر حالياً على النهوض من على فراشه لمرضٍ قد حل به، و بأنه يحتاج للراحة و التطيب، و لم تحتج لذكر أحداث الأمس لكي يفهم إيفان بأنها تلك

الأحداث بالذات هي المسبب لهذا المرض الفجائي، فأتموا فطورهم، و رحلت داليا لمدرستها غير عابئة و غير مدركة لما يحدث أمامها من أمور تخص البالغين و التي لم تعرها يوماً أي بال، و رافقها إيفان أثناء خروجها، و كأنه لا يطيق الإنتظار لحظة واحدة حتى يغادر هذا المنزل، و باشرت دانيا أيضاً بتجهيز و تهيئة نفسها للمغادرة، حيث أن اليوم هو يوم التجمع الأسبوعي الذي تقيمه صاحباتها، و قبل أن ترحل أوصت فيلبونا بالإعتناء برومان المريض، و بأن تتفقده بين كل حين و حين في حال أراد شيئاً ما لا يملك القدرة على الوصول إليه، و لم تظهر فيلبونا مللها و ضجرها من هذا الطلب الذي يكلف عليها عبئاً لا تطيقه و بالكاد تظن إن بإمكانها الصبر عليه، و لكن ما كان بيدها في الأمر حيلة، فالأوامر أوامر.

طرقت فيلبونا باب غرفة رومان، و لمعرفتها و سبق حكمها بأنها لن تتلقى أي رداً منه، قامت بإقتحام الغرفة، لترى بأن السرير ما زال على بلله و أن جف قليلاً، و لكن المفاجأة هي أن رومان لم يعد متواجداً على متنه، و لا في أي مكان من أرجاء الغرفة، فهو ببساطة قد أختفى، و مهما بحثت عنه في أرجاء المنزل، فهي لم تجده و لا حتى في أقصى زواياه، فحارت في أمرها، و لكن مرة أخرى ما بيدها في الأمر حيلة، فهي ليس بإمكانها مغادرة المنزل هكذا و حسب، و بلا إستئذان من السيد أو السيدة غيرسكفيسكي، و خصوصاً و أن المنزل خالي من أي أحد غيرها، فمن المسؤول غيرها في حال أقتحم المنزل لصاً ما و سرق محتوياته، و مهما قلقت و مهما رغبت في إيجاد جواب لهذا اللغز الذي ألقي أمامها ألا و هو إختفاء رومان، فهي تظل مقيدة لا تستطيع إستعمال كامل قدراتها و مجهوداتها في أي شيئ سوى أعمال المنزل، و في هذه اللحظة حلت الحقيقة الموجعة كالصاعقة على رأس فيلبونا، بأنها حقاً مجرد خادمة وضيعة لا تستطيع شيئاً، فما الهدف من قراءة كل تلك الكتب الثورية و النضالية التي تؤكد قدرة كل شخص على تملك و إسترداد حريته و طلاقته، فكيف يكون

ذلك صحيحاً و هي ليس بمقدورها حتى خطو خطوة واحدة خارج سجنها هذا، نعم، بدأت فيلبونا تفكر بهذا المنزل كالسجن الذي يحبسها، و كيف هو ليس بسجن؟، و هي كما قلنا غير قادرة على مغادرته بإرادتها، و لا قادرة على التصرف بما تخبرها به حواسها و لا هي حتى قادرة على الإفصاح بمكنوناتها في نطاقه، فإن لم يكن هذا سجناً، فماذا إذاً يكون؟.

طرق رومان باب منزل السيد غوربوف، و كاتف يديه خلف ظهره الذي أستقام مصطلباً و كأنه قد تم تفصيله بالمسطرة، و كانت نظراته حادة و مستقيمة على غير عادتها التي تكون فيه مبعثرة و خبيثة و مملوءة بالشؤم و البغض، و ما أن فتحت له إحدى العاملات الباب حتى طلب منها بكلمات موزونة و متصافقة برغبته في رؤية السيد غوربوف و محادثته في أمرٍ مهم، أستغربت العاملة من هذا التصرف و لم تنكره في الوقت نفسه، فرومان و منذ فترة كان مسموحاً له بدخول المنزل من أي باب شاء، و بدون طلب إستئذان من أي أحد و بدون أن يتلقي مساءلة من أحداً كان، و لكن ما أمحى كل هذا و جعله يعود للمربع الأول هو ما حدث في البارحة كما شهدت العاملة و زميلاتها أحداثها عندما كانوا يقومون بدورهم في خدمة الضيوف، فغابت عنه للحظات تاركةً إياه يقف منتظراً عند عتبة الباب، و ما هي دقائق حتى رجعت إليه و أخبرته بأن السيد غوربوف قد سمح بمقابلته، و لكنه لا يحتاج إلى الدخول من هذا الباب، حيث إن السيد غوربوف جالس على شرفة المنزل الخلفية، و يمكنه أن يقابله بالإلتفاف حوالي المنزل كما كان يفعل سابقاً، شكرها رومان على مجهودها، و أتبع التعليمات التي أخبرته بها، و أغلقت العاملة الباب و على وجهها علامات الدهشة من كلمات الشكر هذه التي تسمعها للمرة الأولى من رومان، فهي و طوال فترة معرفتها به لم تسمع و تتلقى منه سوى الشتائم و التذمرات التي لم يبخس في مشاركتها على ملئهن و أمامهن هن العاملات بغير إستحياء.

كان السيد غوربوف قد نصب كرسي في وسط الجسر الذي يربط الحديقة بالمنزل، قد جلس عليه و يديه ممسكتين بركبتيه يحدق بضعف و وهن إلى ما أرتسم أمامه من مظهر مكدر و مثير للحنق، فنتائج الجريمة قد وضحت و غدت بائنة بكل تفاصيلها تحت ضوء الشمس الفاضح، و كلما أقترب رومان من هذا المشهد كلما رأى التفاصيل المخزية، فمن قام بهذا الفعل حقاً قد كلف نفسه العناء و الجهد لتكون النتيجة قاسية و مفجعة لقلب من قد أحب هذه الحديقة، و لا بد و أنه يضمر جل الحقد و الكراهية لرومان، هذا إذا صدقنا الفرضية التي توصل إليها، ألا و هي كونه الهدف الأساسي الذي تعمد المجرم أن يصيبه الضرر الأكبر، لم يلحظ السيد غوربوف مجيئ رومان لشدة سرحانه الكئيب، و تقدم رومان و دخل إطار منظوره حتى يجعل وصوله أمراً معلناً دون شك، لكن السيد غوربوف لم يعره أي إنتباه و واصل التحديق أمامه دون إجالة بصره جانباً، فما كان من رومان سوى أن يستغل هذه الفرصة الهادئة ما دامت هي سانحة، و يتفقد بدقة ما حال بالحديقة، و دخل أرجاءها و أطلع على هوائل ما جرى، و طفق راجعاً أمام السيد غوربوف و أصر على أن يعيره بعض من إنتباهه، و كان إصرارة قد أتى ببعض النتيجة حيث قد جعل السيد غوربوف رومان محط أعينه الحزينة.

« لو كان الدمع قادراً على إعادة الأمور لصوابها، لذرفته دون بخس، و لو كان للصراخ و للعراك دوراً في تصحيح الأوضاع التالفة لموضعها الأصلي، للعلعت صوتي حتى يبح و تتقطع حبالي الصوتية، لكن خبرتي في هذه الحياة و تجاربي المريرة على مدارها قد أثبتت لي عدم نفع أي من ذلك، فعندما تحل مصيبة أو فاجعة على رأسك، فأنت حالاً في تلك اللحظة خارج حساباتها، لا تستطيع التصرف حيالها بأي شكل أو صورة، و كل ما يمكنك فعله، أو بالأحرى ما يجب عليك فعله لو أمتلكت من الحنكة و الخبرة كما أملك أنا، هو أن تصبر و تتمهل، و

تراقب الأمور و الأوضاع و تقتنص الفرصة المناسبة التي تهيئ لك للبدء في تنفيذ الخطة التي قد خططتها أثناء ذلك التمهل، فأن أضعت ذلك الوقت في البكاء و العويل و الشجار، فأنت قد حكمت مسبقاً على حتمية إنقضاء الأمر و ضياعه، و على عدم قدرتك على تصويب الأمور إلى مواضعها، و لذلك، لا تخف، و لا تحاتي لما قد أضمره تجاهك من عداوة جراء ما حدث، فأنا في نهاية الموضوع لا أحملك أية مسؤولية على ما جرى، و لما أحملك إياها من الأساس؟، فأنت لم تفعل و لم تقم إلا بواجبك و عملك على تمام الواجب منذ أن أستلمت زمام الأمور، و على الرغم من إنني لم أتفقد الحديقة منذ أن أستلمتها أنت، لأسبابي الخاصة، ألا أنني لم أسمع أية شكوى أو أي تذمر من أي أحداً كان، لا من العاملات و لا من فيولا التي دائماً ما تتفسح في أرجاءها ».

أزاح رومان رأسه جانباً محدقاً إلى الفراغ الفسيح الذي بدى أمامه، يحدق بنظرات ساهمة و مشتتة إلى اللاشيئ، و أخذ يمعص جوانبه في حيرة و تردد لما يجب أن يكون عليه مأخذه من هذا الكلام الذي أعفاه من أية مسؤولية و أعلنه بريئاً، فهل هو حقاً بريئ كما قد أخبِر للتو؟، فهو بالطبع لم يدبر ما حدث بارحة أمس، و لم يتمنى حدوثه، و لما قد يتمناه!، و هو الموكل و المتكفل بالإعتناء بهذه الحديقة التي جعلت تحت عنايته و مسؤوليته، و على الرغم من هذا التبرير السليم من جهته، و الأعفاء المريح من جهة السيد غوربوف، إلا أنه ظل هناك شيئاً ما في دواخل رومان الدفينة يدق و ينبض تحت هذه الطبقات من التبريرات التي سدت مخرجه، و كان هذا الشيئ يشعره بالإزعاج و التوجس تجاه الحقيقة التي يعرفها لما كان يحدث حقاً في الحديقة أثناء عمله، و هذا بالطبع سر بينه و بين سيرغي، و بينه و بين فيولا، كُلاً على حدا، و كُلاً بالإمكان إقناعه بسهولة بأن يتركوا ما حدث في الماضي للماضي، و الإمتناع عن ذكر أياً منه مجدداً، و التعامل معه و كأن شيئاً من ذلك لم يحدث قط، فكان عزم رومان على

ذلك قد تحتم و توثق، على الرغم من معاهدة نفسه أثناء تلك الفترة التي قضاها ليلة أمس متعلقاً بأوهن الحبال ما بين الحياة و الموت على عدم التصرف بشكل خاطئ مجدداً، و عدم الكذب على أحد مطلقاً، في حال أن أستطاع رفع نفسه أعلى ذلك الحبل، و إلا كان الموت أحسن سبيلاً له، و ها هو الآن بعد ساعات وجيزة بعد هذا القرار يرى نفسه أمام موقف حاسم يختبره بكل جدية، و يمحص في أحقيته لهذه الحياة التي أسترجعها معاهدةً، فرفع رومان عقيرته مريداً الإفصاح عن حقيقة كل ما قد جرى هنا، و بأن لا يترك أية تفصيلة مهملة، و لو كانت صغيرة، و لكن الصدفة وانته، و أنقذته من حكم الإعدام هذا الذي كاد أن ينطق به بحق نفسه، فها هم عدة رجال متسلحين بمعدات يدخلون الفناء الخلفي و يتقدمون تجاههما، فقام السيد غوربوف من مكانه مرحباً بهم، و أدلهم بيده تجاه الحديقة ليقوموا بتنظيفها و إخراج الحرائش المجزوزة و الأغصان المكسورة و الورود المنزوعة، ليخلوا المكان و يهيؤنه ليكون صالحاً للزراعة مجدداً.

« تعال معي يا رومان، و دع هؤلاء الرجال يقومون بعملهم بأريحيتهم، فلا طائل من أن توكل شخصاً ليتعامل مع ما هو عزيزاً عليك إن كنت لا تثق بقدراتهم و بجديتهم في تنفيذ ذلك العمل بتفاني و بإخلاص، فكما تعاملت بهذه الطريقة معك، دعنا نتعامل معهم بالمثل، فأنت أمامك عملاً كثير و كبير من بعد هذا، و يجب أن تستعد له، و أن تجهز له، فتعال معي لداخل المنزل و دعني أخبرك بما يجب أن تستمع و تصغي له بكل إمعان ».

(الفصل الخامس عشر)

مضت الأيام و أنداحت بعيداً، تاركة توتراتها تمحي و تندحر كآثار أقدام على رمال شاطئ، و حل في حياة رومان بدل العبث و الخبث حُسٌّ بالهدوء و الدعة، و أبدل الكسل و الإهمال بالجدية و التفاني، فشهراً كاملاً قد أنقضى منذ تلك الكارثة، و نتائج هذا التغير الذي طرأ عليه و الذي أتخذه سبيلاً جديداً يطرق فيه حياته قد أتى بنتائج مبشرة، فغسالات الأشجار التي غرسوها قد شدت حالها و نمت في طولها و قاعدتها، و الأزهار و الورود التي بُذرت قد شارفت على بلوغها في الإكتمال، و أصبح بالأمكان التمتع بمنظرها كما كان الحال دائماً، و لم تكن أيدي رومان هي الوحيدة التي ساهمت و شاركت في هذا العمل الناجح.

« صباح الخير يا رومان، معذرة إذا رأيت بإني قد تأخرت قليلاً؛ فوالدي كان بحاجة إلى خدمةٍ ما مني، و قد إضطررت لأن أتمهل في القيام بها، فأنت قد رأيت كيف غدا بدنه شديد الوهن خلال الأسبوعين الماضيين، . . . ، لكن دعنا من هذا و أخبرني عن حال شتلة أزهار النرجس تلك التي قد بدت متضعضة في جذورها بالأمس، هل أصبحت أحسن حالاً؟ ».

تنهد رومان من هذا السؤال الذي يجبره على تبديد آمال روتفا و إزاحة ثقل هم مرض والدها عن نفسها، و نظر إليها بملامح متعاطفة، و هو يشير لها تجاه شتلة أزهار النرجس التي سألته عنها.

« للأسف، لا يبدوا بأنها في تحسن، و هو بالأمر الغريب؛ كون هذه الشتلة هي الوحيدة من بين كل الشتل التي قد حل عليها هذا العوج و العطب في النمو، فجميع الشتلات الأخريات في أحسن حال كما ترين، و مهما تفحصت جذورها و قاعدتها و أي من سيقانها أو حتى

بتلاتها، فلا يبدوا أن بأمكاني أن أتيقن لمكان الخلل الذي يجعلها على هذه الحالة الشاذة عن أتربتها الأخر ».

تقدمت روتفا من رومان و وقفت بجنبه تنظر بعيون منكدرة لشتلة النرجس، و أخذت تتلمسها برفق و بخفة بأطراف أصابعها، في حركة قد رآها رومان من قبل، حين يمر أحياناً أمام الغرفة التي يرقد فيها السيد غوربوف، حيث يكون في معظم الأوقات غاطاً في نوم مرضي، و تكون بجانبه إما ممرضته التي قد تم توظيفها بشكل كامل عندما أشتد عليه المرض منذ ثلاثة أسابيع، أو روتفا نفسها، و التي يراها أحياناً تفعل مع والدها بمثل ما فعلته مع هذه الأزهار.

« لا تقلقي، فإن كنّا لا نعرف ما خطبها، فغيرنا حتماً سيعرف، و تيقني بأني في الغد سأحضر معي خبيراً في شؤون الأزهار و الورود ليتفقدها، و حتماً سيخرص ما هو خللها، و سينصحنا بما هو الأمثل لإصلاحها و إرجاعها لقوامها السليم ».

طأطأت روتفا رأسها موافقة على هذا الإقتراح، و عادت لعادتها اليومية التي أتخذتها بعد إعادة تشييد الحديقة بأن تتجول في أرجاءها حاملة معها بعض المعدات البسيطة، و تأخذ بتفحص الأشجار و الورود و الأحراش بعين ثاقبة و بملاحظة شديدة، و تشذبها إن رأت حاجتها لذلك، أو تسقيها إن رأتها جافة عند بعض النواحي، أو تفك تشابكاتها إن كانت الأغصان أو السيقان معتركة.

« بالمناسبة، هل ما سمعته صحيح؟، أعني عن عقد صفقة شراكة ما بين السيد غوربوف و ما بين أندريه، فقد سمعت بعض من حديثهم أثناء زيارة أندريه و عمي إيفان لوالدك منذ بضعة أيام، و يبدوا مما ألتقطته أذناي، بإن هذه الزيارة لم تكن مجرد زيارة من دافع كياسة و لياقة

لتمني التطيب و الشفاء للسيد غوربوف و حسب، و أنا لا أجد بداً هنا سوى أن أسألك مباشرة، كون عمي يرفض الحديث عن أي شيء يخص عمله عندما يكون متواجداً في المنزل، فإستخلاص الكلام منه أمرٌ صعب ».

قهقهت روتفا و نفضت رأسها في عبث ممازح.

« إذاً هذا هو الأمر، فإذا كان عمك صعب المنال، فأنت تجدني سهلة الإستدراج و الخداع، لكن لا بأس، فهناك بعض الحقيقة في ذلك، و لا أتكلم أنا هنا عن سهولة إنتزاع الكلام مني، و أنما عن شراكة والدي مع أندريه، و يبدوا بإن عمك هو المقترح لهذه الفكرة، فلا يجب أن أخبرك بأنه هو المستشار الأول لجميع رجال الأعمال من اللذين يبتغون النجاح ».

أماط رومان شفتيه في عجب من هذا التطور، و لم يرتح له، و إن كان يصر في دواخله عن وجوب إمتنانه لجميع أطراف هذه الشراكة لما وفروا له من مساعدات و خدمات، فمن عمه كان المسكن و المأكل، و من السيد غوربوف الوظيفة و الراتب، و من أندريه التوسط و المحاباة التي قد جعلته يتمسك بكل هذا، فلا يوجد أي داعي للقلق أو التوجس من هذه الشراكة، و لم يرى رومان بإن هناك أي سبب لهذا الشعور النافر سوى إن عاداته القديمة تحاول أن تفرض نفسها من جديد، و رومان يدرك كم ستكون لها عواقب وخيمة في حال حدوث ذلك و فرضها لنفسها على تصرفاته، فما حلْ له هنا ليتخذه سوى الكبت و الإختزان، و لا سواهما.

« على ذكر أندريه، لقد سمعت بعض الإشاعات و الأقاويل من بعض العاملات هنا في المنزل، و أنا متأكد من أنها مجرد أحاديث تافهة لا أساس لها من الصحة، لكن، . . . ، أندريه له إبن يدعى كوستانتين كما تعلمين طبعاً، فأنت قد قابلتيه عدة مرات خلال الأسبوعين الماضيين

أثناء زيارات أندريه، حيث يكون برفقته أحياناً، و هذه الإشاعة تقول بإن كوستانتين قد . . . ».

سُمِعت طرقات على خشبة مدخل الحديقة، و ألتفت كُلاً من رومان و روتفا تجاه الدخيل، و الذي تجلى أمامهم بكامل وقاره و رزانته، كوستانتين، الذي ألقى نظرة خاطفة تجاه رومان و على جل الحديقة، قبل أن تتوقف نظراته على روتفا.

« إذاً يا روتفا، أأنت جاهزة؟ ».

كانت تلك الجملة قد أكدت ما قد سمعه رومان، و لم يحتج لأن يحرج نفسه و لا روتفا بإكمال سؤاله، لكن الحرج ظل جزءاً من المعادلة، حيث أحمرت وجنتا روتفا، و أرتبكت في ما تفعل أو تقول.

« جاهزة؟، لكنها لم تتعدى الثامنة بعد، لقد ظننت إنك قد قلت بأنك ستأتي عند التاسعة و النصف ».

حاولت روتفا نفض التراب عن لباسها في خبئ و تحرج، و كأنها تكره بأن ترى على هذه الحالة الغير الائقة، و أخذت تحاول تعديل خصلاتها و لماماتها المبعثرة و هي تعض شفتيها في خذل مهبط للنفس، قبل أن تندفع نحو المخرج بعد أن أفضى لها كوستانتين الطريق.

« أعطني خمسة عشر دقيقة، . . . لا، بل عشر دقائق و سأكون جاهزة، و تستطيع أن تنتظرني في غرفة الجلوس داخل المنزل إذا تريد ».

نفض كوستانتين رأسه مصراً على إنتظارها هنا حتى ترجع، و لم تحاجه روتفا في ذلك فهي لم تجد المتسع لذلك حيث أخذت تهرول للمنزل على عجلة، تاركة كوستانتين خلفها، و متناسية رومان بجل حاله.

طرقع التراب تحت وقع حذاء كوستانتين الجلدي السميك، و هو يمشي في ما بين حرائش الحديقة و ممراتها، و لم يكن و كأن شيئاً منها قد أعجبه، حيث أنه لم يتوقف و لو للحظة ليتمعن في أي شيئ منها، سواء أشجرة كانت أم زهرة، حتى وصل للطرف الآخر من سياج الحديقة، و لم يكن من الممكن التعرف على مكانه إلا من خلال صوته الذي جلب إنتباه رومان.

« لا أعلم ما الجيد في تبذير كل هذا المال لتربية بضعة أشجار كالحة و ورود باهتة، لا بد و أنها مشقةٍ تقع على كاهلك بأن تعتني بهذه الحديقة، و خصوصاً بعد ما حدث، . . . ، بالمناسبة يا رومان، أما زلت في إنتظار فرصتك السانحة التي قلت بأنها ستجعلك في صفاً واحداً مع كبار رجال الأعمال؟، فهذا ما قلته لي أثناء تلك الليلة المشؤومة، ألا تذكر؟ ».

أمتقع وجه رومان و أصفر، بعد أن ذكره كوستانتين بعاداته القديمة و كلامه المتبجح المبني على الكذب و التضليل، و لا عجب في ذلك، فرومان لم يكن من السذاجة بأن يتوقع بأنه يستطيع بدء صفحة جديدة بيضاء هكذا و حسب، دون أن يطل ماضيه الأسود بين كل حين و حين ليفسد مزاجه و يثير مشاعره، و لم يريد أن يأجج توابع ذلك الماضي، فكان كل ما وجب عليه فعله منذ أن أتخذ ذلك العهد في تلك الليلة الكلحاء هو أن يتغاضى و يسكت خنوعاً و طوعاً عن أي مسائلات أو تقصيات قد تحاول قحم نفسها بين باب خزانة ماضيه القديم و بين يده التي تقاسي بشقاء محاولة وصده.

« لما الصمت يا رومان؟، لم أعرفك هكذا، و لو أني لم أعرفك إلا ليلة منفردة قد تلخصت في محادثة واحدة، إلا أنك لم تعطني في تلك الليلة سوى حساً بحب التحدي و المواجهة، و حس بالإنفرادية ناتجة من إطلاعك للناس و فهم خصالهم و طريقة تفكيرهم، و على الرغم من إنك قد وجهت لي بعض اللكمات محاولاً إيذائي، إلا إنني أعجبت بتلك الوحشية، فإن كان الأثرياء و رجال الأعمال يُشبّهون بالذئاب المستعرة التي تنهش ضحاياها و تترك أترابها، فأنت كنت كالثعلب الذي ينسل من بين الجميع و يحتال عليهم كما يريد و من أية جهة يحب، و لكن ها أنت هنا الآن تتجاهلني و ترفض الإعتراف بما أنت عليه، فيبدوا بأن الثعلب قد فقد حواسه و قرر الإختباء بين قطيع الخراف ».

وقفت روتفا عند المدخل و هي تحاول أن تنظم أنفاسها التي تصاعدت جراء إستعجالها في التجهز، و بدا واضحاً بأنها لم تتوقف عن تهذيب لباسها حتى آخر لحظة قبل وقوفها هنا.

« إني جاهزة، هلا ذهبنا ».

حدق كوستانتين في روتفا معجباً بما رأى و بما أحلت نفسها من لباس، و خطى خطوات واثقة و رشيقة نحوها، و مد ذراعه تجاهها لتأخذها بين ذراعيها، و قبل أن يرحلا، توقف كوستانتين لبرهة و نظر لرومان الذي كان قد توقف عن العمل و أخذ ينظر إليهما من شزر.

« إحتذر يا رومان من هجمة الذئب على القطيع التي لن تستطيع أن تفرق بين خروفٍ و ثعلب ».

ختم هذا الكلام المُرمّز الذي لم تفهم روتفا مغزاه بإبتسامة رائقة و أحنى قبعته تجاهه مودعاً إياه، فيما كانت روتفا تتنقل في نظرها من رومان إلى كوستانتين محاولة إدراك ما قد دار من حديث بينهما أثناء غيابها.

عامدت الشمس هامة السماء، و ضربت الرياح أغصان الأشجار و ساقطت أوراقها على رأسي رومان و أليس الجالسان تحت إحدى هذه الأشجار المزروعة في الحديقة العامة، و كانت هذه عادة يومية قد قامت بينهما بأن يلتقيا ظهر كل يوم في مكان ما من أمكنة التفسح و الإستجمام التي تحويها المدينة، و كانت الحديقة العامة هو المكان الذي عاند رومان و أعلن معارضته في المجيئ إليه على الرغم من إصرار و إلحاح أليس لفترة طويلة عن رغبتها في قضاء ظهرية أحد الأيام فيه، و ها قد أتى اليوم الذي أنتصرت رغبتها فيه و أجبرت رومان على المجيئ معها، و هذه الصداقة التي قامت بينهما منذ اللحظة الأولى التي تقابلا فيها لم تتضرر جراء تحول رومان المفاجئ الذي طرأ عليه بين ليلة و ضحاها بعد تلك الأمسية المشؤومة، بل على العكس، فالروابط ما بينهما قد توطدت و تعمقت و زادت متانتها، و كان تأثير هذا التحول قد جرى مفعوله و طال أليس، و لو بالقليل، لكنه يظل تغيراً محسوساً، فهي لم تعد تعرُض في الناس، و لا تتهجم عليهم و تشتمهم أثناء هذه اللقاءات الوجيزة التي تجمع بينها و بين رومان، و عوضاً عن ذلك تحولت أحاديثها إلى مواضيع أخر، ليسوا بذو أهمية، مجرد أحداث يومية تحدث لها بشكل إعتباطي، و في المقابل كان رومان قد قل من أحاديثه و أخفض وتيرتها، فهو لا يكاد ينطق إلا بالإيجاب و التوكيد على جل ما تلقيه أليس تجاهه من مواضيع و نقاشات، لا يخالفها الرأي، و لا يسخر بها و يتفه من ما تقوله كما كان يفعل سابقاً، و سيكون من المخادع أن نحكم بأن أليس راضية بالكامل عن هذه الحال التي أصبح رومان عليها، من خنوع و خضوع و إنمحاء في الشخصية، فما جذبها إليه في الأساس هو فرديته و إنطلاقته في

الحياة دون هوادة أو تقيد بالأحكام الإجتماعية و بأعرافها، فالشخص الذي أمامها الآن لن يتجرأ على إقتحام إحدى المطاعم الباذخة و الجلوس عنوة مع إحدى الشابات دون إستئذان أو حتى الإبتداء بكلمات ملاطفة كما فعل معها في تلك المرة، فذلك الشخص قد أختفى.

« بالمناسبة، هل سمعتَ عن ما حل بفيلبونا؟، تلك الخادمة التي كانت تعمل في بيت عمك و أستقالت فجأة كما أخبرتني، يبدوا بأنها قد أقحمت نفسها في ورطة كبيرة، فإحدى صديقاتي قد أخبرتني عن شابة إسمها فيلبونا تطابق وصفك لها، و عن كيف إنها قد أقترضت مبلغاً ضخماً بشروط تعجيزية من أحد المرابين الشرسين من اللذين يملكون روابط و صلات مع عصابات خطيرة، و عن كيف إنها عجزت عن رد جزء من المبلغ كدفعة أولى للمرابي، و لم تجد بداً أو سبيلاً سوى أن . . . ».

زمجر رومان و صرخ بصوت مكبوت و متألم في إنطلاقة لم تكن معهودة منه خلال الأسابيع الماضية.

« كفى!، كفى يا أليس، دعي الماضي للماضي، و أعفيني من تبعاته، فأنا ألاقي ما يكفيني و يزيد من جرعات المرارة و القهر، و لا أريد المزيد منه، فلا علاقة لي بها و لا بأحدٍ آخر غير من هم حوالي في هذه اللحظة، أتريدينني أن أشفق على غيري و أنا لم أستطع فعل ذلك مع نفسي إلا مؤخراً؟، أو أن أساعدهم و أنا لا أملك حيلة لمساعدة نفسي؟، أنا وضيع يا أليس، أنا حقير، فحتى الكلب لا يتشرف بمقارنتي به، فطوال تلك السنين كنت . . . ، دعينا من كل هذا يا أليس، فقط دعينا منه ».

أسدلت أليس أهدابها و أماطت شفتيها من هذا الكلام المضض، و كادت في خضم هذه اللحظة أن تمد يدها لكتف رومان و تمسكه و لكن كبرياءها، ذلك الكبرياء الذي لا

يسمح لها الحرية في إطلاق شعورها، و لا التعبير عن ما في خوالجها علانية، قد منعها و أقنعها عن حطاطة هذا الفعل الذي كادت أن تقوم به، و عن كونه لا يناسب مكانتها و لا ما تتوقعه من نفسها، قام رومان من مكانه فجأة، و بدا محتاراً في أين يتجه، و لم يكن ذلك سوى لأنه لم يقم أصلاً لكونه قد شعر برغبة في المضي إلى جهةً ما، و لكن ما دفعه لذلك هو ذلك الألم البغيض في أحشاءه الذي داهمه و جعله يقفز من مكانه، و لكن هذا القيام لم يدم طويلاً حتى سقط من علياه، و أتخذ العشب الطري مخلداً، و صراخ أليس و نداءها للغوث من المارة يصدح في أذني رومان، حتى خَفَتَ و لم يسمع منه سوى صداه المتردد و المرتد في دواخل رأسه.

لامست يد رومان الرمل الرمادي، و أخذت راحته تمسد هذا الرمل و تصبطه متعجبة من ملمسه الغريب القوام، و رجلي رومان تشعران بشعور يشابه الإنهاك يمنعهما عن النهوض بخفة، و لكن في نفس الوقت هو نفسه رومان كان يشعر بخفة وزنه و سرعة إندفاعه عن السطح الذي جلس عليه، و لا عجب في ذلك، فهو رأى نفسه جالساً على سطح القمر!، يرى تقوس إنحناء سطحه بشكل بائن، و كأن ذهنه لا يستطيع أن يبني هيكل للقمر إلا كما يراه دائماً في الواقع من بعيد، و الظلمة الحالكة التي أحاطته من كل مكان، لا نجوم تلمع و لا أرض تطل بوجهها و لا شمس تسطع، لكن القمر نفسه ما زال مشعاً، تناطط رومان على سطحه و تواثب، متنقلاً من نقطة لأخرى، قفزة بقفزة، لا يعرف ما الذي يفعله هنا، أو ما هو المطلوب منه، حتى ألتفت للخلف، و رآه، أو قل تعرف عليه بالأرجح، فقط من رؤية القسم العلوي من وجهه الذي طل من وراء إنحناءة القمر، مغطياً المساحة الشاسعة كلها بحجمه الهائل و الخرافي، فكانت العين الواحدة أكبر من بحيرة متوسطة، و كان هذا هو سيرغي، الذي تناساه رومان طوال هذه الفترة، و ليس هذا فقط، بل هو حتى لم يره مطلقاً

منذ ظهرية ذلك اليوم المشؤوم بعد أن أفترقا عند ضفة النهر، لا يعرف شيئاً عن تطوراته و لا عن ما يحدث معه طوال هذه الفترة، الفتى الأصم و الأبكم، سيرغي، ها هو هنا، يحدق فيه بتلك النظرات العالمة و المدركة، تلك النظرات نفسها التي لطالما أرهبت رومان و أبهرته في نفس الوقت، تلك النظرات التي جعلت منه مؤمناً بالخوارق، و مصدقاً لإتحاد ذهنه مع ذهن سيرغي، و عن قدرته — أي سيرغي — على التخاطب معه ذهنياً.

« ماذا تريد يا سيرغي؟، . . . ، كلا، أعذرني يا سيرغي، لم أقصد أن أكلمك بهذا الأسلوب المتعجرف، فأنا رجلٌ متحول و متغير، فالأحرى أن أسألك، كيف حالك يا سيرغي؟، و ما الذي كنت تفعله طوال تلك الفترة؟، . . . ، هئ هئ، يا للسخف!، لماذا ما زلت أظنك قادراً على إيصال أفكارك لي مباشرة لذهني، فأنا قد أدركت بأني كنت أؤمن بهذا مسبقاً ليس سوى لكوني أنانياً و نرجسياً لحد الثمالة، فما أن رأيتك عاجزاً و غير قادر على إيصال أفكارك كما يفعل الجميع، حتى أردت أن أكون الوحيد القادر على هذا، و أن أكون منفرداً في القدرة على فك تشافير أفكارك، لكني لم أعد ذلك الشخص السافل الأناني، و لقد غيرت طرقي، و الجميع مِن مَن حولي يدرك هذا و يشجعني عليه، فيا ليتك تكون بجنبي من الآن و صاعداً أيضاً لتشجعني كذلك، فماذا تقول يا سيرغي؟ ».

تقطبت حواجب سيرغي، و أحتدت نظرته في حنق و غضب واضح، فلم يعد سيرغي هذا هو سيرغي ذو الوجه المتجمد الذي لا تستطيع قراءة ملامحه، فهذا تعبير لا يصدر إلا من شخص قد تعود وجهه على هذا التشكل و إتخاذ هذه الهيئة بتكرار، مما صدم رومان و أرجف فرائضه التي وجدت من الصعب عليها في هذه البيئة الخاملة بأن تعبر عن جدية ما يسري في أديمها، و فجأة سمع صوتاً لا يعلم مصدره و لا كُنه صاحبه، صوت لا يميل لا لصوت الرجال و لا لصوت النساء، صوت غريب يخص شخص لا بد و أن يكون من خارج أطوار البشر،

شخص لم يختبر يوماً أن يتحدث بصوته الدخيل هذا مع بشري من قبل، و لا أن يعبر بكلماته الخاصة عن ما يختجل في دواخله، نطق هذا الصوت بنبرة حادة مؤنبة.

« أتسألني عن حالي!، و أنت تعلم مسبقاً جوابي، أتحاول أن تحسن معاملتي، بعد أن أستغليتني و رميتني جانباً بعد إنتهاءك من خدماتي، أترى وجهي الهائل هذا الآن أمامك، و لكن كم كان صغيراً و مهملاً في ما سبق، أترى صوتي مميزاً و مقلقلاً و مختنقاً بالعبرات، و كم كان صامتاً و أبكماً في ما مضى، أتسألني عن حالي؟، و لما السؤال و أنت تستطيع سماع جوابي في دواخلك؟، لما لا تطنب و تطيل في آرائك و توجهاتك بكل حرية كما كنت تفعل دائماً؟، أخبرني، أهذا هو التغير الذي تظن إنك تتخذه سبيلاً؟، هل السكوت هو التغير؟، هل التجاهل و الغفل المتعمد يعتبر تحول و تخطي؟، كلا!، و ألف كلا!، فأنت لم تتغير، و لن تتغير يوماً ما، فأنت كلبي حتى النخاع، و سافل رذيل في كل لحظة من عمرك، و لا سبيل لمن هو مثلك في التغير مطلقاً، إلا بالتصنع و التمثيل، أو كما تفعل أنت الآن بالكبت و التهبيط، فأترك عنك هذه الكلمات الملاطفة، و عد كما كنت سابقاً، أصرخ في وجه عمك، و أعط زوجة عمك الوجنة السوداء، ناوش روتفا و شاجرها في كل ما يصدر منها، و أشتغلني أنا و فيولا كما تُشغل الحمير و الأبقار، فهذا هو أنت، إنتهازي، و متلاعب، و أناني، لا تعير لأي أحد بال، و لا تستجد عطفاً أو شفقة لأي أحدٍ كان، و معاملتك لفيلبونا خير مثال و تمثيل لشخصيتك بأنصع خصالها، أنظر إلى ما حال بها الأمر، و إلى أين وصلت في حياتها فقط بقضاءها أسابيع قليلة برفقتك، تسمم فكرها بهمساتك الليلية الماجنة و الشيطانية، فما أنت إلا شيطان بهيئة آدمي، شيطان لا يستحق سوى الجحيم، و لا يجب أن يرافقه إلا العفاريت من أمثاله، فهيا!، إنهض، إنهض و أخبر العالم بمن أنت حقاً، ما بك؟، أخائف الآن؟، لا وقت للخوف الآن، فهذا ما جنيته على نفسك، فقابله بوجهٍ شجاع، إنهض! ».

فزع رومان من رقاده، و صرخ نفساً شاهق، و أخذ يمسح العرق الذي غطى جبينه و تجمع على حواجبه، و بعد إستطلاع المكان حواليه أدرك بأنه مسجى على سرير مشفى، في غرفة صغيرة خاصة، و ما هي لحظات حتى دخلت عليه ممرضة قد أتت لتستطلع سبب تلك الصرخة، و رومان ظل حائراً و غير فاهم لما حدث له طوال فترة غشيانه، تيقنت الممرضة لذلك، و أخبرته عن كونه كان مغشياً عليه لما يقارب الأربع ساعات منذ أن جلب هنا عند تمام الظهيرة، و بأن من كان ملازماً إياه آن ذاك هي آنسة شابة تدعى بأليس إن كان يعرفها، و تجلت الأحداث التي لم يشهدها رومان أمامه و تخيلها تجري كما لو أنه قد كان موتعياً لها طوال الوقت، طلبت الممرضة من رومان بأن ينتظر قليلاً بينما هي تقوم بإستدعاء الطبيب الذي سيخبره عن وضعه الصحي، و يناقشه في إن كانت هناك مشكلة ما أم لا في جسمه، رجعت الممرضة مع الطبيب بعد دقائق، و تركتهما لحالهما، كونها ليست مخولة للإطلاع على السرية التي تقوم بين المريض و طبيبه، و كان هذا الطبيب كاهلاً في السن، أصلع الرأس و منتفش الشعر عند الصدغين و اللمامات، نظر إلى رومان بعيون ثقيلة تبدوا معتادة على توصيل معاني مكبوتة و متوارية إلى من يريد الطبيب أن يفهمها، زحزح كرسياً مجرجراً إياه ليكون بالقرب من موضع رأس رومان، و جلس عليه متأوهاً ليظهر بذلك كبر سنه، و أبتسم ببشاشة و بشكل مفاجئ تجاه رومان الذي رأى نفسه يندفع للوراء في محاولة للإبتعاد عن هذه اللمحة التي بدت متعاكسة و متناقضة، و أخذ الطبيب بطرح مختلف الأسئلة على رومان، من تاريخه الطبي إن كان يملك واحداً، إلى أصناف الإصابات و الأمراض التي حلت به على مدى عمره، إلى العوامل النفسية التي يمر بها أو مرت له و المواقف التي يعرض نفسه إليها، و لم يبدوا بأن لهذه الأسئلة نهاية أو غاية، حتى وصل أخيراً لما كان يهم رومان حقاً، ألا و هو الألم المتواتر الذي يصيب أحشاءه بين كل فترة و حين، و بعد كل تلك المماطلة، كان الكلام عن

هذا موجزاً و خاتماً لنهاية هذا الحديث، و نهض عنه الطبيب و أخذ يربت على كتف رومان الذي كان قد تجمد في مكانه و بدا كتمثالاً مصقول جراء ما سمع من الطبيب.

كانت الساعة السادسة عندما رجع رومان إلى منزل عمه، و لم تكن الأضواء منيرة كما هي عادةً، لا غرفة الجلوس، و لا غرفة الطعام، و كانت درجات السلم تتدارج في ظلمتها كلما أرتفعت للطابق العلوي، خاض رومان في غمار المنزل، حتى وصل لغرفة العاملة الجديدة التي حلت بدلاً عن فيلبونا، و طرق عليها الباب الذي فتحته بعجلة و كأنها ترتقب قدوم شخصاً ما، و كان هذا الشخص هو رومان، الذي قالت له بكلام متعثر و متداخل.

« آه، سيد رومان!، لقد كنا ننتظرك، أعني أنا كنت أنتظرك، هناك شيئاً يجب أن تعلمه، أوصاني به السيد غيرسكفيسكي بأن أوصله لك، و بأن أخبرك به حالما تصل إلى المنزل، فهم ليسوا هنا كما ترى، أعني السيد غيرسكفيسكي و زوجته و إبنتهما، لقد خرجوا منذ الساعة الثالثة، منذ أن وصلتهم رسالة من السيد غوربوف كانت قد أوصلتها إحدى عاملاته، و ما أن قرأها السيد غيرسكفيسكي حتى هم هو و عائلته بالتأهب للمغادرة إلى منزل السيد غوربوف، و أوصاني بأن أخبرك بأن تلحق بهم ما أن تصل، . . . ، هل وضحت لك الصورة، أم تريدني أن أعيد؟ ».

لم يحفل رومان بما قالته العاملة، و لم يبدوا مركزاً معها في كلامها، فذهنه كان في مكان آخر كلياً، فلا وقت عنده الآن للكلام و النقاش، فإن كان كل ما عليه فعله هو اللحاق بهم إلى منزل السيد غوربوف، فذلك ما سيفعل، قفل رومان راجعاً من حيث أتى، و خرج من المنزل و خطواته بطيئة متكاعسة و خاملة، و الحزن و القنوط هما سمتيه الباديتان على وجهه، مشى رومان على الطريق، و رآه كما لم يره من قبل، بعيون منكدرة تجعل كل شيئ

مجهول و عبثي، لا حاجة لوجوده و لا داعي لأن يعطيه أي من تركيزه، حتى وصل أخيراً إلى منزل السيد غوربوف، و لإحساس داخلي أمتنع رومان عن الدخول عبر الباب الأمامي، و توجه مباشرة إلى خلف المنزل ملتفاً حواليه، و كان حدسه صائباً، فها هو عمه برفقة زوجته دانيا واقفان بإنتظاره، و ها هي داليا جالسة على أحد الكراسي الموضوعة على الشرفة و برفقتها فيولا التي أمسكت بيدها ما أن رأت رومان، و كان السيد غوربوف أيضاً جالساً بتهدرك على أحد الكراسي أيضاً عطفاً على صحته المنتكسة، و لكن ما كان صادماً لرومان هو منظر الحديقة الذي كان يحاول منذ شهر أن ينساه، و ها هو يرتسم مرة أخرى أمام عينيه بأنصع صورة حقيقية له، فكل شيئ قد دمر و أحرق، فرائحة الدخان التي قد شمها عند وصوله كانت يجب أن تكون كافية ليتنبئ بسبب هذا التجمع و الإستدعاء، و لو لم يكن رومان أصلاً في أرذل حالة نفسية قد أختبرها و قدميه ملامسة لقاعها لكان قد شقق ملابسه و صرخ بقمة صوته، و لبحث عن المجرم و تتبعه حتى أقاصي الأرض، و لكن كل ما قد أجترئ رومان على أن يصدر منه هو تأوه ضئيل يعبر عن خيبته و إستسلامه، فما العمل الآن؟، أسيفصل من عمله في هذه المرة؟، و ماذا في ذلك؟، فهو لا أمل له بعد هذا اليوم أصلاً، خرج بعض الرجال من الحديقة و على أفواههم و أنوفهم خرقات تمنع إستنشاقهم للدخان، و أعلنوا عن إنتهاءهم من إخماد الحريق بشكل كامل، و على إنه يجب على أحداً ما أن يتصل بقسم الشرطة ليحققوا مع المجرم، و على أثر هذه الجملة أستفاق رومان من غيبوبته، فهل هم أمسكوا حقاً بالمجرم؟!، تواثب رومان من شخص لشخص يطلب منهم الإفصاح عن من يكون هذا المجرم لكي يقتله بيديه بعد أن يسومه أسوء العذاب، و كُلاً يمتنع عن الإجابة و يكتفي بحدجه بنظرات إتهامية تعلمه بإنه — أي رومان — مدرك و عارف لمن يكون عليه هذا المجرم، حتى وصل أخيراً إلى فيولا و تهدرج أمامها، و قبل أن يسألها عن هوية المجرم، هربت منه و أتجهت لأحضان والدها و هي تبكي بحرقة مفجعة، و هي تعتذر عن ما سببته و أجتنته على حديقة والدها، و أخذ

السيد غوربوف يمسد رأسها و يقبله و هو يهمس في أذنها بصوت ضعيف و واهن عن أن ليس أيٍ من هذا هو خطئها، و إنها لم تقم مطلقاً بأي شيئ قد يضر الحديقة و لا يمكن أن يصدر ذلك منها، و عن كونها لم تفعل أي شيئ سوى أنها قد نابت عن رومان في عمله و هذا ليس خطئاً منها، أنصدم رومان لهذه الفضيحة التي قد أعلنت، و أتضح بإن الجميع قد علم بهذا الأمر عطفاً على إنعدام ردود أفعالهم، فلا بد و أنها — فيولا — قد أفصحت عن هذا مسبقاً قبل مجيئه، و في تلك اللحظة خرجت خادمة من الباب الخلفي تطلب من رومان بأن يرافقها للداخل، فهناك شخصاً ما يطلب حضوره، تردد رومان و أجال برأسه تجاه الجميع يطلب إذنهم أو مشورتهم، و لكنه لم يلحظ منهم سوى نفورهم منه، و نظرات التقزز و الكراهية تجاهه، فقرر رومان الهروب من هذه المعاملة المكدرة و أتبع الخادمة للداخل.

قادت الخادمة رومان إلى غرفة الجلوس التي كانت هادئة بطبعها، و أول ما رآه هي روتفا الجالسة على الأريكة تفرك يديها في وجل، و تبدوا سادرة و واجمة و هي محنية لرأسها، و ما أن أنتبهت لرومان حتى أدارت رأسها للشخص الآخر الذي لم ينتبه له رومان لضئالة حجمه، سيرغي، نعم، سيرغي كان جالساً هو الآخر على إحدى الأرائك، بوجهه المتجمد، و بدنه المتحنط، و عيناه الثاقبتان، ما الذي يفعله هنا؟، طرح رومان هذا السؤال على نفسه خفتاً و على روتفا علناً، فتلقى جواباً، لكن ليس منها، و طبعاً ليس من سيرغي، و لكن من خلفه، حيث دخل كوستانتين عليهم غفلة.

« هذا السافل الصغير هو السبب في كل هذا، فللمرة الثانية في غضون شهر يقوم بتخريب الحديقة، و أن لم يكفه الجز و التقطيع في تلك المرة، فقام بحرقها عن بكرة أبيها هذه المرة، سافلٍ صغير أقول لك، لكن أتدري من هو الشخص الذي هو أسوء منه؟، إنه الشخص الذي أدله و أدخله للحديقة و سمح له بالعبث و المرح في أرجاءها، و لا أحتاج لأن أخبرك

عن من يكون طبعاً، فكلنا هنا نعرفه و ندرك هويته، فقد حادثنا هذا الفتى عن كل شيئ، قليلاً بالإشارات و كثيراً بالكتابة، و لقد أخبرنا عن كل ما قد فعلته أنت به، و عن ما جرجرته عليه و علينا من مشاكل، أتعلم بإن هذا الصبي لم يحضر دورسه في المدرسة منذ أكثر من شهر؟، لقد كان يقضي كل يوم في البدء برفقتك، و لكن ما أن تخليت عنه و تركته وحيداً يتدبر حال أمره، حتى أخذ بالتسكع في الشوارع و الطرقات، لتعترض له كل المشاكل و التهجمات عليه من مختلف مِن مَن يلاقيهم، لقد أعوجت طريقه يا هذا، لقد دمرت حياة صبي لم يكن له أي دخل أو شأن في ما تقوم به و أو ما يجري في حياتك البائسة هذه، أخرجته من مسار حياته فقط ليخدمك قليلاً و من ثم تلقيه جانباً، يا للعار!، لو كان أمرك بيدي، لبلغت عنك ليس للشرطة و حسب، بل لفضحتك أمام الناس جميعاً و نكلت بك، و لعرّضت بك أمام كل من ألاقي كالمنحط الذي هو أنت عليه، لكن قلب السيد غوربوف حنون أزيد من المطلوب، فهو قد أخبرني بأن كل ما يريده منك هو بأن ترحل عنا، و بأن لا تعود لنا مجدداً، و بأن لا تظهر وجهك أمامنا أبداً ما قد حييت، و بالمناسبة، يبدوا بأن عمك قد قرر هو الآخر طردك من منزله، و إرجاعك من حيث أتيت ليدخلك هنالك في إحدى البرامج التأهيلية، لا أعلم كيف سيعاملونك هناك و لا ما سيعلمونك، لكني لا أظن بأن أي شخصٍ أو هيئةٍ ما بأمكانها إنقاذ شخصاً مثلك، فأغرب عن وجهنا ما دامت النفس عنك طيبة ».

أبتلع رومان ريقه، و أخذت الدموع بالتكدس تحت عينيه، و أرتجفت شفتاه و هو يحاول طلب الصفح من روتفا التي أخذ بالتقدم نحوها، و لكنها أدارت وجهها عنه و أسدلت رموشها بقسوة، و قبضتي يديها تهرص ثيابها، فأبعد كوستانتين رومان عن روتفا و دفع صدره

بعنف قد جعله يترنح للوراء جراء شدته على بدنه و أجبره بأن يستدير للمخرج أثر صدمته، فلا أمل له هنا و لا مخرج غير هذا المخرج، و لا سبيل له غير الرحيل.

أخذتا رجلا رومان تتسابقان مع بعضهما البعض مخرجين رومان من الباب الخلفي، حيث أنتبه الجميع له، و كما فعلوا سابقاً حدجوه بتلك النظرات القاسية و اللائمة، حتى تقدم عمه منه بحزم نانخاً صدره و مشاكساً وجهه.

« إسمعني جيداً، أريدك أن تذهب لمنزلي و أن تحزم حاجياتك و أن لا تترك شيئاً ما يخصك هناك أو أن تتناساه، فالرحلة التي قد خططتها لك لا تقبل العودة، و بالغد ستستقل القطار لتعود من حيث أتيت، و لا تحاول إتخاذ وجهةٌ أخرى، فأنت سَتُدخل لمصحة تأهيلية تختص بأصحاب النفوس المريضة من أمثالك، فإما هذا أو السجن، فإن سامحك السيد غوربوف و عفى عنك مرمطة الخيار الآخر، فأبوي ذلك الصبي سيرغي لن يقبلا بأن يحل بك سوى ما يقتضيه هذين الخيارين، و لا تترقب عودتي للمنزل لتحاول أن تقنعني بتغيير رأيي أو التوسط لك، فأنا و عائلتي سنقضي الليلة هنا لنواسي و نعتني بهذه العائلة الطيبة التي لم تعاملنا في أي يوم كان سوى بالخير و بالمحبة، . . . ، آه، يا لنحسي و يا لمصيبتي، كان يجب علي أن أستمع لنصائح أصحابي و بأن لا أعتني بجرذاً مثلك، و ما الذي كنت أتوقعه منك سوى أن تكون كوالدك تماماً، فأغرب عن وجهي، هيا أغرب ».

عادتا رجلا رومان إلى التسابق و الدموع تترك آثارها خلفه كما أخذتا قدماه بفعله، فما الحيلة هنا و ما العمل؟، فكل ما حدث و كل ما خوطب به هو الحقيقة المطلقة، فلا إلتباس قد حدث هنا و لا سوء فهم قد تم هنا، فهو حقاً قد عامل سيرغي بطريقة متوحشة و مسيئة، و قد أساء إليه كثيراً و لم يكن بالنسبة له سوى أداة، يستخدمها عند الحاجة، فقط ليلقيها جانباً

عند الإنتهاء منها دون إكتراث لأية جهة تقع، و يحق لسيرغي بأن يشعر بالقهر و بالغضب تجاه رومان، و بأن يسعى للإنتقام منه بأية طريقة، و ها هو قد أنتقم منه، لكن أحقاً يعد هذا إنتقاماً إن كان من المقدر و منذ البداية على الرومان بالفشل و بالخيبة في كل ما يفعله، فلم يكن ما فعله سيرغي سوى تخريبه لممتلكات ليست لرومان و لا تقع تحت يده بعد الآن، فها هو يرحل بعيداً عن أناس لا يطيقهم، و عن منزل لم يشتهيه يوماً واحد طوال إقامته فيه، و هو في طريقه للإقامة في مجمع تأهيلي عوضاً عن أن يقبع في زنزانة سجن متعفنة، فمن المتضرر الحقيقي هنا؟، يبدوا بأن الإجابة على هذا السؤال صعبة، فالحياة ليست بهذه السهولة للإجابة على ما يقتضية كل حدث أو واقعة تحل على شخصاً ما، و لا يمكن الإحتكام إلى ما نظنه فعلاً شنيعاً إلا بحكم الحال و فقط، لا على المدى الطويل، فكم من فِعلٍ مكروه قد تسبب بتحسين وضعاً ما و أقام منه من لو أنه ترك بدون أن يصيبه ذلك الفعل، و كم كان العكس صحيحاً أيضاً، فلم يرحل رومان مقهوراً بالكامل و لم يبكي طوال ليله على فراشه و هو ينتظر إنبلاج النهار، و لم يحزن لفراق أحداً ما هنا مِن مَن قد تعرف عليهم خلال هذه الأشهر القليلة، فكانت رحلته عند الصباح على متن القطار نمطية و عادية، لم يشعر على أثرها بأنها أي شيئ غير كونها مجرد رحلة ستستمر ليومين حتى يصل لوجهته و يكمل فيها ما تبقى له من حياة.

(الخاتمة)

أثنت روتفا صحيفة اليوم و وضعتها على الطاولة، و رفعت كوب قهوتها لترتشف القليل منها قبل أن تحادث رفيقتها جورين التي كانت جالسة على الجانب الآخر.

« يبدوا بأن الدفاع لا يزال يماطل و يعترض طريق المحكمة في إصدار حكمها، فهم يدركون بلا شك بأن قضيتهم خاسرة و لن تنتهي إلا بإدانتهم بالحبس و إجبارهم بأن يردوا الأموال التي أختلسوها، يا لعارهم و خذلهم، يبدوا بأنهم قد فقدوا أي حس قد كانوا يمتلكونه من حياءٍ و حشيمة، صدقيني يا جورين عندما أقول لك بإن هناك أناس غريبي الأطوار تصادفينهم في حياتك، و لا تعلمين كيف أنتهى بهم الحال على التي هم عليها من عوج و شذوذ في شخوصهم و ميولهم، و لا أجد بداً سوى أن أساءل نفسي أهذه خصال متأصلة أم متخذة؟، لكن لا يبدوا بأن أحداً ما يملك الجواب الحاسم لهذا السؤال المهم ».

نفضت جورين رأسها في حسرة و ندم، و كأن صدمة ذلك الخبر الذي قد أنقضت أشهر طويلة على ذيعانه لا يزال يجتري عليها مفعوله، و أجابت بشفة متدلية تماثل طريقة الأطفال في حديثهم.

« يا للحسرة، من كان ليظن بأن كوستانتين قادر على مثل هذه الأمور الشنيعة، شاب وسيم مثله، و كثير الإعتداد و الثقة بنفسه، . . . آه، كان يجب علي أن أستدرك بأنه لا يمكن لشاب بمثل هذا الكمال بأن يتواجد في الواقع و إلا أن تكون هنالك خصلة شائبة معيبة و بالغة تتوارى في دواخله، و لكني لم أتوقعها بأن تكون بهذه الشدة من الشناعة!، أفيحاول إختلاس أموال والدك؟، حقاً؟، فأنا ما زلت لا أصدق بأني لست في كابوس طويل لا سبيل للأستيقاظ منه، و لكن . . . ، ربما . . .، و أنا أقول هنا ربما، فلا تؤاخذيني إن كان ما

سأقوله قد يبدوا ساذجاً، لكن ربما كوستانتين قد جُرجر إلى هذا الوضع غصباً عنه، و ربما هو قد عارض فعلاً القيام بهذه الجريمة و قد حوصر إليها مجبراً و كسيراً كما أخبر القاضي بذلك، و يكون عبئ الجريمة كلها على رأس شريكه، أو بالأحرى القول محرك الدمى الذي عبث به و جعله يقوم بما لم يرد القيام به ».

حدجت روتفا جورين بعيون متمللة، فهي قد كانت تعرف مسبقاً بأن هذه هي وجهة النظر التي ستحتكم لها جورين و تنتهي إليها، فهي ليست صديقتها منذ الطفولة عبثاً، فهي تعرف كل خصالها و طرق تفكيرها، و لو لم يكن الموضوع الذي بين أيديهم بهذه الجدية لسمحت لها بأن تستمر في طريقتها في التفكير الآفن هذه و بأن تدعها تخرص ما تريد و تنتهي لأي حكماً تفضله.

« أتعنين بهذا الكلام بأن إيفان هو المحرك لكوستانتين؟، على الرغم من الرسائل التي وجدتها السلطة في مكتبه و تبين بوضوح عن كل التحريضات و التخطيطات التي دبرها كوستانتين و أسبل طريقها لإيفان لأن يتخذها و يقوم بها، و من ثم هو من دعى والده أندريه للقدوم لهذه المدينة للإقامة معه بعد أن خدعه زاعماً بأنه يريد أن يغير من طريقته العوجاء في حياته و بأن يكون أندريه شاهداً و محفزاً له و هو يقوم بذلك، و هو من طلب من إيفان بأن يعرض خدماته كمستشار تجاري لأندريه، و هو من أقنع والده بعقد الصفقة الإختلاسية مع والدي، و ليس ذلك فقط، فهو حاول حتى أن يستميلني تجاهه و في رأسه خطة للزواج مني لضمان مكانته من ورثة والدي و أختلاس كل ما يستطيع منها، فلا تحاولي يا جورين أن تدافعي عنه فقط لوجهه الوسيم أو ثقته الزائدة، فأنا لن أسمح لأي أحد بأن يتعدى على أي من أفراد عائلتي و أن يفر بجلده من العقاب، و لقد أوصيت محامينا بأن لا يدع واردة و لا شاردة من

سوابق كوستانتين و إلا أن يدعها في حسبانه ليبني بها دليلاً لا يمكن رفضه أو دحضه من قبل دفاعهم، أحسناً هذا يا جورين؟ ».

أزادت جورين من إمطاتها لشفتها، و كأنها لا ترغب في التراجع عن ما قالته و ما تظنه، و لكنها كانت أكثر إدراكاً للوضع الحرج و الحساس الذي هم فيه لأن تستمر بمجادلتها مزيداً أو بأن تتخذ دور محامي الشيطان، فأرتأت أن تغير الموضوع و تبتعد عن هذا الإحتداد و التوتر الذي نشئ و أقحم نفسه عنوة في ما بينهما، أو الأحرى أن هذا الموضوع نفسه و ذِكرهم لهذه الأسماء قد أستدعت إسماً آخر لذاكرتها.

« عن ذكر الإختلاسات، يبدوا بأن والدك ليس الوحيد الذي حاول إيفان النصب عليه، فآخر التحريات المستجدة تقول بأن حتى إبن أخيه لم يسلم منه، و من الواضح بأنه قد كذب عليه و أخبره عن كون ورثته من والده ليست إلا بضع خريدات لا تستحق الإطلاع عليها، و لكن السنود و الأوراق التي وجدت في مكتب إيفان تقول شيئاً مختلفاً آخر تماماً، و على الرغم من إنني لا أعلم شيئاً عن من كان والد رومان أو أية وظائف كان قد شغلها في حياته، لكن المؤكد هو أنه قد جميع الكثير الكثير من النقود وحشدها في مختلف البنوك و الإستثمارات، و من المؤسف إن رومان لن يستطيع التمتع بأي من هذه الورثة الضخمة المفاجأة، فيا لحظك التعس يا رومان، فهو ما أن لبث و أن وصل لتلك المصحة التأهيلية و مكث فيها لبضعة أيام حتى أخذته المنية، جراء مرضاً كان يعاني منه، و لم أستطع لحتى هذه اللحظة أن أستعلم عن ما كان صنو هذا المرض الذي ألم به، لكن يبدوا بأنه قد أبقاه سراً لمدة طويلة لنفسه، و لم يخبر أحداً قط أياً كان، فمسكين أنت يا رومان ».

سكتت روتفا، و أحنت رأسها تحدق في أصبعها الذي أخذ يجري بعبث على طرف كوب قهوتها، و تنهدت نفساً مخنوقاً، قبل أن تنفض نفسها و تيقظ ذهنها من هذه الحال قبل أن تنجرف في تبعاتها.

« ما هو رأيك يا جورين؟، أنغادر الآن، أم أنك لم تشبعي بعد من قهوتك السوداء المرّة هذه؟ ».

قامت روتفا من على مقعدها بعد أن تركت نقوداً ثمناً لقهوتها، و غادرت المقهى بسرعة لا تحتمل التأخير، و جورين تناديها من خلفها بأن تنتظرها ريثما تبحث عن العملات المناسبة لتدفع بها ثمن قهوتها هي الأخرى.

على الطرف الآخر من المدينة، و في حي منزل عائلة غيرسكفيسكي، و في منزل يقبع على طرف الحي، كان سيرغي جالساً في غرفة الضيوف، بوجهه المتجمد و المتصلب، يحدق أمامه بعيونه الثاقبة، ينظر بها إلى إشارات يد معلمه الخاص، الذي كان من الضروري توظيفه، و توكيلهُ مهمة تعليم سيرغي، عطفاً على الدروس التي أضاعها و لم يحضرها سابقاً، و في الحقيقة لم يكن هذا هو السبب الحقيقي الذي دعا والديه لإتخاذ هذا الطريق معه، فما كان هذا إلا كلاماً و عذراً واهي يرمونه تجاه كل من يسأل عن حال إبنهما سيرغي و يتفقدون حاله، و لكن الدافع الذي أخذ بهما لأن يجعلا منزلهما فصلاً لدروسه، هو عدم طمأنينتهما لوضع إبنهما النفسي، و عدم ثقتهما بقدرته على تدبير أمور نفسه عندما يكون خارجاً عن نطاق نظرهما و قدرتهما في التحكم و التصرف السريع في حال حدوث أمراً ما معه، فحتى توكيل مرافقاً له لم يجديه نفعاً، و لم يسبب له و لغيره إلا الضرر، فتلك الفتاة المسكينة ما زالت تحس بالذنب و المسؤولية على ما حل بسيرغي، و هي لم تنوء عن زيارة منزل عائلة سيرغي كل يوم منذ أن

أنكشف الحال، و لم تتوقف قط عن الإعتذار لوالديه بعيون ملآنة بالدموع عن كيف كان من المفروض منها أن تتفطن لما كان يحدث أمامها، و بأن تدرك كم كان ساذجاً منها أن تصدق كل ما قاله ذلك الرجل الغريب، و عن عدم إخبارهما بما حدث آن وقوعه، و لكن كل هذا لا يجدي نفعاً الآن، و لم يجدا سبيلاً أمامهما سوى إتخاذ الطريق القاسي و الصعب في تربية إبنهما الوحيد سيرغي، و الغريب من كل هذا هو أن سيرغي بين كل حين و حين، كان يقوم بالإشارة بيديه بكل حزم و مثابرة و يطرح سؤالاً لا يجد والديه له جواباً، و هو الذي كان من عادته الإمتناع عن أن يكون المبتدئ في المحادثة مع أي أحدٍ كان، و يكون هذا السؤال.

« إلى أين ذهب رومان؟ ».

و لم تؤول الحال في منزل السيد غيرسكفيسكي بنفس الصورة التعسة و النهاية المكدرة التي أصابت جيرانهم، فدانيا لم تعد تلك المرأة التي تصطنع السخافة و الغباء، فلا سبب بعد الآن قد تجده لأن يجعلها تستمر في هذا التمثيل، فبغياب زوجها، و إنزياحه عن كونه الحائط الذي كانت تجد من الواجب منها أن تختبئ وراءه و أن لا تصدر جلبة أو صوت من خلفه، قد تغيرت و أحتدت غرائزها و أطباعها، و أمتنعت عن حضور تجمعاتها النسائية، ليس من داعي الكراهية أو الغضب التي قد تضمره تجاههن و خصوصاً بعد كل تلك المحاباة و المواساة و عروض المساعدة التي تلقتها منهن بعد وصول أخبار ما حدث لزوجها و ما فعله من أمور شائنة لمسامعهن، و لكن كان ذلك لإنشغالها و عدم وجود المتسع من الوقت لديها لتفضي منه ساعات طوال فقط لتقضيها في أحاديث جانبية، فهي لديها الآن وظيفة لتتمها و تكدح فيها لتجلب قوتهم اليومي بعد أن أصبحت العائل الأساسي للعائلة، و أمامها واجب أسري قد أتضح أمامها يقتضي بأن تربي إبنتها بأمثل وجه و أنصع صورة مع غياب شخص الأب عن

حياتها، فهي من واجبها من الآن فصاعداً إتخاذ الدورين — الأم و الأب — معاً، و لم يكن ذلك بالسهل مطلقاً، و لذلك كانت حقائبهم قد حزمت و صُففت عند مدخل بابهم، و خادمتهم قد أخليت من وظيفتها منذ عدة أشهر، و داليا قد أتمت أوراق نقلها لمدرسة أخرى في خضم إنتقالهم المترقب لمنزل أصغر و أرخص يمكن تدبيره و الصرف عليه من دخلهم المحدود بعد أيام قليلة، و لم تعد داليا تحس بالغبن و الخوف كما كانت تحس دائماً، و لم تعد تجد إنه من المناسب منها بأن تعتكف جانباً بعد الآن، فهي لها دوراً مهم في هذه العائلة الثنوية من الآن فصاعداً، و لها مخططات مستقبلية تطمح لتحقيقها، و هذا ما أزاد من ثقتها بنفسها و جعلها قادرة على أن تتقدم في حياتها بعد تلك الفضيحة التي ألمت بوالدها و أن تقابلها بإبتسامة عريضة لا تمحى لأي سببٍ كان.

و ننتهي من عائلة غيرسكفيسكي على وقع مشجع، و لكن قد يتساءل البعض، ماذا عن أليس؟، ماذا حل بتلك الشابة ذات الطابع الحاد المتداخل؟، و السؤال الأهم الذي أخذ ضيوف والدتها يطرحونه عليها دائماً هو.

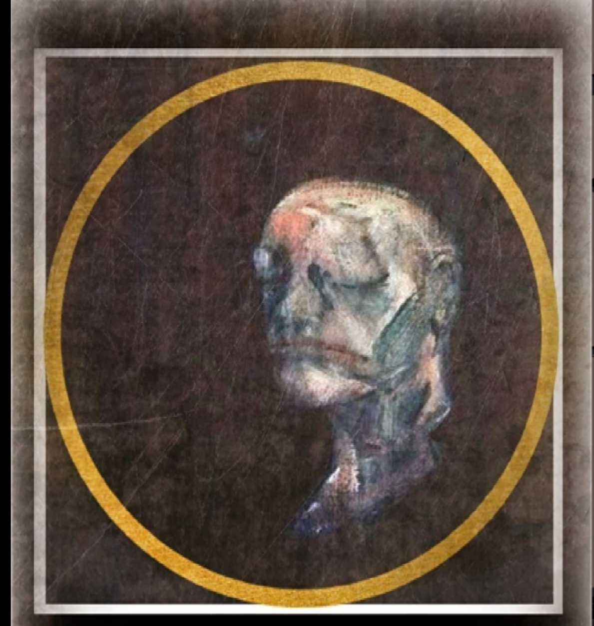
« إلى أين أرتحلت أليس؟، و لماذا كانت على قدراً من الحزن و الوجوم لأشهراً طويلة قبل إختفاءها المفاجئ؟، ما الذي جعلها تنقلب في مزاجها إلى هذا الحال بعد أن كانت دائماً ما تطل علينا في جلساتنا هذه بوجهها البشوش، و بكلامها اللطيف؟، أشيئاً ما طرئ في حياتها لا نعلم نحن عن شأنه شيئاً؟، أكانت تختزن مشاعراً مكبوتة لم تجد بأنه قد يكون من اللائق منها أن تصارحنا بها؟، ما الذي حل بأليس يا ترى؟، و هل رأت بأن المكان الذي أرتحلت إليه قد يجلب لها السعادة التي لم تستطع أن تجدها هنا؟، أتمنى أن نجتمع هنا يوماً ما في إحدى جلساتنا هذه و يكون بمقدورك إجابتنا على كل هذه الأسئلة، فذلك الوجه المفجع الذي لبسته

أليس طوال تلك الأشهر لا يصدر إلا من قد فقد شخصاً عزيزاً عليه لا يقدر بثمن و لا يستبدل «.

" تم "

محمد البحريني

2021/11/10



أماسي الديجور

رواية مخادعة و مماوهة ، تُنبئ بداياتها في مشهدها الإفتتاحي بروايات العشق و الرومانسية المعتادة ، التي تنشئ و تنموا من دوافع نقيضة من الشخصيتين المعنيتين ، لكن ليست هذه الرواية ، فهي تأخذ منعطفات خطيرة و غير متوقعة ، و تدخل أعماق و ثنايا لا يتوقعها القارئ ، ولم تمهد لها إرصانات الحبكة ، و بطل القصة ليس بطلٌ حقيقياً لها ، فهو لا يقاوم نزعاته و لا يهذب سلوكه ، و البطلة ليست بطلةً حقيقيةً للقصة ، ليس لعطباً أو شائبة فيها لكن ليس لسوى كونها بالكاد تطل علينا إلا بين فترةٍ و أخرى ، و لا يعنى لها شئناً في الصورة الأكبر للرواية

فما تَبنى عليه هذه الرواية لا ينموا و لا يشبوا ، و ما يزرع و ما يسقَى لا يشجر و لا يثمر ، فما هذه الرواية ألا عقماً يتبعه سخط ، و سخطاً يتبعه إحباط ، و إحباطاً يتبعه ذبول ، و ذُبولٌ لا بَعد له .

تأليف : محمد البحريني

10/11/2021